

الامام
علي بن أبي طالب

الجزء السادس

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العقاب
بيروت

ثقل على الناس الانتظار . . أينما راح منهم رايح أو غدا غاد ، بمحاضرتي
النزاع ، لمس قلقا ولهفة ، وسمع ضجرا في همس ، وضجرا في علق . .
في السكوفة كما في دمشق ، وفي دومة أيضا . . والناس ، حيثما كانوا ، ما برحوا
على قدم ، يعدون الأعين ، ويتلعون الأعناق تطلعا إلى الثرة التي تهبأت لقطفها
يد التحكيم .

ولم يبال الحكمان — فيما بدا — تلك اللهفة ، ولا حاولا أن يهدئا من نائرة
ذلك الفضول الذي غلب على نفوس الجمهور . بل لعلهما كانا أدنى إلى تقلب
جمره وتأريث ناره بما اتهمجا من استخفاء وتكتم كلما فاءا إلى المفاوضة واجتمعا
بمستقرهما لبحث الأمر وتبادل الآراء .

كانا ، إذ ذاك ، ينحازان بعيدا عن الجموع . عن الخاصة والعامة . عن الأعين
والألين . . أياما عدة أمضيا بهذا الجانب من الأرض الجرداء في دومة الجندل ،
في مسرى الريح ، بخيمة من وبر لم تكن تكف عنهما زمهرير الشتاء . صبحهما
موصول بليله ، وليلهما موصول بفجره . في النور حوار ، وفي الظلمة
تدبر وادكار .

ولكنهما لحكمة انحازا . أو لعل ، فما أفصح الزمن عما اضمرت قلوب . .
لحكمة ، أو لعل تهلا إلى رمضان إلى نهاية المدة ، وشدا وثاق الليالي الطويلة
بقيد التريث الثقيل . . إن يكن أبو موسى الأشعري استأنى بالأمر عن تردد ،
أو تخرج ، أو محاذرة حتى يعرف موضعا لقدمه ، فما بال عمرو بن العاص ينزع
أيضا إلى نفس هذا الإبطاء المرذول وهو العالم بما أقبل فيه ، المستوثق بما في يده ،
الباني في أمسه لعدده . . ؟

فلعله إذن بعض دهاء ابن النابغة أن يرجى لحظة الحسم ما وسع جهده
وحيلته إرجاء . . وأن يبطئ كرفيقه ، وعلى للوقت في المهل والتريث ، وأن
يفسح لهذا الرفيق في المحاورة والمداورة وهو ، في الحق ، إنما يدور بالناس
في تيه من الفروض والأحداث ، ومن الريب والشكوك ، ومن النظرات

والآراء . . . كآنى به يعطى فى التريث ليشد أعصاب الجمهور ، ويزيد فى قلقهم ، وينزع قلوبهم توجسا وخوفا من مجهول مرهوب ، حتى إذا اشتبهت على الأشعرى المسالك ، وكثف حوله ضباب الظنون ، تهاوى بما بقى من إيمانه المصدوع المهزوز — إن كان لديه من قبل إيمان — بهذه القضية التى اختير لنصرتها وهو منها ، منذ نشوئها ، بموقف شبهة واتهام . . . كآنى بالناس ، إذ طال بهم الانتظار ، وضجوا منه ، ونقد صبرهم عليه ، قد تاقوا إلى تكشف الغيب ، سريعا سريعا — اليوم ! الساعة ! اللحظة ! — عن غدهم المرتقب وإن طلع عليهم بشر الخطوب . فما أشق على النفس من ترقب البلاء . . . وما أعنى وأشد من بلاء مجهول . . . فإذا انجابت إذن لحظة الحسم ، من بعد ، عن حكم هو أهون شرا من ذلك الخطب الذى حزرته الأوهام دون الأفهام ، وقدرته الأخيلة المريضة المكدودة ، وخالته الأعصاب المهيضة المشدودة ، فذاك عندئذ هو الشر المأمول المقبول . . .

على الأعصاب لعب إبطاء رفيق دومة الجندل بالحكم ، تلك الأيام الطويلة الثقيلة التى امتزجت فيها قرة الشتاء بنهكة الصيف ، جفرت بردها فى الأوصال بالقشعريرة ، وصغبت فى الجسوم بالإعياء . . . ما من امرئ طلع عليه هلال رمضان ، ذلك العام ، وهو هناك ، إلا ود — يبعث عمره — لو تمجىل الخاتمة المجهولة . . . الذين كانوا بمقام عزلة ، لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء من فريق العراق والشام ، شاقهم شهود النهاية التى تشبع الفضول ، وتطبق الغلاف على قصة الخلاف . . . والذين عرفوا حقهم وآمنوا به ، ودوا لو جاءتهم هذه النهاية معجلة : انتصارا كانت لهذا الحق أم كفاحا جديدا فى سبيله ، بالحديد والدم ، حتى يرتفع علمه ويتهاوى خصمه . . . والذين هزتهم الشكوك أو استعبدتهم أهواء الأنفس وعروض الحياة ، رجوا أن تكون العاقبة خاتمة ، سواء أقبلت فى موكب سلام أم شدت إلى عجلة استسلام . . .

رغبات الجموع كانت ، حيال النديجة المنتظرة ، على تفاوت ، وإن كانت مشاعرم ، حيال الإبطاء بها ، على اتفاق . . . لكن فئة من الناس هى التى صارحت الحكيم حينذاك بما ضمت الحواطر وأجنت الضمائر . قلة منهم . بضعة نفر ، خرجوا من الحمس إلى الجهر ، ومن اللغظ المبهم إلى الإفصاح المبين . . .

وما كشفوا ، حين لفظوا عباراتهم القصيرة الموجزة ، إلا عن شق الأحاسيس التي خالطت السرائر في مختلف أرجاء الوطن الإسلامي الكبير . .

من الأولى عرفوا حقهم ، ولم تراودهم عنه شبهة : سعيد بن قيس ، أحد أصفياء علي . . جاء يحمل إلى الحكيم ضيق الناس بإبطائهما المريب ، ولا يكتنهما إيمانه بحق إمامه ، وتحرقه إلى بلوغه وإن طرقت تفرشه العواصج ، وتحده الأسنة ، وتظله السيوف . . قال :

« أيها الرجلان . . إني أراكما أبطأتما بهذا الأمر حتى أيس القوم . . فإن كنتما قد اجتمعتما على خير ، فأظهراه نسمعه ونشهد عليه . وإن كنتما لم تجتمعا رجعنا إلى الحرب . . »

وعدى بن حاتم أيضا ضاق بهما ، وكان أشد عليهما من زميله . . طالعهما غير مداور ولا مجامل ، برأيه سافرا ، ظاهرا ، بادى الحشونة والتسعر كما انتفضت ، عن جمر متقدة غيرة الرماد . . قال :

« أما والله إنك يا عمرو لغير مأمون الغناء ، وإنك يا أبا موسى لغير مأمون الضعف ، وما ننتظر بالقول منكما إلا أن تقولوا . فوالله مالكما مع كتاب الله إبراد ولا صدر . . »

فأى المشاعر والانفعالات أنارت هذه الأحاديث وأمثالها في نفس الحكيم ، وبأى كلام تحركت شفاههما جوابا على ما انتقل إلى سمعيهما من تعلل الجمهور . . ؟
الأشعري كان أظهر برما ، وأشد دفعة ، وأعجل من رفيق حكومته الماكر الختال إلى الرد المتهور الذي يكشف السريرة . فلم يكذ يسمع حق تغير وجهه ، وبان السأم في ملامحه ، ثم طوح بيديه ملالة وهو يهتف ، في أنفة البرم المنكر ، وصلف الواثق المدل بمقداره ، المزدري رأى ناقدية :

« كفوا عنا ، فإنما تقول فيما بقي ، ولسنا نقول فيما مضى . »

فكان جوابه أشبه شيء بخيال انعكس من أمسه القريب الداهب على مرآة يومه المقبل الجديد . . كان — في الحق — رأيا أخلق به ، وأدنى إلى مزاجه . ولعل عبارة لم تفصح قط عن دخيلة صاحبها ، ولا كشفت من رأيه الخبيء المستر

ما كشفت هذه العبارة من رأى الشيخ وهو يقولها إذ ذاك بلهجة إدلال لا ينطق تدليل . .

فهل هي زلة لسان ؟ . .

هل هي خطرة سجية ، ودفعة ولا روية ؟ . .

عن وعى منه ، أو غفو الخاطر ، حسر الرجل اللثام عن دوره في التحكيم — كما يرتأيه — فإذا هو يجاوز به ما ندب له ، ويخالف فيه ما اجتمعت عليه أفهام حزبه ، وشطحت إليه أحداس معارضيه . . . لكانه شاء أن يدع أمس ويعرض لغد . أن يغفل ما كان ويمدل عنه إلى ما يريد أن يكون . أن ينأى بنظره وفكره عن الخلاف الذى شجر بين على ومعاوية وهو — بغير جدال — اب القضية التى يتقاضى عليها اليوم ، فى رحابه ورحاب زميله ، ذانك الزعيمان ومن وراءهما من أبناء الأمة الإسلامية الذين وقع بأسهم بينهم شديدا ، دفاعا عن الوحدة ، أو تطلعا إلى السلطان . .

وعلى سنن الأشعرى ، أو فى سبيل قريب ، سار آخر من رجال الإمام ، قد طوح به حب الحياة ، والشغف بالجاء ، من أقصى اليمن إلى أقصى اليسار حتى لأوشك — وهو من قادة العراق — أن يكون ذبلا لأهل الشام . على نفس هذا السنن المتوى الدوار كان انطلاق الأشعث بن قيس ، والحكماء عندئذ يتشاوران أو يتداوران . . فلقد أقبل عليهما ، واللهفة تأكله ، والحشية على السلم — وليده الشائه الذى أنجبت له الزاوجة بين الوهن والحيانة — تكاد تتخطف ثباته واتزان ، فقال :

« يا هذان ! إنا قد كرهننا هذه الحرب فلا ترداها إلينا . . إنها مرة الرضاع والقطام ، فكفاها بما شئتما . . »

بما شاءا . .

بأى ثمن . .

بالوسيلة التى تحفظ الدم ، وتمسك العظم على العظم ، وتقتل المثل والقيم !
تقيم السلام على استسلام . تكف الحرب على ما يشتهى داعية التخاذل الأول يوم صفين حين أثر الارتداد عن ولائه وأعلام النصر تحقق إذ ذاك على معسكر الإمام ، كما أثر ، عقيب موت الرسول ، الارتداد عن الإسلام . .

جاوز الحسبان كل معالم الحدود التي رسمتها ظنون الأعداء وأمانى الأصفياء .
أبو موسى الأشعري طفرت به « غفلته » — أم هي فكرته ؟ — بعيدا
بعيدا عن مواطن الثقة ، غائرا غائرا في مهاوى التشكك فيه .
عندما خرج للحكومة تصايحت فئة له ، إيماننا به ، أو اطمئناننا إلى حكمته . .
وتصايحت فئة عليه ، ريبة فيه ، وتوجسا منه . ولكنه أتاها من بعد جميعا —
بمخلاف كل منتظر — بأقصى نقائص الإيمان ، وأدنى مناقص الشكوك . .
قيل له :

« . . اعرف خطب هذا الأمر ، واعلم أن له ما بعده . . إنك إن أضعت
العراق فلا عراق ، فاتق الله . . . وإذا لقيت عمرا فلا تبدأ بالسلام فإنها —
وإن كانت سنة — إلا أنه ليس من أهلها . ولا تعطه يدك فإنها أمانة . وإياك
أن يقعدك على صدر الفراش فإنها خدعة . ولا تلقه وحده ، واحذر أن يكلمك
في بيت فيه مخدع تحبباً فيه الرجال والشهود . »
فسمع بأذن ، ولفظ بأخرى ، وآثر المحذور المحذور . . .
وقيل عنه :

« . . لقد تعجلت رجال مساءتنا في أبي موسى ، وطعنوا عليه بسوء الظن ،
وبما الله عاصمه منه . . »
فلم ينصف دفاعهم عنه ، بل اعتصم منه بسوء الظن ، وظاهر — بفعله —
كل طاعن عليه ، مستريب فيه . .

وعمر بن العاص طفا في لجج خبثه على قمة الخدع والأباطيل ، تطهر الزبد
والنفاية ، حتى بلغ في انحرافه عن الجادة أبعد ما رجحت له أحلام أصحابه ، وبما
خشيت منه مخاوف مناوئيه . .
قيل له :

« . . إنك رجل قريش ، وإن معاوية لم يبعثك إلا ثقة بك . . وإنك لن

تؤتى من عجز ولا مكيدة ، فكن عند ظننا بك . . .
فأتى من المكر بما أعبي المكر ! . . .
وقيل عنه :

« . . . إن عمرا ليس من الله في شيء إذا كان له في أمر هوى . . . »

وكان له ، بلا جدال ، هوى وأهواء . في سطوة في إمرة . في دنيا تمود عليه بسلطان أمسه الذي تركه هناك ، ذات يوم مضى ، إلى جانب النيل على ترى الوادى الأخضر . . السنون السوائف لم تنسه جاهه الذهاب ، ولا بخلت عليه بحلمه الحلو الذى ظل طويلا يخاط صحوه ونومه ، شهرا شهرا ، يوما يوما ، ساعة ساعة . . .
حق والمنايا تتربص به ، وتوشك أن تسد عليه مسالك النجاة في عنفوان الصراع بصفين ، برقت له مصر في خياله كما يبرق الشهاب الهاوى في الليل الأسحم . . عندئذ استضاءت على البرق ألميته التى أخذها ، إلى حين ، غبار الهزيمة ، وتوهجت جمرتها ، واشتعلت تلهب نفسه بسورة كأنها الحيات تهيج الخمور . فما أسرع ما اندفع ، غير وان ، على بقايا القيم المشروعة لينتزع حياة رخيصة كالتراب ، كريمة كالصاب ، من أنياب الموت . . بالحيلة انتزعها . باللعبة الغادرة . بهذا التحكم الذى مده حيالة محبوكة الخيوط ، دقيقة النسيج ، صادت العقول المخدوعة . . .

ولم ينس أبدا ذاته وهو يحاور رفيقه في قضية الخلاف . . مرات عدة حام بحديثه حول نفسه ، وحول ابنه ، وحول أيما امرئ شام في استخلافه تحقيق أطماعه الطويلة العريضة . . بل قد حاول ذات مرة أن يرشد أبا موسى على رأى ، إحساسا منه — فى أعماقه — بأن لكل رأى ثمنا ، وأن المعنويات — كالماديات — توزن أيضا بالدرهم وتشترى بالدينار . . .

فيا ترى تجنى ؟ . . .

على طبعه لم يفعل . . . إنما كان وفيا لنفسه الوفاء الذى يدفعه دائما إلى امتثال رأيها ، واحتذاء نزعها — بالشبر وبالفتى — كأنه يسير إلى آرائها على صراط . . . وإذا كان قد راود الأشمري عن ولائه للقضية ، فإنما مراودته صدى خليقته ، وظل شيمه وسجاياه . فالإناء ينضح بما فيه . والبرء يقيس الأمور بمعايره الخاصة ثم يحسب الناس وإياهم في الهوى سواء . . .

هكذا كان . وهكذا انطلق بصاحب مفاوضته يلف ويدور في تيه من الأمانى والفروض . حق إذا حسب أنه أعياء رأيا وحيلة ، قذفه باسم سيده ، رفيق خدعته : معاوية ، أميرا للمؤمنين . .

معاوية ؟ . .

لم لا وبيته في قریش رفیع ، وهو أحد الصحابة ، وأخته أم حبيبة ؟ . .
وبدا الأشمرى هنيهة كالحائر . .

وراح عمرو يشد عليه ، ويوسوس له :

« . . إنه إن ولى أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة . . »

عندئذ أصابت دعوة الغدر المثلث ضمير الشيخ بوخزة موجعة فانبعث منضبا

يحجيب :

« والله لو خرج لى من سلطانه ما وليته ، ولا كنت أرتشى فى الله . . »

فلمن هذه الغضة الهادرة ، وقيم الإباء ؟ . .

لغير على بطبيعة الحال . . لا للوفاء ولا للولاء . بعيدا بعيدا عن النية السليمة ، والطوية الخائصة المستقيمة التى من أجلها اختاره أهل العراق ليكون وكيلهم ، صاحب رأيهم ، الدائد عن قضيتهم ، وإنما فى رأى الواقع اقضية التمرد على الإمام والخروج على النظام العام .

لغير هذا كله صاح الأشمرى فى وجه ابن العاص ، تلك الليلة من ليالى التحكيم ، نافضا تلويحجه بالسلطان ومخايلته إياه بالجاء . أم لا فكيف تفهم تصرفه وهو يتبع ثورته الغاضبة بآخر ما كان ينتظر من وكيل أمين ؟ . .

لا يلبث قليلا على استنكار الرشوة المعروضة حتى تهدأ نفسه ، ويخرج طائعا مما ندب له وجاء فيه ليعرض من لدنه بضاعة جديدة . . بلا تحرز ، ولا شعور بتبعة نحو أهون ما يطالب من ميموث مثله من أمانة المرض والأداء — دع عنك واجب الدفاع — نسمعه يردف إياه بشر استخذاء . . يقول :

« . . إن شئت ، أحيينا سنة عمر بن الخطاب . . »

فإذا لم تكن عبارته هذه تنكرا للبدأ ، ونقضا للولاء ، وخيانة خيثة فاحشة

للذين أوفدوه ، فعلى أية صورة من الصور يمكن أن يصاغ النكت أو تصور
الحيات ٢ . . .

الكأني بالأشعري عندئذ قد لبس إهابه ، ورد على نفسه ثيابه كيوم تخذيله
في الكوفة عن الإمام . . . الكأنا عاد ثانية لأمره يثبط عن نصرته على ، ويحمد
في أئمة المسلمين ، وفوق شفاههم ، وبين قبضات أيديهم ما كان حقا عليه أن
يرسله من طاعة لولى أمرهم الشرعى تتمثل في خفق القلوب بالولاء ، وهتاف
اللسنة بالدعوة وبالثناء ، واهتزاز الكفوف بالسيوف تحش عدوه كحش المناجل
السنابل ١ . . .

بل كان أشد على أمير المؤمنين هذه المرة وأعق . لم يعتزله . ولا وقف منه
موقف حيدة . ولا حث القوم حوله على التلبث والريث حتى تنكشف لهم
غوامض الأمور وتبدى ، من خلال الأحداث المتلاحقة كهوج البحر في اليوم
العاصف ، لمحات آية نهديهم سبيلا إلى تأييد على ، أو اعتزاله ، أو قتاله . . . إنما
بسط ما طوت الشهور السوائف من كفره بحق الإمام في الإمرة ، ثم انطلق
قدما ، مشدود العزم ، ثابت الخطو ، على درب خطيئته ، لعله يبلغ الآن ما فاته
بلوغه منذ حين . . .

بالنية المقودة لا بالهفوة العارضة ، وبالإصرار ، عن اختيار ، وقف
الأشعري موقفه . وما هو في الواقع علوم حين تقاس النتائج بملها ، وترد
الفروع إلى أصولها ، وينظر من خلال الطبائع الفطرية والسلائق الأولية إلى
الأعمال والأقوال . نفس وما تهوى ، ونفس وما تعيل . . . إن نظرك ليقع على
امرئ فلا تملك ، من أول وهلة ، إلا النفور منه والميل عنه . وإن نظرك ليقع
على آخر فلا تملك ، من أول وهلة ، إلا الإقبال عليه والميل إليه ، ثم لا تدري ،
في كاتنا حالتك هاتين ، أى دافع دفعك إلى شعورين متباينين هما تقيض وتقيض . . .

ومع ذلك فليس طيش العاطفة وحده ما طوح بالحكم الشيخ إلى أقصى نهاية
اليسار سمعنا به في النأي عن نصرته موكلية ، خائنا أماتهم ، ناقضا عهدهم الذى
عليه عاقده . من النصفة له أن نقول إنهم أخطأوا الخطأ كله في حقه وفي حق
أنفسهم على السواء . . . أخطأوا في حقه وهم يحملونه من أمرهم ما هو غير أهل

لحمه غير كفاء للنهوض به . وأخطأوا في حق أنفسهم وهم يدركون طبعه
ويعرفون غايته ثم يكادون يلمسون لمس الحس — في لحظة بمشة للحكومة —
ما يقطع الشك باليقين ويوصي بالشواهد الناطقة والأدلة المبينة أنه خليف بخذلانهم
والانتفاض على قضيتهم انتفاض الصابي المرتد عن عقيدة أكره على اعتناقها ولما
يجاوز إعانته بها حدود شفتيه ! . . . فلقد كان لأبي موسى فيمن جانبوا فريق
الإمام ومعاوية ، واعتزلوا محبة الجماعة الإسلامية آنذاك ، رأى معلوم يظاهرهم ،
ويضع الحق كله في جانبهم ، ثم لا يدع أسواهم إلا الباطل والشر والخطيئة . . . في
تشبيطه بالكوفة دليل . وفي قعوده عن على دليل . وفي أحاديثه الرسالة هنا
وهناك ، قبيل اجتماعه بعد التحكيم — مرة مع الأخنف ، وثانية مع المغيرة ،
وأخريات مع عدى وشريح وأضرابهما من فريق العراق — دليل ودليل ودليل . . .
لا نلوم الشيخ الأشعري ، حين نحاسبه كصاحب رأى ، وإنما نلومه ونؤثمه
إذ هو وكيل . فعلى رأيه ثبت وأقام الأيام تلو الأيام . ومن أجل إنفاذ هذا الرأى
ذهب إلى أبعد الحدود حتى هانت عنده الأمانة خفان . وفي سبيله ضحى بفرصة
العمر فأبى الرشوة وكانت حرية أن تجيئه بصولجان ! . . .

أفكان حقا ذا غفلة ؟ . .

كلا ، ما كان ، إنما الذين عيروهم بالغفلة من قبل ومن بعد كانت الغفلة بهم
الصق وأليق ، لأنهم أغفلوا أمسه وحاضره ، ولم يبالوا مشاعره ، واعين
أو مخدوعين . . .

٣

طاش ، فيما أحسب ، تقدير عمرو بن العاص حين استخلص لنفسه صانحة
ظفر ذاتى من حديث الأشعري الشيخ . . . ظنه ، وهو يرشح عبد الله بن عمر
للخلافة ، إنما صدر في ترشيحه عن ميل له ، أو لعمر ، أو لكليهما لقه في غلالة
من تقوى الابن قد تبهر أبصار الناس إن لم يعطهم إلى تأييده ذكر ابن الخطاب . . .
لكأنى ببسمة خابية اللون رفت عندئذ على شفق الداهية ، عن طمأنينة ، حق لقد

أوشك أن يفرك كفيه ، ويبعج شذقيه ، ويهتز فرحا وهو يعقب على رأى نده
بلهجة من ذات الحجة له ودان فصل الخطاب . .

قال عمرو :

« . . إن كنت إنما تريد أن تباع ابن عمر لدينه ، فما يمنعك من ابني عبد
الله وأنت تعرف فضله وصلاحه ؟ . . »

فجبهه الشيخ بالجواب الحاضر الذى لم يغير من خلاصة مغزاه ، وإن غير من
مبناه ، دوران الأيام :

« إن ابنك لرجل صدق ، ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة » .

وهوت على الأثر فرصة ابن العاص ! . .

هوت فرصة الظفر الدآى التى صورها وهمه ، وجسدتها أمانيه ، بهذا الجواب
الثابت الهادىء الرصين فإذا هو قد ابتعد به تدبيره وتقديره عن المألوف المعروف
من ذكائه ودهائه بقدر ما أبعد الأشعرى عن الشائع الذائع من غفلته وغرته ! . .
إنها لعثرة لابن العاص تضاف إلى عثرات دهائه ، وتظهر — فى حساب مكره
— عليه ! . . ثانية عثرتين فى يوم واحد ! فى جلسة ! فى نقاش قصير لم يكديمتد
إلا سويعة من زمان غفل خلالها الغريم الداهية عن حقيقة الغريم الساذج الذى
طالما تبدى — له وللناس — فى هيئة غر تلعب به براعة اللفظ فتوقع به براعة
الحيلة . .

هذه المرة الحاضرة : لم يستطع بصر عمرو أن يحترق على الأشعرى جلد بلهه
ليكشف خلفه عن صاحب فكرة قرت دائما فى ضميره قرار الإيمان فمقد العزم ،
منذ زمان ، على نصرتها ، وإن هو ضحى لها ، من قبل ومن بعد ، بالسطوة والسحمة ،
واكتوى فى سبيلها بالزراية والامتهان بل بالتحريم والتأثيم . . .

وتلك المرة السالفة : غاب عنه من طبيعة أبى موسى أنه صاحب تقوى زهف
فيه من الحساسية الدينية والتعرج النفسى ما يشعذ ذهنه ، ويوشك أن يعيل به
عن تقبل المتاع والعروض المألوفة ، فما بالك بالراضاخ الصارخة المفضوحة والرشا
المزفوفة المكشوفة ! . .

ومع ذلك فليس عمرو وحده من كان يؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة ، وأن المحذور الممنوع مقبول مشروع . . . عبد الله بن الزبير — على ما عرف من تقواه وروعه — لف أيضا لف ابن العاص في هذه الباحية ، وكان يؤثر ، حين الحاجة ، الوسائل الملتوية على النهوج المستوية ما دام الانحراف ينتهى إلى الغاية . فلم يكذب إغراء عمرو ، وتلويعه بتلك الرشوة ، يصك سمعه ، حتى مشى — بذكر الثعلب الختال — إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب يوسوس له ، ويدفعه إلى القبول :

« اذهب إلى عمرو بن العاص فارشه . . . »

فصالح من هذه الوسوسة الملبسة بالإرشاء ؟ . . .

ليس ابتغاء وجه الإنصاف بطبيعة الحال . . . لا للقضية ، ولا للأمة ، ولا لابن عمر نفسه كانت هذه النصيحة الزبيرية التى تطوع بها صاحبها آنذاك وأنه لأول عالم أنها دعوة لا تجد صدق فى نفس المرشح لها ، وخدعة لا تجوز على المدعو إليها ، ورأى إن وجد له مكانا فى عداد الآراء فإنه موقع الذيل للبتور الذى تهمد حركته ، وتثبت سكنته ، وتحرس نأمته إذا ما جاشت بالحلول المرتقبة لأزمة الحكم مكامن الخواطر ومقار الأفكار . . .

ومع ذلك قال . . .

أفكان هدفه ومرماه أن ينأى بقضية عنى إلى غير المسلك الطبيعى الذى وجب أن تسلكه وتعضى فيه ، انحرافا براعيا ، الناضح عنها ، إلى ما يخالف مآدب له ، وتثبيتا له على رأيه المشبه الخبيط ؟ . . . ليوشك الأمر هكذا أن يكون فى طبيعة ابن الزبير ختل ثعلب يدفع به إلى تجنب المصارحة ، وإلى التزام المسالك الخلفية ، والدروب التحتية ، بلوغا إلى ما يريد . . . وفى ماضيه أيضا سلوك ، شهد الجمل ، وقاسته البصرة ، ينضح الآن بأن قصاراه ، فى سره ونجواه ، أن يكون ذهاب ربح الإمام مسك الختام . . .

أم لا فكانت ياترى عاطفته « الحجازية » هى التى أملت عليه حث ابن عمر على ركوب ما يكره ، أو ما تصدف عنه فطرته ، بغية الدود بالخلافة — فى شخص هذا العازف الصادف — إلى أرضها الأصلية : الحجاز ، وإلى حاضرتها الأولى : مدينة الرسول ؟ . . .

في هذه التملة ، بغير تخرج ، شطر الجواب . . كثيرون أرتأوا آنذاك ، وإلى اليوم يرتأى أكثرون ، أن عصبية البيئة — إلى جوار الطموح — كانت دائماً تدفع خطوات الثعالب إلى امتطاء أمداد المغامرات سعياً للحكم من أفصر سبله ، أو تدبيراً — في القليل — لتقريب أوان هذا الحكم بتقريب قاعدته من متناول برائته وأنيابه . وما كان شيء يذنيه إليه ، بطبيعة الحال ، مثل غدوه بقلب قطر ، ويبد ظهراني أمة ظلت تتطلع — منذ انبلاخه عن المدينة في مستهل عهد علي — إلى لمحات برق في سماء الأحداث قد تصحبها ، حين فرصة موانية ، صاعقة واهمة ، خليقة بأن تنقض على هيكل البناء السياسي القائم لتقضى على « اغتراب » الخلافة : مشرقة في بلاد العراق أو شاملة في أرض الشام . .

وكان ابن الزبير واحداً من أوائل أولئك الذين عاشت في أمانهم هذه اللعاعات ، ثم غدا هو نفسه ، على الأيام ، الشرارة الباعثة للصاعقة المرتقبة . . . كان ثم غدا ، إذ سبقته ، وتلتته إلى الأمنية ، صفوف . . لما تنسى كيف أن الأنصار ، حين تبينوا عزم الإمام على الخروج إلى الكوفة ، عندما فاءت الإمرة إليه ، قد أشفقوا أن ينسأخ سلطان الإسلام من مهده ليعيش كالغريب المشرّد في غير موطنه ، بديار لم تشهد مولده ، ولم تتمهد عوده ، وبين أقوام لم يتمرسوا برعايته وافتدائه التمرس الذي يرفعهم إلى مستوى من الحرص عليه كمستوى الذين عاصروه سنوات محه وأزماته ، وبوأوه فوق الأرواح . . إن منهم من سعى إليه بالإغراء ، يحثه على البقاء :

« . . يا أمير المؤمنين . . إن الذي ينوتك من الصلاة في مسجد الرسول ، والسعى بين قبره ومنبره ، أعظم مما ترجوه من العراق . . » .
وإن منهم من شق عليه خروجه من المدينة ، وإن لكفاح متعردة طلحة وعائشة والزبير ، فحاول رده عن مسيره ، بالتحذير والرجاء :
« . . لا تخرج منها . . لا تخرج . . فوالله لئن خرجت منها لا ترجع إليها ، ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً » .

ما تنسى أيضاً أن ثورة المعارضة للدولة الأموية ، صدر نشأتها ، كانت دائماً تتركز في الحجاز ، ونجد أنصارها بين أبناء المهاجرين والأنصار ، الذين اتخذوه

عند ذلك ملاذا ، يأبون أن يعدلوا غيرة به طوال حكم معاوية ، ومفتتح ولاية ولده يزيد . . .

أن منهم من وقف ثأرا في وجه مروان حين أرادهم معاوية على البيعة لابنه ، يصيح به :

« تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل ا » .
وإن منهم من ود لو حال بين الحسين وبين الخروج إلى الكوفة ليتخذها مستقرا لدعوته ، وموثبا على الحكم الأموي بالشام . ودوا لو حالوا بينه وبين منتجعه الجديد وفي أخلاصهم الضياع والهلاكة والاسترقاق قرين ذلك الخروج :
« . . الزم الحرم فإنك سيد العرب ، لا تعدل بك أهل الحجاز أحدا ، ويتداعى إليك الناس من كل جانب . . لا تفارق الحرم ، فوالله لئن هلكت لنسترقن بعدك . . »

بل ابن الزبير نفسه قد لاذ بالبيت لا يفارقه وهو يعصى دولة الأمويين ويكتوى من بأسها نظير عصيانه . ثم قد لاذ بالحجاز لا يرضى فراقه وهو يكاد يظهر عليهم ، وتأتيه من قائد جيوشهم مصالحة على البيعة له . .
نادى ابن الزبير عندئذ على جيش يزيد :

« علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم ؟ . . »
فالتقى به بمدحها الحصين بن نمير ، قائد العاهل المالك ، يعرض عليه :
« أنت أحق بهذا الأمر . . هلم لبايعتك ، ثم اخرج معنا إلى الشام ، فوالله لا يختلف عليك اثنان . . »
لكنه أبى :

« لست فاعلا ، وأكره الخروج من مكة . . ولكن بايعوا لي هنا ، فإني مؤمنكم ، وعادل فيكم . . »

أجل ، إنها لعاطفته الحجازية ، من قبل ومن بعد ، التي حركت لسانه إبان التحكيم ، كما حركته عقب الحسرة وهو يوشك أن يقبض يرائنه وأنيابه على صولجان السلطان . . وإنها أيضا لطبيعة الثعلب الرواغ فيه قد دفعته إلى الوسوسة لابن عمر ليرشو ابن العاص عسى أن تعود الرشوة بقاعدة الحكم إلى مكان ،

وبين ظهراني أمة من الناس ، نجعل كلاهما في متناول البرائن والأنياب حين يحين
الحين ، وتتهيا الظروف والأسباب . . .

غير أن ابن عمر فوت على الثعلب غرضه :
« لا والله ما أرشو عليها أبدا ، ما عشت » .

ولم يكفه هذا الردع ، بل انطلق أيضا إلى ابن العاص يحذره مغبة شرارة
يوشك أن يقدحها فتتسع نارا مدمرة لا تصيب الذين ظلموا خاصة ، بل تصيب
الجماعة الإسلامية كافة : الغائب والحاضر ، البريء والمسيء ، البر والفاجر إلى
أجيال . . .
قال :

« ويلك يا ابن العاص ! إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعد ما تقارعت
بالسيوف وتطاعنت بالرماح ، فلا تردم في فتنة ، واتق الله . . . » .

* * *

. . . وليس عمرو وحده من أخطأ فهم ماهية العوامل التي سيطرت على
الأشعري إبان التحكيم ، ودفعت به إلى موقفه المعلوم . . . عبد الله بن عمر نفسه
أخطأ الفهم ، وحمله الوهم على الاعتقاد بأن الأشعري رشحه لمقدم على ، تقربا
وزلفى من وجه ، وإشارا وتفضيلا من وجه آخر . . . وقد عبر ابن عمر عن
خاطريه هذين في كتاب بعث به بعد حين إلى الشيخ ، كان مما فيه :

« . . . إنك تقربت إلى بأمر لم تعلم هواي فيه . . . أكنت تظن أني أبسط
يدا إلى أمر نهاني عنه عمر ؟ .. أو كنت تراني أنقدم على علي وهو خير مني ؟ .. » .
ليس عمرو وحده ، ولا ابن عمر ، ولا غيرها ممن جروا آنذاك هذا الجرى
في فهم أبي موسى أصابوا النظرة وأحسنوا الحساب . جم كثير أخطأوا الخطأ
نفسه . أضلهم وهمهم عن بواعث الشيخ . خدعهم منه مظهر سذاجته عن تعمق
دخيلته واكتناه حقيقة تقديره للمشكل حتى صدمهم من لدنه الحل الذي طالهم به
في التحكيم على ذلك النحو الغريب المريب . . . إلى اليوم أيضا ، وعلى امتداد
القرون الطويلة ، يحسب الناس الأشعري فريسة خدعة أعداء دهاء ابن العاص
واستدرجه إليها ، وهو غافل ، بالملق والحيلة حتى أوقعه فيها كما تستدرج وحش
الغاب إلى حفرة أخفتها الأعشاب . . .

لكن الأشعري لم يكن قط ذلك المغفل الأبله الذى يشير السخرية والرتاء .
فى حسابى أنه لعب دور الخادع وهو يلبس ثوب المخدوع . بمهارة لعب دوره ،
وبقدرة خارقة على الأداء لم تخنه ولم تنعثر به منذ البدء إلى لحظة إسدال الستارة
على الرواية الحزينة . . ولقد أسفر ، فى نتيجة التحكيم ، عن رأى الذى اعتنقه
فإذا هو رأى الأليق بما أومأت إليه أقواله وأفعاله ، حركاته وسكناته ، دائماً
دائماً قبل التحكيم ، من بعيد ومن قريب ، وإن استقبله بالعجب فريق ، وبالأسف
فريق ، وبالإسكار فريق ، وانطمست بين تباین هذه العواطف ملامح المثير
الأصيل للرأى المنكود ثم ظلت إلى اليوم مطموسة عن عين كل ناقد لموقف
الشيخ ، متناول محنة التحكيم بالاستقراء ، مقابل ظروفها وصروفها بالتحليل
أو بالتعليل . .

كالأعشاب التى تمخدع الوحش عن الحفرة ظل باعث أبى موسى ، الذى أفهمه
حكمه ، خافياً على الناس ، آناً وراء غفلة الأشعري ، ودائماً وراء خدعة ابن
العاص . ومع ذلك فكلتا الملتين مغلولتا ، وكلا الرجلين مظلوم . وإذا لم يكن
بد من تقويم سلوك الأشعري فلا ضير عليه فى حساب رأى لا فى حساب الأمانة .
فالأمانة هاهنا تضعه بمنزلة خائن ، أما رأى فيوثقه مكانة شهيد . . .

أبو موسى كان مؤمناً أشد الإيمان بمجدوى العزة ، راغباً كل الرغبة عن
ممالأة أى طرف فى الخلاف ، عاملاً غاية قصاره ، لجل الناس على رأيه ، اليوم كأمس ،
وحين قدرته كمين عجزه وتقطع الوسائل به دون بلوغ مأربه المنشود . . ولقد
ظل أبداً ثابتاً عند رأيه لا يحيد وإن تنقلت نظرات معاصريه إلى موقفه فى مراتب
المخالفة والزراية من هبوط إلى علو ومن علو إلى هبوط ، ونبذت آراؤهم فيه
بمدارج النعوت من الضعف ، إلى الغفلة ، إلى الخيانة . . ظل هكذا وليس من
معاصريه ، ولا تابعيهم ، ولا لاحقين بأولئك وهؤلاء انحدارا مع الزمن إلى
هذا الجيل من رد حكم الشيخ إلى منبعه الأول : الإيمان . .
وأى إيمان . . .

إيمان الذى يرنو بعينه فى خمة الليل على خفقة فتيلة ذابلة ثم يحسب أنه وحده
يبصر ما لا تدرك النواظر السابحة إلى مراسيها على أقباض النور . . إيمان النعامة
الحقء بأن لا خطر هنا ولا خطر هناك لأنها لوت رقبته عن مواطن الخطر

ومواقعه ، ودفنت رأسها الفارغ في ثنايا الرمال ... إيمان جاهل ، ضيق الأفق ،
قريب القاع كإيمان فئة القراء ومعتزلة حروراء سواء بسواء . . .
قشرة إيمان . . .

ليوشك المرء أن يتهم الأشعري في هذا اللقاهم أي اتهام إلا أن يلصق به أنه
اغتر بأخاديع عمرو ، إذ أنه صدر في حكمه الجائر العائر عن عدوى من الرأي
أعداه بها سواء وليس عن اقتناع ذاتي وإيمان — أي إيمان .. ولئن كانت صحائف
التاريخ تكاد تمتلئ بغير هذا فالتاريخ هاهنا مطفف ، كالابن العاص فطفف له
الكيل ، ووزن أبا موسى فأخسر الميزان ؟ . . . وبحسبنا أن نمة سطورا وكلمات
يستطيع من شاء أن يلتقطها فإذا هي معول يسعه أن يهدم به ، في غير عناء ، تلك
الخرافة الثنائية التي اقترنت فيها غفلة الأشعري بذكر عمرو وظن أنها مفتاح
نتيجة التحكيم . . .

عن اقتناع ذاتي ، بلا ريب ، وإيمان كتب أبو موسى إلى ابن عمر — إذ
لامه على ترشيحه إياه للخلافة — يقول :
« . . . وإني والله ما أردت بتوايقي إليك ربيعتي لك ، القرية إليك .
ما أردت بذلك إلا الله . . . »

وعن اقتناع ذاتي ، بلا ريب ، وإيمان كان أيضا جوابه إلى ابن أبي سفيان
بعد التحكيم ، حين حسب عاهل الشام أنه يستطيع استمالة الشيخ إلى جانيه ،
واستقامته إلى ظله ، فبعث إليه يدعوه أن يقيم لديه ، ويقول في الكتاب :
« . . . أما بعد ، فأكره من أهل العراق ما كرهوا منك ، وأقبل إلى الشام
فإني خير لك من علي . . . »
عندئذ أجاب :

« . . . إنه لم يكن مني في علي إلا ما كان من عمرو فيك ، غير أنني أردت
بما صنعت وجه الله ، وأراد عمرو بما صنع ما عندك . . . »

عن اقتناع ذاتي بجدوى سلوكه ، وصحة فعله ، كان تصرف أبي موسى ثم كان
حكمه الذي أدلى به على ملأ الناس بعد اجتماعات التحكيم . . . اقتناع بفكرة قوت
في نفسه كالعقيدة ، ورسخت رسوخ الإيمان . . . وهل كانت موافق القراء
ومعتزلة حروراء التي أصابت الأمة الإسلامية بأقسي الانكسار إلا صادرة عن
نوع كهذا من أنواع الإيمان ؟

٤

جرت قصة التحكيم ، فيها أرى ، على سنن واضح مرسوم لكلا الحكيمين دون محاولة من الأشعرى لإقناع عمرو ، ولا مكيدة من عمرو لطى الأشعرى .. والمحاولات الكثيرة التى توالى طوال المناقشة لم تقرب بأى الرجلين من الغرض الذى عرف الناس أنهما نداعيا إليه وجاء فيه حسبا نصت وثيقة التحكيم .

كلا الرجلين لم يدانيا لب القضية التى أقبلا للحكم فيها وهى : قضية الخلاف بين معاوية وعلى ، أو قضية تنكر عامل من عمال الدولة لواجب الولاء لهذه الدولة بتمرده على ولى الأمر الشرعى . كلاهما أغفلا ماندبأله ، وراحا يحومان حول جزئيات لا سبيل معها إلى بلوغ الغاية من التحكيم بل — فى نظر الحق — هى السبيل إلى البعد عن هذه الغاية المرتجاة والإمعان بهما ، وبالأمة وراءهما ، فى تيه من خلاف جديد .

ومع ذلك فقد مضيا على سنن مرسوم . عمرو بن العاص يداور ويطاول ، ويعطى فى مدة النقاش إساسا للوقت أمام صاحبه معاوية حتى يلحق جراحه النازفة فى صفين ، ثم يعيد تنظيم جيشه ، ويكتب كتابته ، ويعد نفسه — هذه المرة — إعدادا أمثل يكون به فى غد أقدر منه بالأس على لقاء غريعه العنيد ... وأبو موسى الأشعرى يتأنى ويتمهل ، ويصبر الحديث الجارى حتى تحين له ثغرة فيه ينفذ منها إلى تحقيق رأيه ، الذى ملا ضميره ، وملاك عليه تفكيره وتديره ، وإنه — فى حسبانته — للرأى الذى لا رأى بعده لحل هذه الأزمة الطاحنة من أهون سبيل . وهل شئ أهون عليه وأدنى إليه من كلمة يلفظها تجرد ابن أبى طالب من سلطانه فتوصد أبواب الحرب والعداء وتفتح أبواب السلام والصفاء ؟ . .

لقد شاء ابن العاص — مكررا وخديعة — أن يختار لنفسه أسلوب حديث يجتذب به ثقة الأشعرى ، ليستلب إرادته ، ويجعل منه أداة طيعة فى يديه ، فعمد إلى الشاء ، واللفظ الناعم ، وحركات الانحناء . . كان يقدم الشيخ . إعطاء صدر المجلس ، وإمامة الصلاة ، وبدء الكلام والطعام . وكان يدعو بأحسن النعوت ، ويخاطبه بأجمل الأسماء . . لكهما كلها وسائل جرت إلى غير طائل ، لأنها لم تأت

بجديد غير ما أضمر أبو موسى وطوى عليه دخيلته وعقد عزمه قبل أول اجتماع . .
على هذا النهج سار الحسبان . .
بيدا عمرو فيقول :

« يا أبا موسى ، إنك صحبت رسول الله قبلى ، وأنت أكبر منى منا ، فتكلم
أنت ثم أتكلم أنا » .
ويبدأ أبو موسى فيقول :

« يا عمرو ، هل لك فى أمر هو للأمة صلاح ، واصلحاء الناس رضا ؟ . . »
« نعم ، يا صاحب رسول الله » .
« نولى هذا الأمر عبد الله بن عمر بن الخطاب الذى لم يدخل فى شيء من
هذه الفتنة ، ولا فى هذه الفرقة » .
ويقول عمرو :

« فأين أنت عن معاوية ؟ . . »

فيرمقه الأشعري بنظره إباء ، ويلوى عنه : كره وعينيه . .

ويضى الحديث سجالا بين الرجلين . هينا حيناً . فانرا أحيانا عديدة أحدهما
يحاور ويداور وهو لا يكف أبداً عن إبداء ارقه مقرونة بالتوقير فى اللفظ
والإشارة . والثانى يصارح ويكشف وهو لا يدع كلمة تند عن شفثيه إلا تحمل
رأيه ، واضعاً بلا غموض ، عارياً بلا غطاء من شعار أو دثار . . . ولقد حرص
عمرو ، دائماً ، على أن يوغى بنقاشه نأياً عن موضوع الخلاف الذى جاء ليقضيا
فيه . ولكن نظيره — وإن مضى معه شوطاً فى الحديث — كان لا يلبث أن
يرتد إلى نقطة البدء من جديد . . . ولقد حرص أبو موسى ، دائماً ، على أن يثبت
على رأيه ، ويشد نظيره معه إلى هذا الرأى ما وسعته إلى ذلك عبارة . ومن هنا
كانت المفاوضة بينهما كلاماً مرسلًا واستطراداً لا يحددها إطار . فلم تكن من
معاودة وتكرار إن لم تكن كلها تكراراً وإعادة لبضع جمل تتغير فيها الألفاظ
ولا يتغير المفهوم . . . كانت كأنها قطعة مطاط ، تدور بين الأشداق ، يعضغانها
ولكن لا يلعانها لأنها عصية على الابتلاع . . .

ويدهن عمرو فيقول :

« يا أبا موسى ، إنه ليس أهل العراق بأوثق بك من أهل الشام ، انضبك لعثمان ، وبغضك للفرقة » .

ثم لعله يتعمل هنية يرقب في أثناءها أثر كلامك على وجه صاحبه ، حتى إذا اطمان أو استشعر ظل طمأنينة أكمل يقول :

« . . . وقد عرفت حال معاوية في قريش ، وشرفه في عبد مناف ، فما ترى ؟ . . . »

فيواقفه الشيخ :

« أرى خيرا . . . »

ثم لعله يتعمل هو الآخر هنية يستجمع فيها شوارد منطقة يستأنف بعدها الحديث :

« . . . أما ثقة أهل الشام بي فكيف يكون ذلك وقد سرت إليهم مع علي ؟ . . . وأما غضبي لعثمان فلو شهدته لنصرته . . . وأما بغضي للفتن تقبح الله الفتن . . . وأما معاوية فليس بأشرف من علي . . . »
فينقطع الحوار ! . . .

وكرة أخرى يردد الرجلان إلى البداية . إلى قطعة المطاط التي تمضغ ولا تبلع ، يلوكانها بين أشداقهما من جديد .

.. ويدور ابن العاص في مرة بالحديث دورة ذات التواء وانثناء ، حتى إذا رأى أنه قد بلغ من أحداث الماضي نقطة تصاح الانطلاق الظافر أسرع يواجه الأشعري بسؤال :

« أأست تعلم أن عثمان قتل مظلوما ؟ . . . »

فيجيب الشيخ :

« بلى » .

فيستضيء للجواب وجه عمرو ؟ وهل نصر عنده أعظم قوة من هذا الاعتراف ؟ . . .

ويتلفت يشهد من حوله :

« اشهدوا ! » .

غير أن ابتهاجه لا يكاد يحرك شيئا في نفس أبي موسى ، لا من قلق ولا من حيرة . . فلقد قتل ثالث الخلفاء — فيما آمن الأشعري — وايد غضبة جمهور ثائر ، نطقه عذف ، وعقله سيف ، وحكمه حيف ! . .

ويعضى عمرو يكمل نسج ما كان فيه :

« . . فما ينعك من معاوية وهو ولي عثمان وقد قال الله تعالى : ومن قتل

مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ؟ . »

عندئذ يباغته الشيخ :

« اتق الله يا ابن العاص ! . . فإني لم أكن أوليه لنسبه من عثمان وادع

المهاجرين الأولين . »

فيرد عمرو ، مثابرا على إصراره :

« . . إن بيت معاوية من قریش ما قد علمت . »

« هذا الأمر ليس علي الشرف يولاه أهله ، إنما هو لأهل الدين والفضل . . »

وطويلا طويلا تجادلا على هذا النحو . . يتبدى عمرو كمن يتصيد الكلمات

لينفذ منها إلى غرضه ، فيتصدى له أبو موسى يعارضه ، كلما حرك رأيا جمده ، أو فتح

بابا أو صده . . طويلا طويلا سارا أشواطا من النقاش ، منذ ضمتهما اجتماعات

ودية عقيب وقف القتال في صفين إلى ذلك اليوم من رمضان الذي ختم مهزلة

التحكيم . . لكنها أشواط ، وإن امتدت ، لم تبعد بهما — كما أسلفنا — خطوة

واحدة عن بداية الحديث ، ولا هي أيضا انتهت آخر الأمر إلى لقاء كحقيقة

ما يكون اللقاء . لا إلى اتفاق ووافق ، ولا إلى خلاف وفراق كان مؤدى نقاش

الرجلين ، وإنما ظللا يسيران ويسيران كأنما على محيط دائرة ، في نفس الاتجاه ،

وحلى بمد بينهما ثابت ، لا ينقص منه ولا يزيد فيه طول الدوران ! . .

فإن نعجب فلقضية تميش في تصور قاضيا بغير جسم ولا رسم ، ولحاجة يطرد

الحجاج فيها بغير حجة ولا برهان ، ولحكّمين يجتمعان وينقضان لوجه ثرثرة

جوفاء — ومن أجل سباق إلى غير هدف — بعبارات بتراء تضطرب وتتدافع

كالأفراس العمياء ! . . أم لا ، فأين دليل في حديثهما ، فرد ، يظهر لنا عدوان

الظالم ، أو يؤكد براءة المظلوم ؟ . . وكيف تفسر تناولهما البت في الاستخلاف

قبل بحث الخلاف ؟ . . وبأى مبدأ ، وبأى معيار ، عايرا الاختيار والمختار ؟ . .

على خلاف اتفاقا ، من قبل ومن بعد — إن كان نعمة مع تنافر لقاء — كما يلتقي ومض النار ووبل الماء في العاصفة الهوجاء ! . . .
فاعتزال ما نشب من خلاف ، وكره الدماء ، والجحود حيال القرينين المتناجرين دون إنكار لباطل أوائك أو تأييد لحق هؤلاء كانت وحدها جواز المرور إلى نفس الأشمري ، والمزية التي ليس قبلها ولا بعدها مزية ترفع صاحبها في عيديه وتضعه على رقاب الناس .

وقصة المصراع ، وولاية الدم ، والثأر الذي انقلب من قصاص إلى إمرة كانت محجة عمرو التي لا محجة له غيرها إلى مطمع ، ولا لمعاوية بن أبي سفيان إلى سلطان .

من ثمن الجحود إلى ثمن الدم تذبذب نقاش الحكمين إلى هنا مرة ، وإلى هناك مرة ، بغير محاولة منهما لتدبير القضية الأصلية ، ولا لذكرها — مجرد ذكر — بعبارة أو إشارة . فلقد شاء أحدهما لحيالاته وأوهامه ، وشاء الآخر لأبطاعه وأحلامه أن تكون — دون وقائع الحال — سبيل الوصول الجدلي إلى أمير المؤمنين الوعود . فرتب كل منهما الخاتمة قبل المقدمة ، واختار سلفا اسم الخليفة المنتظر ثم أخضع منطق الحوار للاختيار . . .

ومع ذلك فلا غرابة ، في مقام كهذا لا إطار فيه الموضوع ولا اصطلاح على منهج الاجتماع — أو بلغة اليوم : جدول الأعمال — أن تؤخذ النتائج غصبا ، وتعاسف الخواتيم اعتسافا على نحو ما سمينا من حكم الشام وحكم العراق . . . لا غرابة أن تسبك الأسباب المأفوكة ، وتصاغ العلل الزائفة لتطفف الكيل أو لتخسر الميزان . فأحاديث دومة ، التي شاركت في ابتداءها خيالات واهم وأطباع نهاز ، لم زد على تراشق لفظي هازل ، وسباق كلامي عابث بين نظرة شخصية ومأرب ذاتي ، ولم تكن قط صراعا جادا بين مبدئين تتأخر فيه الرغبات الخاصة وتتقدم نظرة الحق جنبا لجنب إلى جوار مصلحة المجموع .

كل هذا وغيره من مناقص التحكيم وسقطاته ليس بغريب ما دما نقف حيث وقف الحكماء على حافة الحق لا يقدمان ، وتنتظر مثلهما إلى الأمور نظرة مفرض

أو موتور يركب إلى أوطاره كل محذور . . لكن الغريب العجيب حقاً هو أن
يُتدَّ عمر التعلات الموهومة فلا تذوب في الأحداث التالية عبر الزمن ولو على مدى
السنين والقرون ، بل تظل عالقة أبداً بنفوس من اصطنعوها لا تفلتونها
وإن طال بها العهد ، واستنفدوا جدواها ، ولم يعودوا بحاجة بعد إلى التعلل
بعلة أو التوسل بوسيلة . .

فما بالهم ؟ . .

أقد أوهموا فمن فرط ما أوهموا وهموا ، وتخيّلوا فمن طول ما تخيّلوا خالوا ؟ ..
إنهم كذلك . .

أبو موسى — مثلاً — لم يقلع عن وهمه وإن غلبته صروف الوقائع عليه
ولم تدع له سوى القدرة على اجتراره . . فر يأتعه ، مهزوماً مذموماً ، إلى مكة ،
بعد وقوع الواقعة وفساد الأمر — بما كان من قضائه المشثوم في التحكيم — على
الإمام وأصحابه ، فإذا على بيعث إليه يذكره جرمه لعله ينتفع بالاذكار ، ويرشد
للتوبة ، ولكنه لا يرعوى ولا يركن إلى الصواب . .

كان فيما كتب على إليه في هذا المجال :

« . . أضلك الهوى ، واستدرجك الغرور . . فاستقل الله يقلك عثرتك ،
فإنه من استقال الله أقاله . . »

فأى تصرف عندئذ كان مسلكه حيال هذه الدعوة الكريهة ؟ .

ما كان منه إلا أن اشتد ، وصلب ، ونأى بجانبه عن الرشاد كأنما وهمه القديم
قد تجسد في ضميره حقيقة لا معدى معها عن إيمانه بأنه وحده على الصراط . . .
رد يقول :

« .. لولا أنى خشيت أن يؤول منع الجواب إلى أعظم مما في نفسك لم أجبك ،
لأنه ليس عذر يتفمى عندك ، ولا عذر يعنى منك . . وإنى أصبت أقواماً صغروا
من ذنبى ما عظمتم ، وعظموا من حقى ما صغرتهم فأقمت بين أظهرهم . . »

بل قد جاوز الرجل بعد حين حد التوهم والادعاء إلى علياء الاعتزاز
والكبرياء كأنما أوتى الحكمة وحده ، يضعها حيث شاء ، وينزعها ممن شاء . . .

سمع أن الإمام ناظم عليه ، لاعتن له ما سلف من قضائه الجائر ، فأرسل كتابا إليه كان فيه :

« . . فإني قد بلغتني أنك تلعبني في الصلاة ، ويؤمن خلفك الجاهلون . وإني أقول كما قال موسى : رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين . . . »
وعمره — مثلا . .

إلى نهاية حياته كان ابن النابغة يدعى الحق لتعلاته . . . يدعيه وهو يعلم أنه يكذب على نفسه ليغرر بمن عسى اشتبهت عليهم الأمور فوقفوا في الصراع بين معاوية وعلى بمكان ريبة ، يتذبذبون ، تارة إلى يسار ، وتارة إلى يمين . . . فلقد كان لا ريب أعرف امرئ بخراقة الطلب بدم عثمان ، التي ادعاها ، ولقنها صاحبه ، وألصقها وإياه بالإمام تجنيا بالاتهام ومغالاة في اللدد والخصام . . . كان أعرف الناس بها حين ابتكرها ، وحين أشاعها ، وحين جاءت من بعد بملك النيل ومطت لأمره وسيدته ملك الشام حتى احتوى في ديباجته ملك الإسلام . . . ولقد ظل عارفا بها عرفانه — طوال السنوات القلائل التي تبقّت له ، غب النصر ، من عمره المديد الطويل — كمر فان الجاني جنايته لا يفتأ ، وإن تناسى ، يجترها في خياله في لحظة ندم أو لحظة مبهاة . . . وقليل أقل القليل كان الندم ، وكثيرا كثيرا كان الحقد هو الذي يحرك شهيته للاجترار . . .

وكم اجتر حتى أتختم . . .

قال يوما لعائشة ، والدنيا يمزها في يديه ، والدولة لسيده ، وعلى حينذاك ذكرى ذاكر وأحدوثة خاطر :

« لوددت أنك قتلت يوم الجمل . . . »

فهتفت به كالمدعورة :

« ولم ، لا أبالك ! . . . »

قال :

« كنت تموتين بأجلك ، وتدخلين الجنة ، ونجملك أكبر التشيع على علي

ابن أبي طالب . . . »

لكن حقه كان يتوارى أحيانا ليفسح الطريق لكامة حق تند من بين

شفتيه كبدا معاوية ، وزروعا عن ملاحقته بالرياء المداجي إلى مجابهته بالصراحة الصارمة ، كلما رأى منه تغافلا عن مطلب ، أو خشي جورا على ما في يديه . . . دخل مرة عليه يسأله حاجة ، فكره معاوية قضاءها وتشاغل عنه . فما كان من عمرو إلا أن نزع عن وجهه نقاب الرياء ، وأطلق لسانا كالحية يقول : « يا معاوية ! . . إن السخاء فطنة ، واللاؤم تغافل ، والجفاء ليس من أخلاق المؤمنين . . »

فلم يباليه العاهل ، وإعنا زاد جفاء ، وجهه بعير اكتراث : « وبماذا تستحق منا يا عمرو قضاء الحاجات ؟ . . » عندئذ أفصح ابن العاص السبيل لكامة حق حبيسة وراء جدران أحقادهم لتتسلل إلى حيث وجب أن تكون من بضع سنين . . . رد في صلف وخيلاء :

« بأعظم حق وأوجب ! كنت في بحر عجاج فلولا عمروو لفرقت في أقل مائه وأرقه . . لكنني دفعتك فيه دفعة نصرت في وسطه . ثم دفعتك فيه أخرى نصرت في أعلى المواضع منه . فمضى حكمك ، ونفذ أمرك ، وانطلق لسانك بعد تلجلجه ، وأضاء وجهك بعد ظلمته . طمست لك الشمس بالدمع المنفوش ، وأظلمت لك القمر بالليله المدهمة ! . . »

فهل عقب معاوية ؟ . . وما غناؤه من تعقيب قد يثير وخزا آخر ، أعنى وأشد ، من لسان رفيق جمعته وإياه المنفعة الضالة ولم تجمعهما القيم السماء ؟ حسبه في هذا المقام أن يتناوم ويطبق جفنيه مليا مطأطأ رأسه للعاصفة . حتى إذا رحل ابن العاص من لدنه ، اعتدل يزفر ، ويقول لجلسائه وهو مغيط :

« أرايتم ما خرج من فم الرجل ؟ . . ما عليه لو عرض وفي التمريض ما يكفي ؟ لكنه جبهني بكلامه ، ورماني بسموم سهامه . . »

ولقد كان كثيراً ما يجلس إلى معاوية مجلس الصفي من صفيه فإذا هما ، بعد لحظات ، يجلس غريم وغريمه لا يكاد الحديث يسير بهما حتي يحلو لأحدهما أن يكاد صاحبه ثم لا تخلو المسكيدة ، آخر الأمر ، من لحة جد تضمهما كليهما حيث يكرهان وإن لم تذكره شواهد الواقع ولا حقائق الحال . . . انبرى معاوية له ،

في جلسة من تلك الجلسات ، التي تراشقا فيها بالحوار ، يسأله في تخايب :
« . . فما أعجب الأشياء ؟ . . »

فكان الجواب الهادي* ، الذي لفظته — ربما — نزعة لاشعورية ، وأبطن
من سموم التعريض ما يشد الأعصاب :

« أعجب الأشياء غلبة المبطل ذا الحق على حقه . . »

فلم يتركها له ابن أبي سفيان ، وإنما ردها عليه صاعا بصاع :

« بل أعجب من هذا أن تعطى من لاحق له ما ليس له بحق ، من غير

غلبة ! . . »

ومعاوية — مثلاً . . .

هو أيضا كان يستطيب التوهم ! . . لم يغن عنه سلطانه . العرش الذي
اقتعده لم ينسه إغنه فجهد — عمره كله — ليتلقف الراحة النفسية من خلال
تبرير عدوانه على حق الإمام ، والإلحاح بهذا التبرير على الأسماع ، أينما وجد سامعا
بين الخصوم والأعداء ، أو بين الرفاق والأتباع . . بل قد كان أقدر من صاحبه
على افتعال هذا التبرير ، فذهب أبعد الذاهب في اصطناع الزمر التي تؤيده فيه وفي
خلق المشاهد التي تجسمه أمام حواسه ، وتجعل من أوهامه الذاتية شخوصاً تتحرك
قبالته كما تتحرك على المسارح شخوص التمثيل ! . .

ومع ذلك فكيف فشل ! . . كم طالما انقلبت عليه مهازله فأخذت منه ولم

تأخذ له ! . .

جمع مرة زمرة ، فيها عمرو ، وفيها مروان ، وفيها المغيرة ثم أطلقهم على ابن
عباس — وهو عندئذ ضيف مجلسه — يهرون حوله ، وينبجونه أخبث نباح . .
فإذا أصاب إذ ذاك ، وأصاب له كلابه وإنه ليمتد شيطان غالب خيال حق
مغلوب ؟ . .

قال أحدهم يتوعد :

« لولا حلم أمير المؤمنين عنكم ، يا ابن عباس ، لتناولكم بأقصر أنامله
فأوردكم منها بعيداً صدره . . »

وقال ثان يزيد من لهب النار :

« أروع — يا أمير المؤمنين — بالتنكيل به غيره ، وشرد به من خلفه .. »
وقال ثاث . وقال رابع وهم ماضون في تعاور الضيف بأنياب ناهشة
شرهة والضيف يترفق صابراً في الجواب ، ويحاول وسعه اتقاء هجماتهم الباغية
عليه بالهوادة ، كما يفعل الفارس المتمرس حين يتقى بدرعه ضربات خصم منهار ،
متعففاً أن يصرعه ، متفضلاً عليه — دون الإرداء — بالازدراء . . .

ثم قال آخر من بين الزمرة الضارية ، وهو يتلمظ تلذذاً بمصرع الإمام :
« لله در ابن ملجم ! . . فقد بلغ الأمل ، وأمن الوجل ، وأحد الشفرة . .
وأدرك الثار ، ونفى العار . . »

هنا هزت هذه الشماعة العاجرة ما كان خامداً من غضب ابن عباس . فلم يملك
حلمه ، وإعنا صاح بالشامت ، وبسيده ، وبالجمع الباغي ، يلهيهم بسياط لسانه
اللاذع الإزعيل :

« ويحك ! . . لقد كرع ابن ملجم كأس حنقه بيده ، وعجل الله إلى النار
بروحه . أما والله لو كان أبدى لأمر المؤمنين صفحته ، لألقه صاباً ، وسقاه سماً ،
وألقه بالوليد وعتبة وحنظلة ! . كلهم كان أشد شكيمة ، وأمضى عزية . ففرى
بالسيف هامهم ، مسبلهم بدمائهم ، وقرى الذئب أشلاءهم ، وفرق بينهم وبين
أحبائهم . أوائك حصب جهنم هم لها واردون ! . . »

ثم تخلى الضيف عن بقية التفضل والهوادة ، وجاهرهم بالصراخ الصارمة
التي تهتك النقب ، ونزى الأصباغ عن شخوص التمثيل ، عندما سمع المغيرة بن
شمبة يقول في خيلاء :

« أما والله لقد أشرت على بالنصيحة ، فبآثر رأيه ، ومضى على غلوائه ،
فكانت العاقبة عليه لاله . »

النصيحة ؟ . .

وفيم إذن كانت ثورة الثوار بمصر ، والكوفة ، والبصرة ، والمدينة نفسها
لو أبقى الإمام معاوية على عمله ، وابن أبي سرح على عمله ، وابن عامر على عمله ،
وغيرهم من عمال انعزل بهم طاغوت الحكم عن مشاعر شعوبهم ومصالحها حق
كرههم الناس وأشعلوا في عروشهم النار ؟ . .

وأجاب ابن عباس بفصل الخطاب :

« . . كان — والله — أمير المؤمنين أعلم بوجوه الرأي ، ومعاقد الحزم ،
وتصريف الأمور من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه ! . . قال سبحانه :
لا تجد قوما يؤمنون بالله ، واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا
آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم »
وتعهد قلبلا ليكمل :

« . . ولقد وقفك على ذكر مبين ، وآية متلوة قوله تعالى : وما كنت متخذ
المضلين عضدا . . »

ثم مال ببصره إلى معاوية ، وقال وصوته يقطر سخرية :
« . . وهل كان يسوغ له أن يحكم في دماء المسلمين وفيء المؤمنين من ليس
بأموون عنده ، ولا بعوثوق به في نفسه ؟ . . هيهات هيهات . . هو أعلم بفرض
الله ، وسنة نبيه أن يبطن غير ما يظهر . »

وكما انقلبت عليه مهزلة هذه ، انقلبت عليه ، بمن قبلها ومن بعد ، أخرى
وأخريات . . ولعله في مرة منها جميعاً لم ينكس الرأس خزيًا كتنكيسها ذلك
اليوم أمام فرد من رعيته أعزل إلا من سلاح الإيمان . .

تلك المرة دخل عليه أبو الطفيل الكنانى ، وقد غاب ابن أبى طالب عن
دنيا الناس ، وخلف بعده دموعاً تجهد لتتوارى وراء الجفون نجاة بأصحابها من
بطش السلطان المتجبر . . ولم يكن نعمة ما يحمل معاوية — إلا صلفه — على إهاجة
شجن زائر المحزون غير رغبة — فيما يلوح — توافقة إلى التلذذ برؤية الألم على
محيا الزائر تلذذ الوحش بفزعة فريسته حين يدغدغها بالظفر والمخلب قبل أن يجهز
أو يضرب . . فباللفظ الناعم ، واللهجة الرائية ، قال ابن أبى سفيان :

« يا أبا الطفيل . . كيف وجدك على خليلك أبى الحسن ؟ . . »

« كوجد أم موسى على موسى وأشكو إلى الله التقصير . »

فتخايل معاوية :

« أ كنت فيمن حضر قتل عثمان ؟ . . »

« لا . . واسكنى كنت فيمن حضره فلم ينصره . »

عندئذ أثاره هدوء الرجل ، فصاح مغضبا .
« فما منك من ذلك وقد كانت نصرته عليك واجبة ؟ .. »
فإذا الجواب الحاسم ينطق كالقذيفة :
« منعني مامعك إذ تتربص به ريب المنون وأنت بالشام ! .. »
هنا استخزي الطاغية ، ونكس رأسه ، ولم يجد كلمة يسوقها لعلها تخفي إغته
غير أن قال :
« أو ما ترى طلبي بدمه نصرة له ؟ .. »
لكن الرجل الحزين العنيد لم يتزعزع شعرة ، وإنما مرة أخرى عاجل
الماهل المكابر :
« بلى : ولكنك وإياه كما قال الجعدي :
لا ألهينك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادا .. »

٦

ثم فضجت النمرة ! ..
على غير ما حسب كثيرون ، آثر ابن العاص العدول عن قيادة الحديث ، وعمد
إلى وضع الأعتة كلها في يد زميله . وما يضيره ؟ . لقد وضع له من نية الأشعري
أنه مؤمن أوثق إيمان بألا مناص من استخلاف « معتزل » لم يقارف الخلاف ،
ولم يشارك في الفتنة بين قطبي الصراع . وإنما لنية — فيما خبر — لا تكف عن
الغوران في ضمير الشيخ ، والاضطرام في خلدته ثم لا تنتظر لتسفر عن وجهها
أمام الملاء غير لحظة يتاح فيها للأشعري أن يفتح شفثيه ! ..
واجتمع الناس . وبدأ الحديث هينا خفيفا ولكنه أشبه بالنسائم الرخية الق
تسبق هبوب الزواجر وتورة العواصف الهوج . وأحس ابن عباس الخطر المتخلق
على طرف الأفق فانحدر في المجلس ، إلى جوار أبي موسى ، ينشر أذنيه حتى ليكاد
يبصر بهما حميس الشاعر ، ويفتح عينيه حتى ليوشك أن يسمع بهما اختلاج
الأسكار . . ولم تكن حاله خافية على عمرو ، ففيها تربص وتحفز إن خلى بينهما
وبين الطريق فلربما ملأه عليه بالعرافيل ، وأفسدا كل ما رسم وأعد للحظة
الفصل الدانية . . وعندئذ مال ابن الدابة إلى من حوله من أحلاف وخلان ،

وفيهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وعتبة بن أبي سفيان ، وبضعة من قادة الشام ، ثم همس بصوت كأنه الحسيس :

« أما ترى ابن عباس ؟ . . »

فخالست الأعين النظر صوب ابن عم الرسول ، ونفت عتبة من بين أسنانه :

« ما به ؟ . . »

« قد فتح عيذه ، ونشر أذنيه ، ولو قدر أن يتكلم بهما فعل . . . وإن غفلة أصحابه لمجورة بفطنته ، وهى ساعتنا الطولى ، فاكفينه . . »

قال عتبة :

« بجهدى . . »

ثم قام ، وقام معه ابن خالد ، إلى حيث جلس ابن عباس فزاحماه مجلسه ، وأقبل أحدهما عليه يحاول أن يلوى التفاته بقول عث من فارغ الحديث وسقط الكلام . .

وبرم ابن عباس بوسوسة جليسه ، ففرع له يده ، يستفيئه إلى السكوت :

« ليست ماعة حديث . »

وانتقلت المحاولة من عتبة إلى عبد الرحمن ، يجهد جهده كصاحبه أو أشد ، ليشد انتباه ابن عباس بعيدا عن مجال الحكيم في نطاق من التيه . . كلمة كلمة استطعمه جوابها فلم يجب ، وكلمة وكلمة فإذا هو يشيح . وكلمة كلمة فلا تنفتح شفتاه ، وإن عبست عيناه ، إلا عن سكوت .

وتكررت المحاولة . مرة من هنا ومرة من هناك ، وابن عباس يصابرهما ما وسعته مصابرة وانفسحت أناته . أحيانا باللفظة الزاهدة في الحوار ، وأحيانا أخرى بالإيماءة الخرساء . حتى إذا برم بهما ، اندفع بلهجة الزاجر يكف محدثه الملحف عن الإلحاح :

« إني لفي شغل عن حديثك الآن . . »

وكانت هذه لحظة الفصل ، فاصطاع الغريم المدبر غضبة تلون لها وجهه ، وصاح بانفعال :

« يابى هاشم ، لا تتركون بأوكم وكبركم أبدا . . »

وأردف رفيقه :

« أما والله لولا مكان النبوة منكم لكان لى ولك شأن . . . »
وكانما أعدت ابن عباس الغضبة فتلهب غيظه لهذا العدوان الذى يستبطن
الامتهان ، فرأى ألا سبيل إلى ردعهما عما أسرفا فيه إلا أن يكيل لهما الصاع
بالصاع .

عندئذ احتدم الجدل بينهم مسعرا ، هو يرد ، وهما يتصيدان من ألفاظه
ما ينزلقان به فى حوار به إلى مزيد من ثورته عليهما ، وعلى عيشهما المقصود .
وانبرى عتبة يتحداه :

« حسبك يا ابن عباس . . . إن ثقتك بأحلامنا أسرعت بك إلى أعراضنا .
وقد والله تقدم منا من قبل العذر ، وكثر الصبر . . . »
ثم أقذعاه . . .

وحمى هو وجاش مرجه ، فأسمعهما من الكلام ما يسوء . . . واضطرب
فكره . واشتغل باله بما غدا فيه . فلما صخب المكان بهم ، جاء قوم فحاجزوا
بينهم ، ينحونه عنهما ، وينحونهما عنه وإنه عندئذ لمسحور بغيظه ، ذاهل عما يدور
بين أبي موسى وابن العاص من نقاش التحكيم . . . وإن ابن العاص لراض الرضا
كله عن مؤامراته ، يرمى مؤخر عيني صاحبيه ، كأما يسأل كليهما : « ما صنعت ؟ »
حتى يجيئه الجواب ، هاما ساكف فحيح الأفعى ، من لدن عبد الرحمن :

« قد كفيتك التقوالة . . . فأحكم أنت أمرك . . . »
وأحكم أمره .

قال بهدوء الواثق ، العارف بمواقع خطاه ، وهو يضع أعنة الحديث وفصل
خطابه فى بد الأشمري :

« خبرنى ما رأيك ؟ . . . »

فتمهل الشيخ كأنما يستلهم حكمة الأيام رأى الراجح السليم :

« رأى أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين ، فيختار
المسلمون لأنفسهم من أحبوا . . . »
شورى ؟ . . .

يا بشرى إذن لصاحب الشام . . . فبحسبه أن ييتمد على الطريق ، وأما
البقية فعلى الأيام . . .

وسارع عمرو يؤمن على قول زميله :

« الرأى والله ما رأيت » .

كانت هذه لحظة الفصل التى حلم عمرو ، ومن حضره ، ومن تخلف ذلك
اليوم عن مجلسه من أحلافه ، بأنها آتية بخير ما يشتهون : بمزل على بلسان وكيله
فى التحكيم . . . كانت لحظة الدهرة الفاجعة على من شهدوها ، ومن غاب عنها ،
ومن جرت فى أخلادهم قبل من شاهد وغائب من أشباع على وأتباعه الذين
كافحوا طويلا فإذا هم الآن أمام عبارة كأنها سيف القدر ، تجهز على حقهم ،
وتسلم أمتهم كلها جارية مسترفة إلى يد الحيف والباطل والبهتان . . .

بهذه العبارة القصيرة اختتم عهد وبدأ عهد . ولا عبرة قط بما جرى بعدها
من صراع أريد به استخلاص الأرض المسلوقة . . . فلقد غدا على ومعاوية على
سواء فى كفة الميزان . . . وأصبح صاحب الحق الشرعى فى الإمرة كالتمرد عليه
وعلى سلطان الإسلام . وانتقلت القضية كلها فى أعين الناس ، وفى عين التاريخ ،
إلى نزاع على السلطة ، وليس نزاعا على توطيد القيم أو تحقيق المثل التى يجب
أن تسود .

وأقبل الحكمان على الناس ، وهم مجتمعون . فدفع عمرو بصاحبه أبى موسى
إلى مكان الصدارة ، ليعلن القرار :

« يا أبا موسى ، أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق . . . »

فاستجاب الشيخ :

« إن رأى ورأى عمرو بن العاص قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله عز

وجل به أمر هذه الأمة . . . »

فأيده عمرو :

« صدق وبر . . . تقدم وتكلم . . . »

وكأنما أفاق ابن عباس إذ ذاك من غشيته ، فاندفع إلى الشيخ يحاول أن
يبصره بما فوته عليه عتبة وعبد الرحمن ، وأن يجمد فى حلقه حديث كارثة
وشبكة الوقوع :

« ويحك . . . والله إني لأظنه قد خدعك . إن كنتما قد اتفقتما على أمر ،
فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك ثم تسكمن أنت بعده ، فإن عمرا رجلا غادر ،
ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه فإذا قت في الناس خالفك . . »

لكن الشيخ نقض النصح والتحذير ، وزجره في ملالة :

« إياها عنك . . . إنا قد اتفقنا . »

ثم تقدم يواجه الجمهور :

« أيها الناس . . إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم رشينا هو أصلح لأمرها ،
والم لشعنها من ألا تتباين أمورها . وقد أجمع رأي ورأي عمرو على أن نخلع
عليا ومعاوية ، وأن نستقبل هذا الأمر فيكون شوري بين المسلمين ، فيولون
أمرهم من أحبوا . . . »
وأتبع بلهجة تأكيد :

« . . وإني قد خلعت عليا ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وولوا عليكم من
رأيتموه بهذا الأمر أهلا . »

وتنحى عن مقامه ، فقام عمرو مكانه ، يعلن بصوت جهير :

« إن هذا قد قل ما سمعتم ، وخلع صاحبه . وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ،
وأثبت صاحبي معاوية ، لأنه ولي عثمان ، والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه . »
فبهت الناس :

لبرهة ساد بينهم صمت أو شك أن تدوى خلاله خفقات القلوب الواجفة
في الفضاء كأنها ضربات عصي على أديم مشدود . . لبرهة دارت عيونهم جيري
في محاجرها ، وبين صحائف الوجوه ، في وجوم وذهول . . لبرهة التصقت
الأسنة بالأنفواء المنفورة . وخرست الأنفاس . لكن مرارة الهزيمة التي ولدتها
الحيانة ، وحلاوة النصر الذي أنجبه الغدر ، ما لبثا أن اختلطتا واضطربا معا في صياح
عارم كأنه الهزيم . . .

وماجت الجموع . .

وانبث أبو موسى ، وهو مقهور ، يعف قرين التحكيم الغادر ، ويهتف به

في إنكار :

« مالك ، لا وقعت الله ، غدرت وفجرت ؟ . . . إنما مثلك (كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث) . . . »
 فاحترق لون ابن العاص . . . يا ويل الشيخ . . . أويرميه — تعريضا —
 لأنه قهره ، بالكفر والمروق ، كنص الآية التي اجتزأ منها بهذه العبارة :
 « وادل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، واسكنه أخلد إلى الأرض ، واتبع هواه ، فمثل كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا ، وأنفسهم كانوا يظلمون . »

وردها على الأشعري كيلا وافيا :

« وإنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا . . . »

ثم تركه يستعيد نص الآية ليستشعر مثله مرارة التعريض .
 « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بثس
 مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين » .
 وكذلك تراشقا بالقرآن على ملا ، والناس بينهما في ذهول . وإذا كانت
 فكرة تسربت عندئذ لبال منتبه — قد تاب لوعى — من خلال ضباب
 المفاجأة . فإنها الفكرة التي تستيقن مروق الرجلين جريما وانحرافهما عن صراط
 التنزيل . فلقد جاء ليقتضيا بالقرآن ، ويحكمها في نبراسه ، لحاد بهما الهوى
 — كليهما — عن محكم آياته ، وغلب عليهما الغرض الشخصي ، أو الرأي
 الذاتي ، إن لم نقل آثرا الانواء و « السياسة » على استقامة الإيعان . . .

V

لا هو خب ، ولا هو ختل ، ولا هو خداع ذلك الذي تفتقت عنه نفس
 ابن العاص في قضية التعكيم ، بل القدر والتعجر والكفر كان . . . ولمن شاء أن
 يسند فعلته إلى « مناورات » السياسة ، وما يستباح في شرعتها من ركوب الخصم
 بالحيلة — دحراله وتفوقا عليه — أن يعلم ، أولا ، أن السياسة ، في معناها
 المستقيم ، مصالوة بالذكاء والخبرة واقتناص السوانح ، وليست تحيفا على مثل

الأخلاق أو هدماً للشرائع والقوانين . . وأن يعلم ، ثانياً ، أن ركيزة المساجلة بين الحكمين كانت حكم الله لا اجتهد الناس وتفرقهم مع الآراء الشخصية والأهواء الذاتية أيما افتراق . . وأن يعلم ثالثاً أن الطريق فيها إلى الحكم المتوقع السليم قد خطه نص قرآني ما ينبغي أن يحيد عنه أحد الطريق إلا أن يشاء مناقضة حكم التنزيل واقتحام محرم من المحارم يفضي به إلى الضلال . . .

في صلب الصحيفة ، بيانا لمبادئ التحكيم في علم جمهور المتقاتلين الذين فاءوا إلى هذه المبادئ خلاصاً من محنة الحرب والخلاف :

« رضينا أن نزل عند حكم القرآن فيما حكم ، وأن نقف عند أمره فيما أمر . . وأنا جعلنا كتاب الله فيما بيننا حكماً فيما اختلفنا فيه ، من فاتحته إلى خاتمته . . . » وفيها كذلك ، بيانا لما أزم الناس به الحكمين المتفاوضين من عهد ، وربطوهما به من ميثاق :

« . . أخذوا عليهما عهد الله وميثاقه ، وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه ، ليتخذان الكتاب إماماً فيما يعشاله لا يعدوانه إلى غيره في الحكم بما وجداه فيه مسطوراً . ومالم يجداه مسمى في الكتاب رداً إلى سنة رسول الله الجامعة ، لا يتعمدان لها خلافاً ، ولا يتبعان في ذلك لهما هوى ، ولا يدخلان في شبهة . . » فالقضية إذن واضحة ، هي : الخلاف الناشب بين طائفة من الناس شقت — عامدة أو مخدوعة — وحدة الأمة الإسلامية ، وبين بقية ناضلت لدفع غائلة الانقسام . أو هي ، في واقعها ، بين متمرد على سلطان الدولة وبين القائم الشرعي على حماية هذا السلطان . . والوسيلة إلى الحكم في النزاع واضحة ، هي : كتاب الله وسنة الرسول بلا ترخص فيهما ، ولا عدول عنهما إلى مساوئهما من الوسائل والأسباب . .

ومع ذلك فقد انحرف الحكماء . أطفأ النبراس . قضيا بغير القانون . فإذا كان انحرافهما هذا ، عن محكم الكتاب ، ليس كفرآ وغدرآ فأى شيء إذن يكون ؟ . .

أهو رأي ارتأياه ؟ . . لا حاجة بنا إلى دحض ما قد يقال في هذا إن أعذر عنهما معتذر بأنهما اجتهدا الرأي للقضاء — بخلع على — على ما شجر في الأمة من تنازع بحكمهما الاجتهادي المردود . . فما حسم به النزاع ، ولا هداً ثأثرته

ولا ردا على البلاد وحدثها ، وإنما زادنا من حدة الانقسام ، وتماونا معا على النفخ في النار . .

أجل ، صبا الزيت على النار . . ودفعنا ألسنتها مشبوبة الأوار لتحرق كل بواذر السلام . . . وإنيهما ، من اللحظة الأولى ، ليريان ثمار غرسهما الخبيث ، تفرع وتطول ، ولما يغيبا بعد عن مسرح التحكيم . .

من اللحظة الأولى حتى الصراع بين طائفتي المحتكمين . أولئك الذين سخطوا الحكم جأروا بسخطهم حتى تسرب إلى أسنة أسياف تسكاد تتبرقش بالدم ثأرا من الذين أبرموه . وأولئك الذين فرحوا به اضطربت منهم الأنفس جزعا فتقبضت فكفهم على السلاح . الساخطون من الفريقين كالخذر . جميعاً أمتلأوا بخشية المغبة المرتقبة . ما من امرئ منهم شام فيه الخلاص ، ولا السلم الموقوتة ، ولا الطمأنينة . وإنما ، وهم لا يزالون في ميدان الخدعة ، تصايحوا ، وتشادوا ، وتنابدوا بالألقاب حتى لم يعد في مجال الصراع النفسى فسحة لغير فتنة جديدة . وإذا كان ثمة شيء قد ردهم عن مهاوى القتال وأقدامهم إذ ذاك تستبق الانزلاق فإنه لا ريب ذهول البغلة الذى صدمهم به الحكم الناجم على حين غرة كأنه حمة بركان دأبه الخود . ومع هذا كله فقد كان حريا أن يستقبل أبو موسى مصرعه فى تلك الآونة لولا أن فر بعمره ، على ظهر دابة عجول ، عبر الصحراء ، نحو مكة ، بدار أمان . وأوشك عمرو أن ينال الجزاء المعجل لفجوره على ظبة سيف كان أولى بأن تسك يد شريح . اسكن شريحاً — وقد أعجلته المفاجأة — ركبته بما هو أدنى إلى عينه : بسوط ممة ، قعنه به ، وفاته — لذهوله — أن يتحدث بمقال الحسام وإنه ، عندئذ ، لأبلغ مقال فى أنسب مقام . .

حتى الذين لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء ، فى حيدة عن النزاع ، أثارهم غدر ابن العاص ، وأهاج فيهم الشاعر كما أخرج الضمائر . ولم يكن ابن عمر إلا مثالا لمن لم تطاوعهم نفوسهم على شهود مأساة الحكم دون أن يدلى بما يعبر عن استنكاره ، فعمل — وهو المحايد الهادئ المستكين — على عمرو يسم أن ينال منه . .

وإذن فقد ماج الناس . واختلطوا اختلاطا شديداً يتناجزون بالقول والإشارة فى أحش هيثية ، وبأفدع عبارة . . وغدا الزمن ، عندئذ ومن بعد ، مسرحاً

تصضرع عليه العواطف التي كانت حبيسة إلى حين . . .
الطائفتان تتجادلان وتتنابدان . ولكم حملت إلينا الأخبار في هذه الحقة ،
من شأنهم أكثر الكثير . . . فهذا امرؤ — مثلاً — من أنصار معاوية ، يتغنى
بأميره ، والنصر ، فيقول في اعتزاز :

« »
سمي بابن عفان ليدرك ثأره
وقد غشيتنا في الزبير غضاضة
فرد ابن هند ملكه في نصابه
وما لابن هند في لؤي بن غالب
فهذا ملك الشام واف منامه
وهذا آخر من رجال الإمام
« غدرتم وكان الغدر منكم سجية
وسميتم شمر البرية مؤمنا
نعت بابن هند في قريش مضاربه
وأولى عباد الله بالثأر طالبه
وطلحة إذ قامت عليه نواديه
ومن غالب الأقدار فالله غالبه
نظير وإن جاشت عليه أقاربه
وهذا ملك القوم قد جب غاربه ! »
ينسبى للرد عليه :
فما ضرنا غدر اللثيم وصاحبه
كذبتهم فشر الناس للناس كاذبه »

وعدة ثالث ورابع وخامس ، ومثون عديدة من أوائلك وهؤلاء جروا في
هذه الأنحاء . . حتى الراسي ، عبدالله بن وهب ، ذلك الخارجي صاحب حروراء ،
لم يخل حلقه من غصة ، ولا قلبه من ندم ، حين تبين الحكم فوجده ثمة من ثمار
مشاقته ورجال فرقته أمير المؤمنين وخلافهم عليه . أفما أكرهوه ذيل صفيين
على التحكيم والنصر آنشد تكاد تخفق أعلامه وتلتطمع نجومه في حلبة القتال ؟ . .
أما لووا رغبتة عنوة ، تهديداً بالسيف ، ليرتضى لطائفته أبا موسى حكماً وقد كان
قليل الثقة فيه ، عارفاً بضعفه عن الصمود لابن العاص ، وبافتقاره للقدرة على
الطفو إلى مستوى الحدث الكبير حدث التحكيم ؟ . . لقد عانى الراسي جريرة
رأيه ، وطعم منها حسرة دفعته — في لحظة من لحظات استفاقة الضمير — إلى
الجهر بذنبه وذنب أصحابه ، فقال :

« ندمنا على ما كان منا ومن يرد
خرجنا على أمر فلم يك بيننا
غناء على بالي ليس بعدها
رمانا يمر الحق إذ قال جثتم
سوى الحق لا يدرك هواه ويندم
وبين على غير غاب مقوم
مقال لدى حلم ولا متحلم
إلى بشيخ للأشاعر قشعتم

فقلنا رضينا ببن قيس وما انا رضا غير شيخ ناصح الجيب مسلم
وقال : ابن عباس يكون مكانه فقالوا له : لا لا ألا بالتهجم
فما ذنبه فيه ، وأنتم دعوتهم إليه عليا بالهوى والتعحم ؟
وأيا عبارة من أمثال هذه العبارات ، وكيفما انتقلت بها إلينا الأخبار عبر
العصور ، فقد ثبت أن ميدان الوقعة اضطرب بالملاحاة أشد اضطراب وأعنفه .
بل قد ربا هذا الاضطراب إلى ذروة الغليان حتى أوشك أن ينقلب إلى انفجار
تتلون بالدماء أطرافه وحواشيه . فابن عباس يهدد ويشور ثم ينقض ، في غضبته
الغامرة ، على أبي موسى يسبه ويلعنه حتى لا يبدو كأنه يهم أن يبطش به . والشيخ ،
في لحظة خزيه ، يهتز ويتلعثم ، ولا يجد لنفسه عذرا إلا أن يهمهم بذلة المفهور :
« غرر بي . . إنما كان عدرا من عمرو . . »

وشرح بن هاني ، الذي دافع بدء التحكيم عن الأشعري ، تلك الحسرة
على خيبة ظنه في صاحبه ، فتمتلىء نفسه — مع الخيبة — بشورة عارمة يحرقه
تيارها إلى موضع الحكيم اللذين خانا الأمانة وخذلا الله . لكنه — فيما بدا —
يلقي ابن العاص منفوخ الصدر مصعر الحدين من خيلاء ، فلا يعمله أن يستمتع
بخيلائه ويقنعه بسوط في عينه إذ هو أعتى الخائنين وأحقهما بالحساب العسير . .
ويلجح ابن عمرو هذه النزوة فيخف إلى نجدة أبيه ، ثم توشك حلقة الشجار أن
تتسع لولا أن يكفها بعض الناس . .

فإذا سكنت الحدة هونا ، انكفأ سعيد بن قيس الحمداني ، إلى الحكيم
يجههما برأيه فيما أتيا به — بعد تلك الليالي الطويلة من المفاوضة والحوار —
وإنه للرأى الذي يكنه آنذاك الجمهور الصاحب ، المنسكر لما نضحت عنه مهزلة
التحكيم . . يقول الرجل لهما في طمأنينة راسخة مبطنة بالازدراء :

« والله لو اجتمعنا على الهدى ما زدنا على ما نحن عليه . وما ضللكما
بلازمنا . وما رجعتما إلا بما بدأتما . وإنا اليوم لعلى ما كنا عليه أمس » .

وأنصف فيما قال . فالحكم الذي قضياه لم يأت بجديد . إنما قد جهد الزمن ثم
لوى عنقه كما تلوى عنق الناقة لتحملها على العودة إلى الوراء ، كرة ثانية ، إلى
أول الطريق . . . إنهما ارتدا القهقري . رجعا بالفتنة إلى حيث كانت قبل
التحكيم . .

وتشانم عمرو وأبو موسى . . .

وصاح كردوس بن هانيء مغضبا هادر البرة والأحاسيس :

« ألا ليت من يرضى من الناس كلهم وعمرو وعبد الله في لجة البحر !
رضينا بحكم الله لا حكم غيره وبالله ربا والنبي وبالذكر
وبالأصلح الهادي على إمامنا رضينا بذلك الشيخ في العسر واليسر
رضينا به حيا وميتا وإنه إمام هدى في الحكم والنهي والأمر
فمن قال : لا ، قلنا : بلى إن أمره لأفضل ما نمطاه في ليلة القدر
وما لابن هند بيعة في رقابنا وما بيننا غير المثقفة السمر . »

وكذلك انطلق الأمر ، ومضى الوقت ثقيلًا بطيئًا ، والجو آنذاك ملئ
بصراع جدلي ، مشحون بشرارات الالتحام ، فالفريقان يتناولان الحكم من
حيث يحب كل منهما أن يراه . بالحجة الساندة المؤيدة ، أو بالحجة القاصمة
الهادمة . والنقاش بينهما يمتد حتى لينذر بقتال ... وعندئذ يقف يزيد بن أسد
القسري ، القائد الأموي ، وقد خشي المغبة ، يخاطب مناوئي فريقه ، بلفظ رطيب ،
كأما ليستفيئهم إلى الرضا بما كان :

« يا أهل العراق ، اتقوا الله ، فإن أهون ما تردنا وإياكم إليه الحرب ما كنا
عليه بالأمس وهو الفناء . وقد شخّصت الأبصار إلى الصلح ، وأشرفت الأنفس
على الفناء ، وأصبح كل امرئ يبكي على قتيل . ما لكم رضيتم بأول أمر صاحبكم
وكرهتم آخره ؟ . . إنه ليس لكم وحدكم الرضا . . »

وصدق الرجل إذا قيس كلامه بمنطق الأحداث وإن لم يصدق بتقياس شريعة
الحق والضمير . . فالعراق ارتضى التحكيم ، وارتضى مبعوثه إليه . لكن الحكم
قد جاء على خلاف الصحيفة فأهدر المبدأ المرتضى الذي لا سبيل إلى إهداره
أو تنقح صحة الحكم ولا تصبح له ولاية على الناس . .

وكذلك انتفض القوم وفي القلوب سخط أو حذر ، وأمام البصائر والأبصار
سحائب خطر تنذر بانبعاث الفتنة كرة أخرى كالألغام عند وقف القتال . ومع
ذلك فلم يسكن اللفظ ، ولم تقر الألسنة خلف الشفاه . إنما استعرت حرب لفظية ،
هنا وهناك بين الفريقين لم يغب عن الانخراط فيها امرؤ له لسان ورأى من هذا

الصف أو من ذاك . . . واحد فقط بين الجمعين بلغ لسانه وزم فيه خشية أن تشي
به ألفاظه وتفصح عما يخفيه . ذلك هو الأشعث بن قيس الذي أرادها منذ البدء
سلما مخزية وإن اشتراها بالقيم القويعة ، وبإمامه وبنخوة الرجال ! . . .
وانطلق أصحاب علي ، من ميدان الخدعة ، صوب الكوفة ، في ركب الخيبة ،
وإنهم ليجترون الندم والملاوعة ، وعلى رأسهم شريح بن هانئ يكاد يشرق بحسرتة
وهو يشد يمينه على سيفه ويقول :
« ما ندمت على شيء ندامق على ضرب عمرو بالسوط . ألا أكون ضربه
بالسيف ، آتيا به الدهر ما آتى ! . . . »

في رحاب الكوفة استشعر أصحاب على الراحة . .

كانت راحة على تفاوت ، تصنف بمستوياتها أولئك الرجال ، وتفرقهم فرقا لا يكادون يلتفون إلا في الصحبة ، ثم إذا هم جميعا أمامها طوائف شتى يفترون في طوابع النفس ومثيراتها كما يفترون من بعد في الاتجاه والسلوك . .

فالأولى خلصوا له — لوجه ربهم — وجردوا نفوسهم من هواها دخلوا البلدة خفاف المؤونة ، قد ازاح عن قلوبهم ثقل العهد الذي التزموه — حتف أنوفهم — عندما فرض عليهم التحكيم . فعلى كره كانوا قد ارتضوه . وعلى مضض صبروا الليالي الطويلة ينتظرون عقاب . وعلى أسف وموجدة سمعوا الحكم . ولكنهم الآن وقد جبهتهم المكيدة ارتدوا مرة أخرى أشد ما يكونون تعلقا بإمامهم ، وثقة فيه ، وإيماننا بالنظرة الصائبة التي رمى بها عبر المستقبل إلى هذا الكيد الذي حذرهم إياه يوم استجاب كثرة أنصاره إلى خدعة المصاحف وحملته على قبول دعوة الأمويين .

والأولى لم تخل قلوبهم من دخن ، فصاحبوه على حرف ، وأحيوا بسيرتهم حياه — في سرهم أو علنهم — سنة النفاق كعهد طغمة مثلهم في فترة الرسالة الإلهية وحياة الرسول ، امتشروا الراحة في تحقق رغبتهم ، وانتهاء التحكيم بما أكنت ضمائرهم الفاشة ، وما اشتهت نفوسهم الموروبة . فما كانت ميولهم وصبواتهم — التي كتعتها الشغاف دائما ووشت بها الألسن أحيانا على حين غرة منهم — إلا سلما ترد عنهم نهكة الحرب وغوائلها ، وترد عليهم الأمن ، وإن كانت سلما مخزية ، وأمنا في حساب الأجسام السماء والضائر المسترخية لا في حساب شرعة المروءة الأبية والأفهام المستضيئة الواعية . .

والجهرة ، بعد أولئك وهؤلاء ، من الناس ، طعموا أيضا الراحة . ولكنهم طعموها كما يلع المرء — وهو غافل — قطعة حنظل خالطت طعامه ، فلا يفيد أنه يلفظ بقايا مالاك وقد تسرب المر إلى جوفه ، وبطن بمذاقه الكريه فمه ولسانه إلى البلعوم وما وراء البلعوم . . إنها إذن راحة اليأس والاستسلام .

ولم تخل النفوس ، مع هذا ، من ألم ، ولا الوجوه من وجوم إذا ما تصفحت الصفوف العديدة التي تجمعت هنا وهناك من ميدان الحكم ، ومن أرجاء البلدة ومشارفها ، وراحت تحت المطى والأقدام إلى مستقر الإمام كلهم واجم وكلهم حزين . حتى أولئك المدخلون من زمرة الفاق ، طلوا وجوههم بالأسى ، ولونوا شفاهم بالاكتئاب رياء الناس .

على الوجوم عاشت الكوفة ، وعلى البشر — فيما تراءى لأهلها — كانت دمشق ، ومالاذ بها من مدائن ، ذلك اليوم العصيب المشهور ، حرية بأن تعيش . . . فلقد ترامت الأخبار حينذاك في جنبات القصبة العراقية ، على ألسن العائدين ، بما انطلقت به الرسل من أهazيج النصر المشبوه إلى صاحب الشام . . . كثيرون من أنصار معاوية تنقوا الخدعة المضالة — وما كان الحكم إلا ضلالة — بالهتاف والتهليل . . . وكثيرون أفصحوا عن خلجاتهم بالنشير والنظيم . . . وكثيرون خفوا إلى مطاياهم يرمون بها قبلة أغراضهم ومنتجع مطاعمهم حيث يقبع معاوية ، يرومون عنده دنياهم . . . حتى ابن العاص لم يصبر نفسه إلى حين اللقاء المنتظر وتعجل الزمن في كتاب مع رسول طوى الصحراء فور الخدعة ، ليذف بشراه إلى مولاه . . .

قل إنه كتب إليه :

« أتتلك الخلافة مزفوفة هنيئاً مربثاً تقر الميونا
تذف إليك زفاف العروس بأهون من طمنك الدارعينا
نخذها ابن هند على بعدها فقد دافع الله ما تحذرونا
وقد صرف الله عن شامكم عدوا مبينا وحربا زبونا »

واقعد اقترى عمرو — لا شك — على منطق الحقيقة في كتابه وحمل خدعته مالا تطيق . فما أبرمت لصاحبه بحكمه بيعة ، ولا دانت له خلافة إلا أن يقال إن ابن العاص قد ارتضاه المسلمون عامة ، في كل جوانب الدولة ، ليقضى لهم برغبتهم ، فملك عنهم حق تقرير المصير .

ومع ذلك فلا ينكرن أحد أن معاوية بعد الحكم لم يظل في نظر كثيرين نفس معاوية قبله: مجرد عامل متمرد على السلطان الشرعى قد اجتمعت قوى الدولة — خارج إمارته — لرده إلى سواء السبيل . كلا . بل تغيرت الحال واختلفت

الظروف . وفي حساب الأرباح والخسائر نستطيع أن نضعه في الجانب الأول ثم نضع السلطة الشرعية في الجانب الثاني ونحن بهذا لا نجانب الصواب . . . لا شك ولا مرأ . فالرجل بالحكم المأفوك — ومنذ خدعة المصاحف كذلك — قد سمن واستنطار . . . كفته النكسة ، التي أصابت جيش على عندئذ بوقف القتال ، شرهزة كان يمكن أن تحيق به وبفلول أجناده المنسحقين بين رحي القوات العلوية في صفين ساعة الهجوم الأخير . . . وكفته مرارة الامتسلام وذل التسليم . . . وكفته عاقبة الخارجين المتمردين . ثم هي قد ردت إلى شامه موفور السلامة ، يسعه بمنجاة عن الصراع أن يلحق جراحه ويستعيد طمأنينة عارضه يستروح منها شيئا من ثقة بنفسه ، وبرجاله ، وبأمله الطويل المريض الذي أوشك أن ينسكب جميعا في حلبة القتال .

فإذا نحن رقبنا وضعه بالنظرة الشعبية العامة ، التي لا تستبطن الأمور ، ولا تغوص منها إلى الأغوار ، فهو حيالها وعلى بمنزلة سواء ، كفئن في كفتي ميزان . . . كلاهما خصيم وخصيم . وكلاهما يلوذ بالتحكيم . وفي ظل هذا الاستواء خلق بالإدراك السطحي الذي يفرزه جمهور الناس أن يفسى البون الشاسع بين وضعه ووضع الإمام في القضية ، وما وراء هذا وذاك من اختلاف الأهداف ، وتفاوت الأقدار ، وتباين الآراء . . .

وإذن فقد كان حربا أن تهتز — قليلا أو كثيرا — « معنويات » أهل العراق لتهاusk — بنفس المقدار — « معنويات » أهل الشام . وأن تصبح الشحنة النفسية التي تظاهر هدف معاوية أنشط وأقوى من غريبتها التي تظاهر هدف الإمام . وأن يخذو العزم ، في الأرض الأموية ، أقوى وأصلب منه قبل التحكيم ، بينا مثيله ، فيما عداها — من أرض الدولة — قد تراخى وأخذ في الانهيار . . . « الروح المعنوية » إذن في صفوف أهل الشام راحت ترتفع وتهتز ، والروح المعنوية في صفوف أهل العراق راحت تخبو وتهبط . ولقد رأى بعض الناس — ويحق دأوا — في الحكم خيانة لأمانة العهد ونقضا سافرا لليثاق ، ولكنك مع هذا ما كنت قادرا على أن تمنع أنهم كثيرين — من معتزلة النزاع ، ومن الذين تناءت بهم الأبعاد ، ومن ذوى الإدراك السطحي في الجبهة العراقية أيضا — من

الوقوع فريسة اضطراب فكري يوشك أن ينحاز بهم عن قضية الإمام . وما كانوا يعلمين إذ وقعوا وهذا مبعوث على نفسه ، الذي عاهده على الانتصاف ، يقرر خلع سبيل لا معدى عنه إلى لم تمت الأمة وقضاء على عوامل الخلاف . .

إلى هذا كله نستطيع أن نقول إن إطار الصورة الماثلة كان يضم — في الجانب الأسمى من اللوحة — خطوطاً من أضواء عدة أضفت على وضع معاوية كثيراً من البريق . فالعاهل الشامي قد أملى له زمنه في فسحة من الوقت ، منذ وقف القتال إلى ساعة الحكم ، استطاع فيها إعادة تنظيم جيشه ، وتكثيف كتائبه وألويته ، والاستزادة من الأنصار . ولم يكن عسيراً عليه عندئذ أن يجتذب المخدوعين أو يشتري بدياه كل طامع إلى منصب ، راغب في جاه ، متطلع إلى ثراء . . فإذا نقلنا النظرة إلى الجانب العلوي بداخل الإطار ، طالعنا أطراف ظلال قد أخذت تكثف وتتراكم لتطمس بعض ملامح هذا الجزء وتنتشر فوقه سواد الضياع . فالخلاف قد نشب في صفوفه ثم حمى وشاع . والناس غدوا في جدل « سفسطائي » عابث — لنصرة هذا الرأي أو نصرة ذاك — نسوا معه جوهر القضية ، وهدفها ، وتشيعوا شيعاً مع القروع . . فرفع المصاحف حيلة غادرة أو احتكام مشروع . والتحكيم خطأ أو صواب . والحكم نفسه باطل مردود لذاته أو مرفوض لأنه استند إلى غير أساس شرعته الصحيفة طريقاً إلى القضاء السليم . والقتال بعده مفروض لازم أو هو مشروط برجوع من ارتضوا التحكيم عن نظرهم الأولى إليه وإقرارهم على أنفسهم — وفيهم على — بالكفر إذ قبلوه ، ثم نزوعهم إلى التوبة لتحقق لهم استجابة الأمة لمعاودة الحرب المقدسة وهم أطهار خلصاء أو يفرض قتالهم — إن لم ينزعوا — على كل مؤمن لأنهم مارقون كفار .

عديد من هذه المناقشات ملأ الأفهام والأفواه . وعديد وراءه من شراذم الأنصار أنبته الجدل والحوار . ومع ما نشأ من اضطراب الأفكار ، وكثرة الشيع الفكرية المتناجزة من خطر يهدد القضية ، فإن الخطر الأكبر عليها — ثم على الأمة الإسلامية ووحدها إلى حقبة طويلة — كان يجثم في فرقة الخوارج التي نجم قرنهما ولما يبرح الجيشان ميدان صفيين . فإذا نحن مسحنا ، ولو بالنظرة الخاطفة ، مواقع أقدام رجال الإمام ، لوقعنا في كل ناحية منها ، على عراقيل وعقبات يوشك

معها أكثر القوم إشار استسلام يغلفونه بالسلام ! . . . ففي كل بيت دمعة على قتيل .
وفي أغلب الأنفس استطابة لمذاق الدعة بعد نهكة الحرب ومرارة القتال . وفي
الأكثر الأعم من الجهرة ، وبعض القادة ، ميل إلى الدنيا ، التي حبس عنهم على
زخارفها بقيمه الحقيقية ومثله الرفيعة ، وخلي معاوية عنها أنها مستباحا لمن اتبعوه
أو هادنوه . . .

ونشفق أن نسيح في تيه بلا انتهاء لو حرصنا على تقصى كل أوائك الذين
حباؤا إلى معاوية — في هذه الفترة وما تلاها — من رجال الإمام . فما كان
أكثر المرتدين أو الذين شغفهم إغراء عروض الحياة فتحنوا الفرصة للارتداد .
وما كان أفوى سلطان الدنيا وزخرفها على أولئك وهؤلاء . وإذا كان ثمة فريق
من همل الناس دبتهم الغفلة إلى الصبوء ، فليس يعتذر بالغفلة لمن انشقوا عليه
من خلصائه وأصحابه الأذنين وأساطين دولته الذين اجتباهم لمعاونته في سياسة
الحكم وضبط الأمور . إنا يفسر سلوكهم إذن بأهم مغامرون ، أو عبيد منفعة ،
يشمون الريح ثم يتجهون إلى حيث جيفة المتاع . . .

من أمثال أوائك الحائنين يزيد بن حجة التيمي : كان عاملا لعل على الري
ودسبتي ، وشهد معه الجمل وصفين والهروان . ولئن كان صبوؤه قد جاء بعد
فترة من الحكم ولم يحى نتيجة مباشرة له فيما يلوح ، فإنه مع ذلك مثل من الحفنة
الضالة التي كانت تراودها أطماع الذات عن ولائها ، وتتحين السوانح للخروج على
هذا الولاء . إنه أحد الذين شغفهم الإغراء . واحد من شرذمة تتعثر فيها أقدام
عابري التاريخ — طوال عهد الإمام من بدء سلطانه إلى ساعة أفول شمس هذا
السلطان — قد استبدت بأفرادها الأشقياء نزغات الأنفس المريضة ، الكفرة
في كل مكان وآن بقم الأخلاق ، المؤمنة دائما بالأثرة ، المنهومة أبدا إلى مزيد
وإن كان من حرام . . .

فكذلك كان يزيد لم يغن عنه جاهه ، ولم يغن عنه منصبه ، فامتدت يده
الجسعة إلى مال المسلمين في عمالته ، يقتنص منه ما شاء ، ثم ينطلق بالنعيمة إلى
رحاب معاوية لائذا لديه ، كأشباهه ، بلاذ يصممه من عاقبة شرهه ، ناعما عنده
بما ينعم به كل غر مفتون لا تسكفه النعمى سوى الغلو في مدح عاهل الشام

والإغراق في هجو الإمام . . . ولقد دفع الهارب الطريد الثمن ، فمدح وقبح ، ثم مدح وقبح ، ثم مدح وقبح ، فلما عاتبه ابن عم له بشعر كتبه إليه ، منكرًا فعله مقبحًا رده ، لم يجد لنفسه حجة تستطيع مواجهة إنكار صاحبه ، وآثر أن يسند صبره إلى الأحداث التي جرت في الجانب العراقي ، كأنما لم يشارك هو فيها ، ولا كان أحد صانعها بالقول والسلوك والسلاح . . .

قال مجيب :

« لو كنت أقول شعرا لأجبتك . ولكن قد كان منكم خلال ثلاث لا ترون مهن شيئا مما تحبون : أما الأولى فإنكم سرتهم إلى أهل الشام ، حتى إذا دخلتم بلادهم ، وطعنتموهم بالرمح . وأذقتموهم ألم الجراح ، رفعوا المصاحف فسخروا منكم ، وردوكم عنهم ، فوالله ووالله لا دخلتموها بعث تلك الشوك والشدّة أبدا . والثانية أن القوم بعثوا حكما ، وبعثتم حكما ، فأما حكمهم فأثبتهم ، وأما حكمهم فخلعهم ، ورجع صاحبهم يدعى أمير المؤمنين ، ورجعتم متضاغنين . . . والثالثة أن قراءكم وفقهاءكم وفرسانكم خالفوكم فعدوتم عليهم فقتلتموهم . . .

« أحببت أهل الشام من بين الملأ وبكيت من أسف على عثمان أرضا مقدسة وقوما منهم أهل اليقين وتابعو الفرقان »
فأين إذن كان أسفه ، من قبل ، إذ رفع سيفه ينصر عليا في المعارك الثلاث . . . وبأية حجة حارب بصفين أولئك الذين سماهم أهل اليقين والفرقان ؟ . . . وفيهم إزراؤه على الإمام وأصحابه « العدوان » على الخوارج وقد كان هو من رؤوس أولئك « العادين » في النهروان ؟ . . .

على أي حال يطول بنا المدى كل مطال لو أخذنا أنفسنا باستقصاء كل الظلال الداكنة في الجانب العلوي من الصورة . فالسواد لا ينحسر ، وبقعه لا تسكن ، بل تسرح فتسع كما تسرح قطرة الزيت في النسيج . وإذا كان ثمة جمال يغنى عن الإفاضة ، فإن صفوف الإمام بعد الحكم راحت تغورها عوامل للتفكك والانحلال يقر بها لسان الحال ولا ينكرها لسان المقال . فيها تفرق الرأي ، وفيها ثبوت الهمة ، وفيها تلويح الدنيا لأخذانها بسطوة الجاه وزبرج المال ، ثم فيها قبل هذا وبعده كله ميلاد قوة جديدة ، غالية في اللدد والخصام ، في نفس هذه الصفوف ، تترص بها الدوائر ، وتنتظر فرصة موالية لانتقاض على إخوة السلاح والكفاح . . .

٢

عقد على مؤتمرا ، من رجاله . .

كانت اللحظة حازبة . الحكم المفترى قد ملأ الأسماع . العجب في العيون .
السخط في الصدور . . . في شطحات الخيال الجامحة قصرت الأذهان قبل وروده
عن التدبؤ به ، وعجزت الأفهام — حيال مقدماته — عن توقعه — قليلون عند
اختيار الحكيم كانوا في شك من قدرة أبي موسى على مصاولة عمرو ، ولكنهم
كانوا في حمى من عجزه بما نصت عليه الصحيفة . أقصى ما بلغته خشيتهم إذ ذاك
أن ينضج الأشعرى بما فيه ، فيقبلهم بيعتهم ، ويردها شورى يختارون بها امراً
لم ينغمس في الخلاف . أى أن ينساق لعقلته ، ويصبح مطية ذلولا لخدعة ابن
العاص ، فهذا ما لم يحل لهم مطلقا في بال . .

وقفوا على ترقب . ماذا عسى أن يفعل الإمام ؟ . . ما رأيته في الخدعة ؟
ما موقف قادتهم ؟ . . ما هو المصير الذى يوشك أن يرسمه هذا الحدث الخطير
وإلى أى مدى يمكن أن تعاون على رسمه طوائف الأمة هنا ، وهناك ، في الكوفة
وفي غيرها من الأمصار ؟ .. أحرب مجلية ، أم سلم مخزية ، أم هدنة مسلحة تجمد
الوضع إلى حين بين الحرب والسلام ؟ . .

وتوقعوا أن يطلع عليهم على ببيان للناس ، يشخص الداء ، ويحدد العلاج .
ولكنه لم يفعل . لم يحب أن يصدر في فعله عن غير مشورة . فرأى الجماعة أولى
بأن يتبع . وألسنة الخلق أقلام الحق ، كما قال

وجمع رجاله يتناولون الأمر بالمناقشة وتبادل الآراء . .

وبدا عدى بن حاتم :

« أما والله ، يا أمير المؤمنين ، لقد قدمت القرآن ، وأخرت الرجال . . . »

وما أحسب الرجل حين نطق بقوله كان ينكر على على قبوله التحكيم . فما هو
من خالجتهم في حكمة الإمام ربية . ولا هو بمنهم عنده حين يحاسب امرؤ على
وفائه وولائه . ولو رجعنا القهقري قليلا لوجدناه من خير أصحاب الإمام غيرة على
قضيته ، وتحمسا لحقه ، وفي إبان محنة رفع المصاحف كان من القلة التى رأت إباء

الاحتكام إلا للحرب ويصلا يرد كيد الغاوين ... ولقد قال إذ ذاك لعلى يحضه رأيه
الخالص الصريح :

« يا أمير المؤمنين ، إن كان أهل الباطل لا يقومون بأهل الحق فإنه لم
يصب عصابة مما إلا وقد أصيب مثلها منهم ، وكل مقروح ، ولكننا أمثل بقية
منهم . وقد جزع القوم وليس بعد الجزع إلا ما تحب . فناجز القوم . . . »
ثم قد كان أيضا محبا لعلى ، غالبا في حبه وإن جاء هذا على حساب أهله
وولده ... مر أثناء الهدنة ومعه ابنه زيد ، فشهدا حابس بن سعد الطائى ، حامل
راية طىء بالجيش الأموى ، قتيلا على أرض الواقعة ، فهتف زيد من جزع :
« يا أبه . . هذا والله خالى . »

قال عدى وليس في قلبه على القتل ذرة من أسف :
« نعم . لعن الله خالك ، فبئس والله المصرع مصرعه . . »

لكن الولد لم يكن كأبيه إيمانا وثقة ، فأنحرفت به عاطفته — والحرب عندئذ
موضوعة — إلى قاتل حابس ، فصرعه على حين غرة منه ، ثارا لقرباه ظالمة ،
كثارات الجاهلية ، فيها خيانة للعهد ، ونقض لاتفاق وقف القتال . .
هنا هاج عدى ، وصاح بابنه :

« يا ابن المائقة ! . . لست على دين محمد إن لم أدفعك إليهم . . »
وحمل عليه .

لكن زيدا اتقى الحملة بفارس طارت به بعيدا عن غضبة أبيه إلى الشام ،
لاحقا بماوية يلقي لديه ما يلقاه أمثاله المارقون . .
وكم حزت جريرة الولد في الوالد ، وكبر عليه إفلاته من العقاب العادل ،
فكان يرفع يديه داعيا عليه :

« اللهم إن زيدا قد فارق المسلمين ، ولحق بالمحلين . اللهم فارمه بسهم من
سهامك لا يشوى ، فإن رميتك لا تمنى . . . »

والكم غدت فعلة زيد شيئا لعدى — في نظرة أناس مبينين — يزرون بها
عليه ، ويظعنون في أمره ، ويلحقون به إفكا هو منه براء ، فمضى الأب الأسيف
المظاوم إلى إمامه يبلغه ذوب قلبه ، وهو يشكو ويستنصف .

« يا أمير المؤمنين . . أما عصم الله رسوله من حديث النفس والوساوس وأمانى الشيطان بالوحى ، وليس هذا لأحد بعد رسول الله ؟ . . فقد أنزل فى عائشة وأهل الإفك ، والنبي خير منك ، وعائشة يومئذ خير منى . . وقد قربنى زيد للظن ، وعرضنى للتهمة غير أنى إذا ذكرت مكانك من الله ومكانى منك ذهب حنانى ، وطال نفسى . . والله أن لو وجدت زيدا لقتلته ، ولو هلك ما حزننت عليه . . »

كلا ، لم يكن عدى بمتهم فى ولائه ، ولا شاء أن يعتب بكلمة عن التحكيم شيئا على على ، أو يطعن فى رأيه عنه ، وإنما أراد أن يرسم بحديثه حقيقة ما وقع ، بيانا وتذكرا . .

ولم يلمه الإمام . إنما استقبل قوله بالجواب الذى يكمل حقيقة الحال ، ويتم جوانب الموقف فلا يدع ثغرة لتأول ولا ادعاء .
قال :

« إني قد أخبرتكم بالأمس أن هذا يكذب . رجعت أن تبعثوا غير أبى موسى فأبيت . . »
فعدت سقطة الأشعرى ، على الأثر ، محور النقاش . .

خاض المؤمنون فيها ، وكل يترجم عما أودعته فى نفسه من مرارة ، ويحاول أن يردّها إلى هذا السبب أو إلى ذاك . . . فالسقطة وليدة خدعة ماكرة عرفت كيف تأخذ طريقها إلى الحياة من خلال غفلة جبلت عليها طبيعة الشيخ المأفون . . أو هى نتيجة حتمية الحدوث لى قديم عن مؤازرته إمامه له علائمه وسماته منذ وقف بالبصرة يثبط الناس انتصارا للاعتزال . . أو هى خيانة مقصودة لحق موكله عليه ثم لأمانة القضاء . . أو هى قيل هذا كله كفر وضلال لأنها حادت على حساب إهدار حكم القرآن . . .
وأكثر ما شاء إكثار . .

فقال الحسن :

« . . قد أكثرتم فى أمر أبى موسى وعمرو ، وإنما بعثنا ليحكم بالقرآن دون الهوى ، فكما بالهوى دون القرآن . . . »

وعقب عبد الله بن جعفر يضيف بكلامه إلى الصورة المائلة بضع لمسات :

« . . هذا أمر كان النظر فيه لعلى والرضا فيه إلى غيره . . جئتم بأبي موسى فقلتم : قد رضينا هذا فارض به . . وأيم الله ما أصالحا بما فعلا الشام ولا أفسدا العراق ، ولا أماتا حق على ولا أحيا باطل مماوية . . ولا يذهب الحق قلة رأى . . »

عندئذ عاد الإمام بحمل قصة الماضي وإنه في إجماله ليضيف بسبب جوهرى من أسباب النكسة لم ير أحدا من أصحابه قد عرض له ، لا بإطباب ولا بإقصار . . قال والمرملء فيه :

« . . إني كنت تقدمت إليكم في هذه الحكومة فنهيتكم عنها ، فأبيتُم إلا عصياني ، فكيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم على ؟ . . »

فحملتهم كلماته فورا على أجنحتها عبر الماضي إلى صفين ، واشتداد الواقعة ، وليلة الطرير ، ثم إلى المصاحف التي رفعها أهل الشام ردءا لهم من هزيمة مؤكدة نكراء . . فلعلهم الآن — بعين التذكر — يرونه ، وقد حاول تجنبهم إغراء بالدعوة ، يصيح بهم محذرا :

« دعوة حق يراد بها باطل ! . . »

ولعلهم يسترجعون في بالهم قوله :

« . . والله ما رفعوها لأنهم يعرفونها ويعملون بها . . ولكنها الخديعة . . »

والعلم تتردد في آذانهم — اللحظة — كالهزيم ، صيحاته اليائسة ، يجهد بها أن يردهم عن تخاذلهم :

« . . أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة . . قد بلغ الحق مقطعه ،

ولم يبعد إلا أن يقطع دابر الدين ظلموا . . »

لكنهم — الآكثرين منهم — أبوها عليه ، وخالفوه . . عن غفلة خالفوه . عن جهل . عن إغراء غاوين . .

ومد بصره بين الجمع المؤتمر ، يتفحص الوجوه ، حتى إذا وقع بينها على الاشعث رماء من عينه بثل سهم مسمومة ، وهو يواصل الحديث :

« . . كيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم على ؟ . . والله إني لأعرف من حملكم

على خلافي ، والترك لأمرى ، ولو شئت أن آخذه لفعلت ، ولكن الله من ورائه . . . »

ونكس الأشعث رأسه ، وتداولته الميون المنكرة حيناً وهو — فيما حسبت — لا يجسر أن يتربها النظر . فها هو نتاج غرمه . ها هي الثمرة المشتهاة . ها هي السلم التي منى بها النفس ، ووضع جرثومتها — ليلة الحرير — في قلوب قومه كندة ، ثم راح يتعهد بها بتعريضه حتى أعدت بدائها كافة القلوب المهيضة والنفوس المريضة في بقية الصفوف . . .

ولم يكن الأشعث — بطبيعة الحال — الواحد الفرد الذي جرد النصر من ظفره ونابيه ، ثم رمى به لقي مضيقاً على ثرى صفين . ولكنه كان باعث فكرة الموادعة ، ورأس مسانديها ، وعلماء على كل من شارك في تخليقها — بالدعوة الهينة ، أو بالتهجم العنيف — ثم استقبال ولادتها من بعد بالترحيب . واقد كان حديثة ذاك لكندة — كما نعلم — بمثابة الشعاع الهادي الذي انبثق فجأة من جانب الغيب لأصحاب معاوية ، فرأوا تحت وهجه — بين محنتهم المدلم ، ثغرة إلى النجاة ، وأسعفتهم آنثذ قرائنهم بحيلة المصاحف مطية ذلولاً إلى هذه النجاة . . . وعاد الإمام ببصره كرة أخرى إلى الجمع ، وقد استرد هدوءه ، وعدل بقوله من موالاة التعريض بعرف النار ! . . . فلا سحق على الرجل الآن يعيد الزمن إلى الوراء . ولا جدوى على المسلمين من إثارة حفيظتهم على باعث النكسة ، هذه اللحظة التي دعاهم فيها لجمع الكلمة ولم الشتات . إنما الخير في أن يختم حوار المؤثرين بكلمة موجزة تهيب بهم أن يسلكوا الطريق الوحيدة إلى إصلاح الخطأ الذي جرمهم إليه تفرقهم عنه ، واختلافهم عليه . . .

ووقف يخطب القوم ، وإن أسى نفسه ليشعل نبراته وكلماته :
« الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح ، والحدث الجليل . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ليس معه إله غيره ، وأن محمداً عبده ورسوله . . .
أما بعد ، فإن معصية الناصح الشفيق العلم المجرب ، تورث الحسرة ، وتعقب الندامة . وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمرى ، ونخلت لكم مخزون رأيي لو كان يطاع لقصير أمر ! . . . »

فانتقل ، غب كلمته هذه ، إلى أذهان سامعيه مشهد من مشاهد التاريخ عفا
الزمن على سطورره ولم تبق منه إلا ذكرى . . . بدت لهم ، في تصورهم المسترجع ،
الزباء ملكة الجزيرة ، وهي تجرد حسناتها الخلاب لاستهواء جذية ، وتبعث
بدعوة لينة له ، ليلحق بها في قصرها ضيفا ، فرفيقا ، فزوجا يشاركها عرين
الحكم والحب والحياة . . . وبدا لهم قصير مولي جذية معترضا طريق سيده ،
قاطعا عليه رغبته في رحلة المتعة المرتبة والسلطان المهيأ الميسور . . . لكن
جذيمة المدل بقدره ، الواثق من موقع نفسه عند الزباء ، يسخر من رأى قصير ،
ولا ينتصح به . . . ثم غضى شوطه على الدعوة الملساء فإذا هو عندئذ بوكر حية ،
تنزو عليه ، وتستقبله أتعس لقاء ، بقبلة الغدر والموت ، لا بقبلة الوفاء والصفاء . . .
واستمر الإمام يواصل خطابه :

فأبيتم على إساءة المخالفين الجفافة ، والمنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ،
وضن ازبد بقدره ، وكنت وإياكم كما قال أخو هوازن :

أمرتكم أمرى بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصيح إلا ضحى الغد «
فكذلك كان حاله وحالهم وهو يأبى عليهم إجابة عدوه إلى دعوة التحكيم
وهم يلحفون عليه في القبول . أكثر في محاجتهم ، فأكثرُوا في الإلحاح عليه حتى
بدا — من كثرة اجتماعهم على خلافه — أنهم دونه على الصواب .. وهل نظرته إلى
الأمر ونظرتهم إليه إلا رأى ونظيره ، ما دام هذا يخطئ وإن ذلك يصيب ؟ . . .
لكأنه عندئذ ، بلسان حاله ، قد ود أن يستطرد من قول الشاعر إلى
حيث يقول :

« . . فلما عصوني كنت منهم ، وقد أرى غوايتهم ، أو أنى غير مهتد
وما أنا إلا من عزية ، إن غوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد »
ثم ختم كلامه بفصل الخطاب :
« . . . أيها الناس . . . »

إلا إن هذين الرجلين اللذين اخترعوهما حكيمين ، قد نبذا حكم القرآن وراء
ظهورهما ، وأحيا ما أمات ، واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله ،
فحكما بغير حجة ، ولا بينة ، ولا سنة ماضية . واختلفا في حكمهما . وكلاهما لم
يرشد ، فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين . . . فاستعدوا للجهاد ، وتأهبوا

المسير إلى الشام ، وأصبحوا في معسكرهم يوم الاثنين إن شاء الله . . . »
إذن فإنها الحرب . لا سبيل إلى إقامة الأمر على ساقه إلا بوصل ما انقطع ،
والعودة إلى الاحتكام مرة أخرى للسيف . لا حيلة ولا مناص . فلقد ضل الحسبان
وأخفقا فيما ندبأ له . طمسا معالم الصحيفة . امتدلا القضاء للأهواء . جاراً أعنف
الجور وأبغضه على كتاب الله . . .

٣

النخيلة خلية نحل . المكان عروج بالجلبة . الجنود تحتشد . السلاح يصلصل .
أينما وجهت سمك النقطة وقعا وقعقة . الخطا تدب . الخوافر تحب . العدد
تتراكم . أكداس من المأون والذخيرة تترى . في كل بقعة من المعسكر الكبير
حركة لا تفتر ، كأنما الأرض به قد غدت بحيرة مزججرة ، العدة والناس والدواب
موجها الصخب ، والكوفة ومنبعها الهادر . . جنباتها تضج بحياة تنهياً للموت ،
وتسعى إليه ، لأنه جسرها إلى الخلود . . .

مامن امرئ آمن واستيقن إلا أسرع وبكر . وما من امرئ شك وأراب
إلا تلكأ وتمثر . فالدواعي شتى ، والنفوس على تباين . . الذين آمنوا بإنسانيتهم
دفعهم القيم إلى الاحتشد تأهباً لقتال لا تحقق بغيره أهداف هذه الأمة التي أوشك أن
يعيل بها جموح بعض أبنائها إلى مزالق الهوى والانحراف . فالخلق قيمة . ونقاوة النفس
قيمة . والخلق السوى قيمة . والدين قبل هذا وبعده رأس هذه القيم والفضائل .
وإذا كانوا قد اتقادوا في سلوكهم وما يصدرون عنه من فعل أو قول لأمر المؤمنين
قلأن نظرتهم نظرتهم ، وإيمانه إيمانهم ، وشخصه هو العلم الذي يرمز لهذه المثل
العالية وتلتف جموعهم حوله نضالا وتضحية . . والذين آمنوا بذاتيتهم دفعهم
النخوة إلى مواقعهم ، لا نصرة للحق بل نصرة للنفس ، ودفاعاً عن مظاهر الشرف
والحياة التي لا تتأكد غيرها ولا تعتر هذه الذاتية . . والذين كانوا من الأمر في
شبهة ثم أغذوا الخطا إلى المعسكر ، في تلكؤ وتمثر ، إنما خطوا إليه على كره ،
رثاء الناس حتى لا يعيروا بين ظهري القوم بالنكوص والجبن والصبر على الضيم .
ومع ذلك فقد تخلفت عن الحشدة واشتهرت بالورع والتقوى ، وارتفعت بها
حامتها الدينية إلى ذروة أوشك إلا يدانيها لديها مدان حتى لقد حسب الناس

أنها بحق رأس الإيمان .. تخافت عن الذخيلة الحرورية ، أصحاب الثغفات والجباه السود من فرط الركوع والسجود ، وغابت اليوم عن مشهدهم أولى — في حساب الإيمان — بشهده والسمي إلى تحقيق غايته وبلوغ عقباه ..

فما خلفهم ؟ .. ما أقعدهم اليوم عن مؤازرة إخوانهم المتهيبين لإخضاع الشام بالحديد والنار وقد أعيأهم إقناعها بمنطق البيان وحكم القرآن ؟ .. ما أخرهم اللحظة وإنهم عند التحكيم وبعده وإلى الآن لأصحاب الدعوة إلى القتال ؟ ..

وكتب على إلبهم يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى زيد بن حصين ، وعبد الله بن وهب ، ومن

معهم من الناس :

أما بعد ، فإن هذين الرجلين الذين ارتضيا حكمهما قد خالفا كتاب الله ، واتبعوا أهواءها بغير هدى من الله ، ولم يمحلا بالسنة ، لم ينفذا للقرآن حكما فبرئ الله ورسوله منهما وانؤمنون .. فإذا بلغكم كتابي هذا فأقبلوا ، فإننا سائرنا إلى عدونا وعدوكم . ونحن على الأمر الأول الذي كنا عليه . والسلام . »
ودفع بكتابه إلى الرسول .

ولم تكن مواقعهم بخافية عنه . ولا حالهم وموقفهم .. في الأيام الملائل التي تلت الحكم تكتبوا ، وجمعوا شراذمهم ، ثم بيتوا الأمر على الهجرة — في الله ، فيما حسبوا — إلى موطن سوى الكوفة ، لا يساكنون به قوما حادوا الله رسوله ، وحادوا عن السبيل إذ حكموا الرجال في دين الله . . .
في خفية عن الأعين بيتوا الأمر . جلسات عديدة عقدوها ، خلف الأبواب ، وبين ظلمة الليل ، في دور رؤوسهم ومشيتهم ، يتذاكرون فيها الأوضاع ، والظروف ، وخطط المستقبل . ولم يكن همهم عندئذ أن يقلبوا وجوه الرأي من أجل استنباط وسيلة لنصرة القضية العامة ، وإنما لهم كل الهم هو كيف ينصرون رأيهم ، ويحملون الجماعة الإسلامية كلها عليه ، بالحجة والإقناع ، أو بالإرهاب والإكراه . ولقد تقطعت بهم آنذاك وسائل النقاش والجدال فاجتمع عزهم على الصيال واقتال ...

وقال لهم شرح بن أوفى ، يحدد الخطة المثلى لتحقيق ما يريدون :
« نخرج إلى المدائن فنزلها ، ونأخذ بأبوابها ، ونخرج منها ساكنيها ، ونبعث
إلى إخواننا من أهل البصرة فيقدمون علينا . . . »
فترث زيد بن حصين هنية يفكر ، ثم جاء من لدنه بما يكف عن هذه
الخطة الإخفاقي :

« إن خرجتم مجتمعين اتبعتم . ولكن اخرجوا وحدانا مستخفين . . . فأما
المدائن فإن بها من يمنعكم ، ولكن سيروا حتى تنزلوا جسر النهر وان . . .
وفعلوا .

وانطلقت زمرة منهم ذات ليلة في الشتاء من ليالى شوال ، مستخفين عن
الأعين ، وعلى رأسهم شرح بن أوفى ، وهو يتلو كاتما يحصن نفسه وصاحبه
بما يقول :

« نخرج منها خائفاً يترقب ، قال رب أنجني من القوم الظالمين . ولما توجه
تلقاه مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل . . . »

وسارت الشرذمة على الطريق للمدائن ، ولكنها لم تنس نصيحة ابن حصين
فاتجهت دونها إلى ساباط . وما كان لها أن تدخل البلدة أو تقاربها ، وهذا أميرها
سعد بن سعود قد جاء بنبأ مقدمهم ، فأخذ أبواب المدائن ، واستخلف عليها
بعده ابن أخيه المختار ابن أبي عبيد ، ثم خرج إليهم يطاردهم بخيله ، حتى وقع على
فئة منهم يرأسها عبد الله بن وهب ، فالتحم بها ساعة . . . لكن الليل حجزه
عنهم ، وأفسح لهم بظلمته في الفرار منه عبر دجلة إلى أرض حوفى ، فالنهر وان
حيث وجد بقية أصحابه وقد عسكروا بها على مثل الجسر من قلقهم عليه . . .

وكذلك فعلت خارجة البصرة ، فانطلقت هى الأخرى إلى منتجع الفتنة ،
يقودها مسمر بن فدى . تسللوا أيضاً خفية ، ثم بلغ نبؤهم واليها عبد الله بن عباس ،
فجرد لهم أبا الأسود الدؤلى في قوة مطاردة ، تبعهم إلى الجسر الأكبر ، وأوشكت
أن توقع بهم لولا الليل الذى أمدهم بظلمة أكنتمهم عنه ، وفتحت أمامهم طريق
الهروب موفورين إلى حيث حشدهم الأكبر . . .

والتأم الجمع بالنهر وان أربعة آلاف قارىء وعابداً عمتهم عصبية الدهن وأصنامهم

ضيق أفقهم عن التمييز بين الهدى والضلالة وإن واصلوا الليل بالنهار في التهجد وفي تلاوة القرآن . فما تغنى عنهم التلاوة . وما يغنى عنهم الصيام والقيام وإنهم ليقرأون فلا يعون ، ويأخذون بالحرف والعبارة وهم في غفلة عن الضمون . . وجاءهم كتاب الإمام ، فعلى أى وجه استقبلوه ؟ .

لكأنى بهم عندئذ خدود مصعرة ، وأوداج مفوخة ، وأعناق أتلعها الصلف والتهيه إلى مسارح الغيم التى أطلعها عليهم الأفق الأشهب ذلك اليوم المشيع ببرد الشتاء . . فما يخلونه إلا نصراً لرأيهم آزرته به أخيراً الأحداث . . ألم يعارضوا التحكيم ؟ . . ألم ينهوا علياً عن السير فيه ؟ . . ألم يحاولوا حمله مراراً عدة على نقض نصوصه عوداً إلى الاحتكام للقتل ؟ . . فما باله الآن يدعوهم للحرب التى أبأها عليهم طوال أشهر عمانية إلا أن يكون قد اهتدى إلى صوابهم ورآهم أخلصوه حقاً النصح يوم خالفوه . .

لكن فى نفوسهم شيئاً ما زال يفصل بينهم وبينه ، ويضعهم وإياه فى طريقين لا يلتقيان . . إنهم فى الحق لا ينسكرون أنهم أكرهوه ساعة رفع المصاحف على قبول التحكيم ، وأكرهوه بعدها على اختيار أبى موسى حكماً يتحدث بلسانه وألسنتهم ، فقضوا بهذه وتملك للطائفة البطلة بالنصر ، وعلى الطائفة المحقة بالخذلان . فالحنة إذن ، التى رماهم الحكم فيها ، من غرس أيديهم ، والجريرة التى وقع فيها على هم الدين حفروا حفرتها تحت قدميه ثم جروه ليتردى فيها معصوب العينين مشدود الوثاق . ومع ذلك فما فتئوا أن يبينوا خطيئتهم ، فزعموا عنها ، وتابوا إلى الله راجعين كرة أخرى إلى ما أرادهم قبلها عليه . أفئن جاءهم الآن يستغيثهم إلى صفوفه ، ويدعوهم بنفس دعوتهم ، إنه إذن قد نزع نزعهم ، وحنث نفسه إلى التوبة ؟

طائفة منهم أخذت الأمر من أقرب موارد ، وودت لو لحقت به ما دام قد دعا بدعوتها ، وتهايا لحرب المحلين البغاة بالشام . فلقد التقى الهدف بالهدف والنظرة بالنظرة ، وعاد السيل إلى مجراه . . .

وطائفة أخرى لج بها الكبر والعناد فلم ترفى الدعوة إلا وسيلة يحنثها لدعم سلطانه وقد تبدى له تهاوى أركانه ، فليس يرجو بها إذن وجه الله . . .

وطائفة بقيت على تذاؤب ، لا إلى هذه ولا إلى تلك ، فوقفت تنظر ما عسى أن يجاب عنه الجدل ، وفي نفوسها بقية من ريبة في موقفه وموقف الخارجة على السواء ، لا تستطيع معه أن تحسم ، أو ترجح إحدى كفتي الميزان . . .

لكن الذين شاقوه في البدء هم الذين شاقوه أيضا اللحظة ، وعلت كلتهم ، ثم نضحت رسالة الجماعة برأيهم فيه . . .

كتبوا إليه :

« أما بعد . فإنك لم تغضب لربك ، إنما غضبت لنفسك . فإن شهدت على نفسك بالكفر ، واستقبلت التوبة ، نظرنا فيما بيننا وبينك ، وإلا فقد نابذناك على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين . . . »

٤

أغضى عنهم ، فما يكرثه فعلهم . وليس حريا به أن يجعلهم هما يشغلونه عن الهم الأكبر . . .

الشام اليوم هي همه . معاوية . الفئة التي خرجت على سلطان الإسلام وأصابته بصدع يشق وحدة الأمة ، ثم تذرعت بأخش الحيل وأخبثها لكي تعلى نفسها في البقاء . مجيشة المال ، مستغلة هوى الأنفس ، مستعينة بالدنيا ، متسكرة للقيم ، متلعبة بكتاب الله . . .

الخطر — في رأيه — ليس في فرقة من رجاله تخرج عليه . ولا في سلاح يشمرع لمناجزته وإن حملته حيا له أكف قلة أو كثرة من مخدوعين أو مشاغبين كانوا إلى أمسه القريب من أخلص مظاهريه . . . لا ولا أيضا من جحافل مرصوة قد تحجب بحشودها ضياء النهار . ليس يكرثه قط أن يكثر العدد ، ولا أن تجلب الدنيا عليه بالحيل والرجل والعتاد . ولا أن يقف وحيدا في الميدان يناضل بيمينه وشماله عاريتين من أداة حرب تحميه . فالصراع عندئذ « بدني » لن تكون خسائره سوى سلاح ، وضحاياه سوى أشلاء . . . إنما الذي يقلقه الآن أنها حرب « خلقية » إن لم يتهيا له النصر فيها ، جاءت العقبي وبالا على المبادئ المثلى التي شرعها الدين ، ووضع بها دعامة مجتمع فاضل ، ينبغي أن تسود

في حنباته المعنويات على الماديات ، تنقية للنفس ، وارتفاعا بإنسانية الناس عن غرائز الدواب . . .

ولقد ظل دائماً في باله هذا الخطر ، يرادفه في صحوه ونومه ، في سره ونجواه . . . في صباه وهو غلام . في شبابه وهو جلد ذو أيد . في رجولته وفي كهولته وقد اجتمعت له قوة القلب والجنان إلى خبرة العلم وحنكة التجربة . إبان عطله من السلطان وإبان امتلاكه لناصية هذا السلطان . . . دائماً دائماً كان قدوة . دائماً دائماً كان يصدر في فعله وفي قوله عن سلوك من يحس بالتبعة أمام ضميره ، وأمام الناس ، وأمام الله عن توطيد القيم الروحية التي لا بد من غرسها وتنميتها في خلائق البشر ، إن لم يكن إشاراً لها على مطالب البدن فتحقيقاً للتوازن في طبيعتهم المجدولة من وحدة حية ، ثنائية التكوين ، قوامها روح ومادة . فكذا علمه محمد . كذلك شريعة الله . . .

لكن معاوية شاء غير ما ينبغي أن يكون . وراح يشج ، بعمله ودعواه ، وحدة الكيان الإنساني ، مملياً للمادة في الطغيان . . . لتأكيد ذاتيته كان يفعل . لمأربه الخاص . للاستزادة من البطانة والأعوان . ولئن كان أسلوبه هذا غير مستحدث — إذ هو المركب الأبدي لكل وصولي ، من قبل ومن بعد ، إلى مراميه ، فإنه بلا ريب ردة عن الصراط . . . فما أيسر الإغواء . وما أقوى سطوة الرخارف والعروض الدنيوية على النفوس . وما أسرع نزوع الأبدان المعتمدة الصماء — إذا ما كشفت شفافية الروح — إلى الأهواء . . .

أجل ، فالهوى شهى طريقه قصير . والهدى ثقل طريقه طويل . . . ولقد كان الإمام يستعيد دائماً في خاطره حديث الرسول : « إن الجنة حفت بالمكاره ، وإن النار حفت بالشهوات » ثم يحذر أصحابه أن يذلوا للبدن فيقول لهم :

« ما من طاعة الله شيء إلا يأتي على كره ، وما من معصية الله شيء إلا يأتي

في شهوة . فرحم الله رجلاً نزع عن شهوته ، وقع هوى نفسه . »

وكاى يعلم أن رياضة النفس تتطلب طاقة روحية تعي بحملها الأجسام ، وجهد لا يصبر عليه الأكثرون ، فكان يقول لمن ثبتوا في ميدان هذا الكفاح ولم ينكصوا على قدم :

« لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله . . . »
وكان يقول :

— إنما الدنيا دار مجاز ، والآخرة دار قرار . نخذوا من ممركم لمقركم . .
وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم . . إن المرء إذا هلك
قال الناس : ما ترك ؟ وقالت الملائكة : ما قدم ؟ . . »

لكن الذي كان يروعه ويزيد أمله ، أن يرى أناسا لهم صحبة مع الرسول ،
أو من ذوى الشرف والأقدار الخلقين بألا يدوروا مع الريح ، يشترتون بدينهم
دنياهم ، نابذين وراءهم ظهريا لب الدعوة الإلهية ، ومهطمين كالساعة إلى عروض الحياة .
أولئك كان الحق يبهظهم ، والعدالة تعضل بهم ، والأنانية تقودهم بأخطامهم إلى
تنسكب طريق الإنسانية القويم . فإذا لم يكن العدل هو السبيل الحرى بأمثالهم
طروقه ، فلمن إذن يكون السبيل ؟ . . وإذا لم يكن هو الركيزة التي ينبغي أن
تقوم عليها حياة البشر ، والأسلوب الذي ينظم العلاقات في المجتمع بين الناس ،
فعلى أى أساس ترتكز هذه الحياة ، وكيف تنتظم ، وبأى أسلوب ؟ . .

في صفوفه أيضا كانت من هؤلاء طائفة . بعضها أسر الهوى إلى حين ،
وبعضها أسرع فأسفر . ولقد امتلأ عهده بالصبح لهم . وبالأزراء عليهم .
وبالشكوى منهم . . ولعله حين استفاض ذات مرة في الحديث عنهم مع الأشر ،
لم تكن تلك شكوى فريدة يبثها ، عن أسى وأسف وحسرة ، تنفيسا
عن صدره . . .

وقال له الأشر عندئذ وهو يتناول موقفهم بالتحليل ، ويحاول أن يرده
إلى علته :

« أنت تأخذهم ، يا أمير المؤمنين ، بالعدل ، وتعمل فيهم بالحق ، وتتصف
الوضع من الشريف . فليس لشريف عندك فضل منزلة على الوضع . فضجت طائفة
عن معك من الحق إذ عموا به ، واغتموا من العدل إذ صاروا فيه ، ورأوا صنائع
معاوية عند أهل الغناء والشرف — فتاقت أنفس الناس للدنيا ، وقل من ليس
للدنيا بصاحب — وأكثرهم يحتوى الحق ، ويشترى الباطل ، ويؤثر الدنيا . .
فإن تبذل المال يا أمير المؤمنين عمل إليك أعناق الرجل . . »

فابتسم بسمة مرة . يرمون إذن بالمساواة التي شرع الله بين خلقه ، ويأبون إلا الاستعلاء درجة على الناس ؟ . .

وقال :

« يا أشر .. إن ما ذكرت من عملنا وسيرتنا بالعدل ، فإن الله يقول : « من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها » ... وأنا من أن أكون مقصرا فيما ذكرت أخوف .. وأما ذكرت من أن الحق ثقل عليهم ففارقوا لذلك ، فقد علم الله أنهم لم يفارقونا من جور ، ولا لجأوا إذ فارقونا لعدل ، ولم يلتمسوا إلا دنيا زائلة عنهم ، وليسألن يوم القيامة : ألدنيا أرادوا أم لله عملوا ؟ . . وأما ما ذكرت من بذل الأموال واصطناع الرجال ، فإنه لا يسعنا أن نؤتي أمرا من التي أكثر من حقه . . وقد بعث الله محمدا وحده ، فكثره بعد القلة ، وأعزه بعد الدلة ، وإن يرد الله أن يولينا هذا الأمر يذل لنا صعبه ، ويسهل لنا حزنه . . »

فالعدل وحدة لا تتجزأ . المساواة لا تنتقص ميزان الحق لا يطفف أو يخسر . لا يشتري أحدا بظلم آخر . لا يحابي . . . وهذا ابن أخيه : عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب يحثه في حين محنة ألت به يستمعينه :

« يا أمير المؤمنين ، لو أمرت لي بمعونة أو نفقة ؟ .. فوالله مالي نفقة إلا أن أبيع دابق . . . »

فلا يزيد على أن يحجب :

« لا والله لا أجد لك شيئا إلا أن تأمر عمك أن يسرق فيعطيك . . . »

لقد طالما أسف وهو يرى القوم ، هنا وهناك ، يسفون . لقد طالما جهد ليقوم اعوجاج الأنفس ، ويردها إلى الجادة . . بالدعوة كان عهد ، بالحكمة والموعظة . بالقدوة والأسوة . . وها هو الآن ، وقد تفد الصبر والتصبر ، وتقطعت الأسباب والوسائل ، يشرع في وجود أولئك المشاقين سلاحه ، لا يروم به حملهم على الخضوع نصرته له ، وإنما امثالاً للمبادئ الكريمة ، وتوطيدا لحق الإنسانية ، ونصرة للدين . .

وكانت الشام — لا ريب — بؤرة أهواء الدنيا ، وصاحبها معاوية النافع في نار هذه الأهواء . فإذا عدل في السير عنه إلى الخارجة بالنهروان فإنه إذن

سيقطع المذنب . ويترك الرأس يسعى لينهش وينثر لعابه المسموم ! . . .
وكذلك أغضى عن جماعة الراسى ، وأسقط من حسابه ما ضمته رسالتهم ،
ثم نزل النخيلة ، ووقف فى حشدها ، يحثهم على السير :

« أما بعد ، فإنه من ترك الجهاد فى الله ، وأوهن فى أمره ، كان على شفا
هلكة إلا أن يتداركه الله بنعمته . فاتقوا الله ، وقانلوا من حاد الله وحاول أن
يطفىء نور الله . قاتلوا الخاطئين الضالين المفسطين المجرمين ، الذين ليسوا بقراء
للقرآن ، ولا فقهاء فى الدين ، ولا علماء فى التأويل ، ولا لهذا الأمر بأهل
فى سابقة الإسلام . والله لو ولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل . . .
فسيروا ، وتنبأوا السير إلى عدوكم من أهل المغرب . وقد بعثنا إلى إخوانكم
من أهل البصرة ليقدموا عليكم ، فإذا قدموا فاجتمعتم ، شخضنا إن شاء الله . . . »
وكان قد كتب لابن عمه : عبد الله بن عباس ، عامله على البصرة ، يخبره
الخبر ، ويدعوه وجنده :

« أما بعد . فبنا قد خرجنا إلى معسكرنا بالنخيلة ، وقد أجمعنا على السير إلى
عدونا . . . فاشخص بالناس . . . »

فما فعل العامل ؟ . . .

لم يشخص . . .

أفقد شام ياترى خيرا فى يقائه حيث هو ، فأثر المكث بدار إمرته ؟ . . .
لملة ما قد قعد عن الشخص . لدواع عساها احتجزته . لأمر لعله خشى أن
تنتكس إن هو غاب عن مقره . . . أم قد مل هذه الحرب التى لا تسكاد تهذا إلا
لتثور ، ولا تسكاد تثور إلا لهذا ؟ . . . أم قد كل متته عن عمل السيف وضاق
بالقتال ذرعه ، فاستطاب أن يركن للدعة حتى حين ، قانعا من للمشاركة فى الأحداث
يتبعها من بعيد بسمه وعينه ؟ . . .

الرجل ونيتة . . . فما يسهل اللحظة استنباه . دخيلة نفسه ، والغيب دائما
مستر ، والقلوب مغلفة بالعلم . . . لكنه ، على أى حال ، لم يأتهم وهو عندئذ
أولى امرى بالاثمار ، وأحرى الناس بأن يكون قدوة لبلدته ، ولغيره من العمال
والسكان من الجمهور ، فى فترة حازبة من عمر الإسلام هى بلا ريب المقطع الفصل
فى مستقبل الدولة ، والشعب ، والقيم الخلقية لأجيال وأجيال . . .

وما فعلت البلدة ؟ . .

الحاضرة العراقية الثانية تشاقلت كأنما شدت أقدام الرجال فيها إلى الأرض ،
أو هـن عليهم الأمر فاستقبلوه بغير احتفال . . كان قصارها أن تبعث ، من جندها
المجيش ألفا وخمسمائة ، هم كل من وسعها حشدهم من المقاتلة ، كأنما الأمر لهُو
لا جد ، واللقاء في مراح وملعب لا في حومة وغى وميدان قتال . .



الكوفة أيضاً غيرتها السلم الموقوتة . .

الجسوم فيها استرخت الهمم تهاوت . القيرة فترت . . الزمن لم يعد له في
بال أهلها ذلك الخطر الذى كان يدفعهم من قبل إلى قياسه باللحظة وطرفة العين
مبالاة به ، وتقدير آلفيمته ، وحفزا لأقدامهم على ملاحقته ثم استباقه على طريق
الأحداث إلى مكاس النصر .

« اللحظة » لم تعد وحدة القياس بل الرغبات . . والرغبات فوضى لا تحدّها
حدود ولا تسجّيها أسوار فهى تيه بلا إنتهاء . ولا يمسكها عنان بينان فهى شوارد
تهم في كل واد من أودية الأمانى والأهواء ، طليقة أيما تشاء وأبان تشاء
لا تستقر بقرار ، وليس يسمعها أن تستقر لأنها دائماً تتطلع إلى جديد ، كلما انتهى
بها هيامها إلى غاية تجددت لها وراءها غاية تفرزها طاقنها الذاتية إفرار الموجة
للموجة في بحر لجى طام تتلعب به أكف إعصار . .

بوادر الثبوت الذى خالج الأنفس راحت تتجمع في الأفق وتتراكم غيمة فوق
غيمة ، ناشرة الظلال والدكنة والسواد . كسفة واحدة منها لم تخف عن امح الإمام
وقطرة من وبّل الخطر الذى تحتزّنه لم تغب عنه . الجو « الحدثنى » عاصف
ولكن الجو « النفسى » رخاء . . فالناس حوله يسكنون إلى الدعة العارضة ،
ويستروحونها ، ويعيشونها بكل قلوبهم وجوارحهم كأنما هى الحياة كل الحياة .
والأمور في البلدة تسير على هون سيرا هو أبعد شئ عن « وحى » الوقت الذى
تجتازه الأمة ، وأبعد خط عن الطريق الذى ينبغى أن تسير فيه . . كلهم شغله
همه عن الهم العام . الكبير كالصغير ، والشريف كالشريف . . وكلهم أخلد إلى
إلى نفسه أو أهله ، واستنام للدعة ، واستسلم للاسترخاء . الرئيس قطع ما بينه

وبين رجاله فإن التقى بهم فعلى دنياه أو دنياهم اللقاء . . . والفارس هجر دابته إلا لزينة . والراجل ترك سلاحه ودينه في عناية الصدا والإهمال . .

ولقد لوحث النذر بالمصير الخوف ولكن الناس كانوا من هواهم بنجوة عن أى نذير . لا عين ترى ، ولا أذن تسمع ، ولا بصيرة تنفذ فتعى وتعلم . الخاصة من الخنة كالعامية وإن انتصف الواقع من أولئك لهؤلاء . إذ ترسموا خطا قادة ساءوا قدوة ومثلا فضلوا بهم عن سواء التقدير . والكوفة كالبصرة وإن اعتذر الأخيرة بأن نصيبها من الكوارث قد ملائ كيلها إلى حافته إبان « الجمل » ثم فاض به في أتون « صفين » حتى كلت النفوس بالمواجع وطنت البيوت بالأنين . لكن الكفاح هو الكفاح ، والحرب هي الحرب ، والسلائق السليمة لا تؤمن قط بأن الأسى تعله يتعمل بها الذين نذروا أرواحهم لبدأ وألتفوا بعلمه التفاف أحرار . . .

وهز ابن عباس ثبوط إقليجه وإن كان هو قد أسهم فيه بالقدوة ، عفوا أو مدفوعا بأسباب . لكن الاستخزاء قد آده ، والتهافت قد ثقل عليه . فالسلوك الذى طالعه به القوم لا يباعد بينهم لحسب وبين ضرورات الوقف في حساب السياسة ، بل يباعد كذلك بينهم وبين المروءة في حساب الأخلاق . .

ما من قلة في الرجال قعدت البصرة ، ولا من عجز في العناد . . فما هو إذن خطب الناس ؟ . . ما خلفهم ؟ . . أى الأدوات قد سرحت منه إلى قلوبهم جرثومة معضلة رعت فيها رعى السوائم الهيم في أرض محل لا تكاد تبدو بها عشبة يابسة بين شقوق الصخر حتى تغدو وليمة ثرية تتخطفها البطون الجياع ؟ . . أى داء وكيف الدواء ؟ . .

وركب العامل من فعدهم هوان حتى له صدره واتقدت عينه ، واشتد لسانه ، فوقف في جموعهم يزأر وينذر :
« أيها الناس .

جاءنى أمر أمير المؤمنين يأمرنى بإشخصكم ، فأمرتكم بالنفير إليه مع الأحنف ابن قيس ولم يشخص معه منكم إلا ألف وخمسمائة وأنتم ستون ألفا سوى أبناءكم وعبدانكم وموايكم . ألا انفروا مع جارية بن قدامة السعدي . ولا يحملن رجل على نفسه سبيلا فإنى موقع بكل من وجدته متخلفا . . »

فما أغنى عنه وعيده ، ولا كان نذيره إلا كمثل صرخة في واد تبددت غير
أصداء . . . وعندما خرج جارية ، آخذاً سمته إلى النخيلة ، لم تكن عدة فيلقه
سوى مئتين قليلة توشك ألا تمدو جيش الأحنف لتؤاف معاً نحو ثلاثة آلاف
جندى بين فارس وراجل ، هم كل من وسع البصرة أن تحشد هم من بين مئتين
ألف مقاتل سوى الأبناء والموالى والعبدان . . .

كذلك كانت الحال : نداء ولا تلبية ، ودعوة ولا جواب . . الحوادث هوج
والأنفس رخية . الجوارح تنشط والهمم تفتقر. المبادئ تنخبو والأهواء تزدهر . .
الدنيا تقبل والآخرة تدبر . . . وبعد أن كان الناس يشوقهم الموت إذ هو الحجاز
للحياة الحقة ، ويطيرون إليه بمجنأى الجهاد والفداء ، غدوا وقد شدتهم الأرض
إلى دنياهم الزائلة بوثق الذات . . .

بغير إكراه كان الناس قبل هذا يقبلون من كل حى وكل قبيل إذا ما ادلهمت
محنه لا تفرج كربتها إلا مشافر السيوف . . . كانت المطى تساق ، والأسلحة
تجمع ، والألوية ترفع ، والجنود تصطف ، ودعوة الحرب تتردد فى أهازيج
طروب ، ندية الغم تنشر الأمل ، نارية اللفظ تشعل القلوب . . طواعية كانت
المقاتلة تحتشد ، وتزود من لديها بزاد القتال من ظهر ومؤونة وعتاد .

هذه هى السنة التى استن رسول الله فى الحرب ، يندب لها ، ولا يستكره أحدا
عليها . فإذا نودى للجهاد خف إليه المجتمع الإسلامى خفة رغبة وإقبال . .
فانقادرون كلهم له . كلهم جيش . كلهم يزحف إلى ساحة الخطر ما وسع فردا
منهم أن يفعل : بنفسه ، أو بولده ، أو بعاله ، أو بعبده ، وما اقتضى الأمر أن
يخرج الناس : رجالاً ونسوة ، شباباً وشيباً نصرة لهدف أو درءاً لعدوان . ولقد
كان أصحاب اليسار مجهزون أناساً للغزو والدفاع لا يقوون عليه من حاجة أو عيلة ،
فيتسكفون هم بنفقتهم ونفقة ذويهم حتى يكون الظفر وتنطفئ النار . وما عرف
قط أن رجلاً تناقل فتخلف عن قتال إلا غداً أمثلة سوء بين القوم ، ينكرون
عليه فعله ، وتقاطعه جماعتهم وتجتنبه فى الحياة اليومية حتى ليغدو منهم مثل
جزيرة مهجورة فى بحر لجى من النفور . ثم هو لا يسلم طى الأيام من ازدراء
تضييق به عليه الرحاب والنفوس فلا يكاد يلتقى دونهم ملاذا يعصمه من الحسرة

إلا أن يسارع إلى طمس زلته بالخروج إلى غزاة جديدة تعيده إلى رحاب الشهادة ، أو تعيده إلى ظلال القبول .

وطبيعى أن الدولة فى إبان فترات السلم لم تسكن تترك هملا بغير جند على أهبة حتى تأزف الأوازف ويتردد فى جنباتها دوى الخطوب . بل قد كان لها بكل إقليم فريق من المقاتلة يختص به ، ويرابط فيه ، حراسة وحماية . . ومع ذلك فهذه الفرق لم تسكن هى الجند كله ، وإنما كانت القلة الأقل فيه الموكولة بالطوارىء والمفاجآت . فإذا جد الجد ، رأيت طوفانا من العسكر يقبلون على حمل السلاح وسد الجبهات ، منتظمين فى صفوف الحرب ، قد تقدموا من كل صوب فى الإقليم ومن خارجه على السواء ، لا يدفعهم إلى الالتحاق غير الرغبة الخالصة فى النضال من أجل غاية عامة ، ويحركهم الحافز المعنوى طاغيا بسطوته على أهواء الذات . . فالتطوع إذن كان أول دعامة — إن لم تقل هو الدعامة — التى قامت عليها الجندية حينذاك ، والإحساس بالخطر ، أو تسويد الهدف هو داعيها ، والندب إلى القتال — دون السوق إليه وبغير استكراه — أسلوب التجنيد . . .

غير أن الفراغ الروحى الذى جاء فى ركاب الدنيا راح ينخر فى الناس ، ويردهم كرة أخرى بعيدا عن القيم إلى حب الذات ، والحرص على الدم فبردت فى الصدور الهمم ، وتعنتت بالحياة الأعين ، ونهاوت فى التراب القلوب ، والتصقت بالأرض الأقدام . . ولم يكن بمستغرب أن ينتشر هذا الضباب المعتم على الأفق العلوى مشيما التراخى فى أرجائه ، ملتهما المبادئ منه الهام أستار الظلمة لخطوط النور . . .

ويوشك امرؤ أن يتساءل : إلى أى مدى شاع ذلك الضباب فى سماء الشام ، ولف بقتامه أنفاس القوم الذين استبطنهم عاهلها واتخذهم ظهيرا وأولياء ؟ . . لا مراء قط فى أنه كثف هناك . وخالج كل قلب . ونفذ إلى كل رئة . وجرى فى دماهم حتى عاشوا به وعاشوه . ومن الخطل أن نضعهم — فى هذا المقام — بمرتبة أدنى من رجال الإمام إلى الاحتفال بالحياة إذا وزن التطلع إلى الدنيا بالدرهم والثقال ، وقيس التأى عن المبادئ بالفتق والذراع . لكن الخطل كل الخطل أيضاً أن يقال إن الفريقين كانا على سواء حين نحسب لها مقومات الفوز فى هذا

التسابق للمادى ، وتنتهض عدده وأدواته ، وخططه ومرجعاته . . . فالثابت الذى لا شك فيه أن أنصار معاوية كانوا يتطلعون إلى زخرف الدنيا ونشبهائها وإنه منهم لعل قيد خطوة لا يكلفهم إلا أن يخطو أحدهم فإذا هو فى نطاق مشتاه ، ثم يد يد فإذا هى على ثمرة النشب ناضجة جنية بغير جهد مذكور . بل قد يرجو وهو قاعد فلا يبخل عليه دهره ، ولا يبطل به سويعة أو بعضها من زمان عن السارعة إليه بالطلب المأمول . بل قد يكون أبعد امرئ عن الطلب والتنى ثم يجيئه المنصب هبة ، والجاه صلة ، والعطية هدية ، ترويضاً له ، وتألقاً لقومه من ورائه ، وإغراء لأمثاله من كل ناصل أو نافذ كان لا يأبه بالعرض أو يتحصن عنه بالتأبى إلى حين ! . . .

أما رجال طى فقد كان النشب يجرى فى أخلادهم مجرى الأمنية لا يكاد يعدو مواقع الظنون والأوهام . فصاحبهم صلب فى الحق ، قوى فى الله ، قد حمى حولهم حمى من خلقه ، ومن المثل والقيم ، أوصد دونهم سبيل الانطلاق إلى عالم العروض . فإذا تطلع أحدهم فتطلع الناظر إلى سياج معوسج يعلو كالجبل وتعجز عن اجتيازه نزوة تثقلها القيم ، وتشدها البادى إلى حيث يجب أن تكون لا إلى حيث تحب أن تكون . . . هذا الصراع النفسى المتكرر ، على الزمن ، يوماً يوماً ، وساعة وساعة ، استطاع أن يجرّد قلوباً ضعيفة كثيرة ، من القدرة على المقاومة والثبات ، لتهياً فى تربتها السبخة البيئة الملائمة لبذرة « الشهوة الدنيوية » لتنمو وتفرع وتأخذ طريقها إلى الازدهار . فما أصعب أن يغمض امرؤ عينه دون وهج الإغواء ، وما أشد تهافت الفراش على النار ! . . .

إنها لطبيعة البشر . آدم نفسه قارف الثمرة الشهية وإنه لمأمور بأن يتحصن منها ، ومنذر — لو ذاقها — بالضياح ! . لكن النذير لم يغن عنه ، واللذة العاجلة ، لحظة الشهوة ، طمست وعيه ، وأعيت صبره ، وأنسته لذة الخلود . . .

من الناس من قد يرى حقاً لهذه الطائفة المشتهية المحرومة أن تعتذر — أو يعتذر لها — عن نزوعها إلى المادة بعض اعتذار . ومن يرى نصفه أن يحسب لها لا عليها تعلقها بالطبع البشرى الذى ينجح إلى الطموح ، إلى التفوق ، إلى حب الاقتناء مشدودة ببقايا الغرائز التى جبل عليها الإنسان منذ دبت على الأرض ديب

الساعة وسعى سعيه إلى إشباع رغباته دون أن يهذب انطلاقه إلى طريق الحياة. شيء من القيم الخلقية — فضلا عن الدينية — التي ترتفع ببشريته إلى المسكوك فوق الناعم ، وإلى متعة الروح قبل متاع الأبدان . فهذه الغرائز أصلا هي الأداة لتأمين حياته . والإنسان ليس نورا وشفافية . والدنيا ليست بصومعة ناسك . . وهؤلاء الرجال الذين التحقوا بعلى وآزروه هم أناس من البشر . ثم هم بعد هذا لم ييخلوا بشيء على نصرته . ما منهم إلا من أبلى أحسن البلاء في سبيل ربه ، وأمه ، وإمامه ، وإنه جميعا لبلاء صادق رفع راية الحق والعدل والسلام . ما منهم إلا من ركب أخشن مركب ، وسلك أوعر مسلك ، وطعم العلقم والحرمات من أجل الظفر بحسن العاقبة في هذا الصراع : وحدة ورخاء وطمأنينة . ما منهم إلا من تخلى حيناً — طال أو قصر — عن شيء وأمره : نشأ وطموحا ، منكرا ذاته ، كالبها نزواته ، كابتا رغباته عن طواعية واختيار أو عن قهر وإجبار فآين الجزاء ؟ . . . وإلى أى مدى يستطيعون التسامى على طبائهم ويمكن أن يحسبهم صبر أو تصبر ؟ . . . وأين لنفوسهم أن تظل هكذا جامدة حيث حبسها صاحبهم فلا تنوء بحملها وإثنا لتلتزم بما يشق عليها ، ويتسرب اقتدارها على الاحتمال رويدا رويدا في هذا المناخ النفسى الذى يعتصر منها جلدتها ، ويمتصه امتصاص الرمل لقطرات مطر أمقطتها غيمة عابرة على أديم صحراء صديان ؟ . . .

ثم ها هم أولاء — على قرط التزامهم — يشهدون أعداءهم المترخصين فى الحق ، العابثين بالقيم ، المؤازرين الضلال ، ينعمون دونهم بما هم أولى به . يستزيدون يوما وراء يوم من أطيب الحياة . من الأمن فى الأهل ، من الوفرة فى المال ، من العزة فى الجاه كأنما الغرم موكل أبدا بالأخيار ! . . . فهلا من ثغرة يطالون منها على الشطر الثانى من حياتهم البشرية ؟ . . . هلا من فرجة فى هذا السياج المعوسج ، العالى كالجيل ، الحصين كالستحيل ، تفتح أمامهم أفق التطلع ! . . . هلا من أمل ؟ . . . من برق خير ؟ . . . من علالة منقعة تثبت بها كفة المائدة بعض ثبات وتقى ميزانهم النفسى الاختلال ؟ . . .

الذين راودهم هذا الخاطر لم يكونوا قلة فى صفوف أهل العراق . والذين يعتذرون لهم ليسوا قلة حينذاك ، والآن ، وإلى ما بعد أجيال وأجيال . فالقلوب

دأوا نهفو للطموح ، للتفوق ، للمغنم ، للمال ، لكل عدة من هذه وتلك ومن شبهاتها يعتد بها لتأكيد السكيان وتأمين الحياة . وحديث الأشر لا يغفل هذه الحقيقة ، وإنما يعبر عنها تعبير معاصر لخلجات القوم ، متبوع تطورها ، علم باتجاهاتها . وهو حين طلب إلى الإمام أن يخفف قبضته عن أسرار الناس ، ويتألفهم بالمال ليمطفهم حوله ، وتبيل أعناقهم إليه ، قد كان حقا بمنزلة من عرف الداء فوصف الدواء . ولعلنا اليوم نجد بيننا فرقة من أصحاب الشغف بالمقارنة والنقد تسخط تشدد أمير المؤمنين وهي تستحضر في بالها قصة المؤلفة قلوبهم من قريش الذين حباهم رسول الله — تألفا لهم ، واستبقاء لطاعتهم — فضلا من عطاء عقب حنين والطائف ، بزت به أنصبتهم أنصبة سواهم من المسلمين ذوى المقدمة الذين رعوا الإسلام في مهده وناضلوا عنه كفار الجزيرة ، وأولئك المؤلفة منهم ، حتى شب واستطال . . .

في مجال المقابلة لا نستبعد أن يتقدم مجادل بهذه القصة اعتذارا ، من ناحية ، لأصحاب على الذين رنت أبصارهم إلى الدنيا مصدرين في رنوهم عن سليقة النفس البشرية ، وإزاء ، من ناحية ، بتشدد على حيث كان ينبغي أن يترخص وله أسوة في رسول الله . . . ولقد يبدو هذا المنطق الجدلي — في أولى ومضاته — خليقا بالاعتبار . فالرسول قد فضل أناسا على أناس ، ولم يكونوا بخير الناس ، ولكنه فعل استجابة لوحى الموقف ، وثبت بالتألف أقدام فرقة حرة — إن لم يحبوها — بأن تنزلق بعيدا عن الجماعة ، فيتصدع الصنف ، وتتفرق الوحدة ، في وقت الأمة أحوج إلى اجتماع الشمل ، وتوثيق العقدة . وفعل لأنه رآها سياسة محمودة أن يفعل ، لا تغفل عن كنه الطبائع وتركيبها ، ولا عن خضوع السلوك للنوازع النفسية ، ولا عن دواعي المسال وظروفه التي عاشتها آنذاك تقوس لا تسعفها طبيعتها البشرية بالتجرد من الأثرة ، والتزهد عن الدنيا ، والقدرة على إخضاع البدن للروح . . فإذا كان محمد ، وهو راعي العدل ، وناصر ميزانه ، قد رأى أمام إلحاح الموقف أن يؤثر ليتألف ، أفليست الحال الآن حيال الإمام أشبه بالحال ، وجديرة بأن تنال منه بعض تحلل من صلابته ، وأنه لو تحلل لقاض على جرثومة تفكك في جيشه ثم أن تنخر فيه ، وسالك نهجا رشيدا شقه قبله ، وسار فيه ، أعرف امرئ بما يجب أن يكون . . ؟

كلا ولا جدال . . .

لقد وجد بعض الأنصار لذلك التمييز الذي آذاهم وسخطوه ، ولغطوا به ، فأقبل محمد عليهم ، يبين لهم ، ويستفيئهم إلى الرضا الذي خرجوا عنه :
 « إنما أعطى قوما حديثي عهد بالإسلام ، أتألفهم عليه . . أما ترضون أن ينصرف الناس بالشاء والبغير وتنصرفوا برسول الله إلى رحلكم ؟ . . »
 أما اليوم فالإسلام قد تم . والعدل استكمل قوامه ولا سبيل إلى تجزئته والترخص فيه . وهذه الحرب المشبوبة بين فريقي الأمة إنما اندلعت لتوطيد مثل الإسلام وقيمه قبل أن تندلع لتأديب جماعة من الخارجين على سلطان الدولة ، أو بسبب منازعة عامل صاحب الإمرة الشرعية سطوة الحكم والنفوذ . . . والذين سخطوا أيضا تصرف الرسول آنذاك إنما سخطوا انسياقا وراء عاطفة خرقاء حركتها غيرتهم من بعض قريش أن يحظوا دونهم بعطف محمد لا غضيا لشذخ مبدأ أو هدم قيمة . . فما جار رسول الله — حين فضل أولئك — على حق أحد غيرهم من الناس لا على حساب العدل ، ولا على حساب حق الأمة آثرهم من العطاء بمزيد ، وإنما جورا على حقه هو ، وانتقاصا من نصيبه الخاص أعطاهم إذ كانت الفضلة التي حباهم بها من خمس الخمس الذي شرعه له الله . فهل من ضير إذن أن ينزل عن حقه ، أو يعضه ، ليؤثر من شاء ، شاء ، تمسكينا لدين الله ؟ . .
 الحال ليست الحال .

ولمن أراد من بعد أن يمارى فليذهب صحيفة ابن أبي طالب أمامه ليرى أكان يؤثر نفسه بشيء ، أو يفاوت بين الناس في العطاء على المنازل والأجناس ، أو يرجى عنهم حقهم من المال ، أو ينقصهم منه . . .

. . . قال له غلامه قنبر ، يوما :

« يا أمير المؤمنين ، لقد خبأت لك خبيثا . . »

« وما هو ويحك . . »

قال :

« قم معي . . »

وانطلق به إلى داره فوضع بين يديه غرارة مملوءة من جامات : ذهبا .

وفضة ، وهو يقول :

« رأيتك لا تترك شيئا إلا قسمته ، فادخرت لك هذا من بيت المال . . »

فغضب ، وصاح بغلامه :

« ويحك يا قنبر ! . أردت أن تدخل بيتي ذرا عظيمة . . . »

ثم دعا بالناس ، فقال :

« اقسموه بالخصص . »

ومضى على الأثر إلى بيت المال فأخذ يقسم بينهم كل ما وجد فيه حتى وقع

على إبر ومسال جاءته من بعض عماله ، فدفعها للناس :

« ولتقسموا هذه . . »

قالوا :

« لا حاجة لنا فيها . »

فأبى أن يدعوها ، وقال لهم ضاحكا :

« ليؤخذن خيره مع شره ! . . »

ما كان ليؤثر نفسه بشيء على الناس ، وكان دائما يقول لهم :

« يا أهل الكوفة ، إذا أنا خرجت من عنديكم بغير راحتي ، ورحلى وغلامي ،

فأنا خائن ! . . »

وكان يخف دائما إلى تقسيم الأعطيات على الناس ، كلما اجتمع لديه منها شيء ،

ويكره أن يؤخرها عنهم ، كأنما يتأثم من إرجائها أو اكتنازها لهم إلى حين ،

ولا يهدأ له بال إلا حين يكس بيت المال كل جمعة ، ثم يصلي فيه ركعتين ، ويقول :

« ليشهد لي يوم القيامة . . »

ولم يكن يؤثر أحدا على أحد في القسمة ، لا ينزل وقدمه ، ولا بلون

وجنس . . أتته امرأتان ذات يوم ، إحداها من العرب ، والأخرى من الموالي ،

فسألناه . فدفع إليهما دراهم وطعاما بالسواء ، فقالت الأولى :

« إني امرأة من العرب ، وهذه من العجم . . . »

فابتسم وقال :

« إني والله لا أجد لبني إسماعيل في هذا الشيء فضلا على بني إسحاق ! . . . »

لمن أراد أيضا أن يعارى ، وقد وضحت له سياسة الإمام في القسمة ، أن

ينفض ثانيا جعبته ، ويتبين ما ملكت عين ابن أبي طالب ثم يطالبه أن يتألف

من فائض ماله المتذمر والساخط والمتطلع إلى زحارف الحياة . . .

لقد كانت نفقته تأتيه من غلته بالمدينة بينيع ، فيطعم الناس منها الخبز واللحم
ويأكل هو الثريد بالزيت . . .

ولقد دخل عليه مرة صاحب له فإذا بين يديه ابن حامض له ريح نفاذة من
شدة حموضته ، ومعه رغيف يابس طى وجهه قشار الشعير وهو يكسره ويستعين
أحيانا بركبته . فأذى الصاحب ما رأى ، وهتف بجارية الإمام يلومها :
« يا فضة ! . . أما تتقون الله في هذا الشيخ . . . ألا نخلم دقيقه ؟ . . »
قالت فضة :

« إنا نكره أن نؤجر ويأثم . . قد أخذ علينا ألا ننخل له دقيقا ما صحبناه . . »
ولم يكن طى ملقيا باله إلى الحديث بين صاحبه وجاريتيه حتى صكت سمعه كلمة
أو كلمتان من قول فضة ، فالتفت إليها يسألها :
« ما تقولين ؟ . . »

قالت تشير إلى صاحبه :

« سله . »

فاستبأه الأمر ، فأجابه :

« إني قلت لها : لو نخلم دقيقه . . »

فإذا الدمع يعلأ عندئذ عيني الإمام ، فيقول :

« بأبي وأمي من لم يشبع ثلاثا متوالية من خبز برحق فارق الدنيا ، ولم
ينخل دقيقه . . »

وقال :

« كان رسول الله يأكل أيبس من هذا » ولوح برغيفه . « وكان يلبس
أخشن من هذا » وأشار إلى ثوبه . « فإن أنا لم آخذ بما أخذ به ، خشيت
ألا ألحق به . . . »

ولقد قيل له ذات مرة ، وقد هال أصحابه إسرافه الشديد في ماله
بالصدقة والبذل :

« كم تصدق . . كم تخرج مالك . . ألا تمسك . . »

فكان جوابه :

« إني والله لو أعلم أن الله قبل منى قرضا واحدا لأمسكت . ولكنى والله ما أدرى أقبل منى شيئا أم لا . . »

أجل . لمن أراد أن يعارى بعد هذا فليفعل ! فأما والرجل هو من هو فى عدله ، وفى تسويته بين الناس على اختلاف الأنساب والأحساب وتباين الألوان والأجناس ، وفى ييس مأكله ، وخشونة ثوبه ، وخشونة حياته ، وعزوفه عن العرض ، وخروجه دائماً دائماً عن كل فضلة من ماله — إن لم يكن ماله كله إلا فضله — فإن السبيل بمد هذا إلى اصطناع الأنصار واستمالة الرقاب من بيت المال جوراً على حق غيرهم من الأمة ، وافئساتاً على العدل العام ، فهو الترخص الذى يأباه خاتمه ، وترفضه سجاياه إن لم يكن الدنية التى تحرمها شريعة الله . . .

لم يجتمع له ما أمل أن يكفي اللقاء الحاسم . البصرة تناقلت . والكوفة تناقلت . والأيام وهي تمر تزود عدوه بزيادة الإعداد ، وتحرمه هو فرصة المبادرة كما تحرمه سرعة الحركة والأقوال بعد هذا تشيع في جنوده بأن التريث إلى حين أولى وأتق . والسير إلى الخارجة — قبل الشام — تأمين للظهر ، ومسد للمورة ، وجنة تقيهم كسرة مفاجئة من أولئك المتربصين عند النهر ، على عتبات البلدة ، ينتظرون خلوها من حماها ليعملوا فيها السيف ، ويركبوها بطغيانهم الذي يهمون أن ينفثوه كالسموم

وهو لا ينكر عليهم خشيتهم . ولكنه ينكر عليهم أنهم جسموا أمام أبصارهم وبصره هذه الخشية حتى بدت كقارعة . وأنهم ركبوها مطية للتوصل من دعوة السير لقتال عدوهم الأول . وأنهم ستروا خلفها ثبوتهم فقعدوا ولم يصرفوا جهدا مذكورا للتجهز للحرب . وأنها أسلحتهم إلى دعة رخية استعراوا معها طعم السلم ، حتى جرى في دمائهم كمخدر ، فتر الجوارح كما فتر اللحم ولقد كانت ثمة طائفة منهم ترى رأيه ، وتتعجل اللقاء الأكبر تعجلا للأمن الأكبر ، ولكنها كانت قلة يكاد صوتها يغرق في أصدااء لفظ التريث وضوضاء الإرجاء

وما كانت متطيرا إذ أنكر . ولا كان متعلقا بوهم صورته بمض البوادر . لكن النظرة المحيطة بالظروف التي رسمت الموقف ، وبالاتجاهات التي راحت تسوقه إلى عاقبته المرهوبة هي التي أنجبت قلقه . فالكسة قد بدأت منذ فتنة المصاحف في صفين . بدأت إشفاقا من استعمار القتل . ثم ملأ من القتال . ثم ميلا إلى الدعة ، ثم استسلاما للواقع . ثم تنكرا للقيم التي شبت هذه الحرب — حين شبت — اتجاوها وتذهب عنها بالنار صداً البهتان وهذه الخارجة التي خرجت عليه هي نبتة هذه الفتنة . والانتقاض عليه في التحكيم جذعها . والتقاعد في البصرة وفي الكوفة بعض فروعها . أما عمرها المر فالقدر يدخره إلى حين

ولقد أسف لحال القوم . بقياسه العدل أسف من أجلهم لا منهم فإنه

لصاحب رسالة لا صاحب دنيا ، لا يضيره أن يموت دون رسالته وإعنا يؤسفه أن
تموت دونها القلوب . وأن يملو سلطان الدنيا على سلطان الحق . وأن تنهاوى
النفوس تحت ضغط أدرانها إلى الرغام . . .

وفي بعض ومضات الرجاء التي كانت تتسرب إلى نفسه ، وتلقى بأثر شعاع
على الموقف الداكن ، مضى يخاطب أهل حاضرتة وإنه لمشفق الإشفاق كله على
رجائه أن يذوب في الظلمة ، وعلى أولئك المحتشدين أمامه من وقر السمع وعشا
البصيرة . . . ولكنها على أى حال محاولة جديرة بأن تكون . والطبيب دائماً
يقدم الفأل وإن ملأته مظاهر الداء وعلاماته بالشؤم والتطير . . .

قال يهيب بالقوم :

« يا أهل الكوفة . . أنتم إخواني وأنصاري ، وأعواني على الحق ، وصحابتي
على جهاد عدوى المحلين ، بكم أضرب المدبر ، وأرجو تمام طاعة المقبل . . وقد
بعثت إلى أهل البصرة فاستنفرتهم إليكم ، فلم يأتني منهم إلا ثلاثة آلاف ومائتا
رجل . فأعينوني بمناصحة جليلة خلية من الغش . . إني أسألكم أن يكتب لي
رئيس كل قوم ما في عشيرته من القاتلة ، وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال ،
وعبدان العشيرة ومواليهم ، ثم يرفع ذلك إلينا . . . »

فاستقبله أشرافهم بالقبول . بادر سعيد بن قيس الحمداني ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، سمعنا وطاعة . . أنا أول من أجاب . . . »

وثنى معقل بن قيس . ثم عدى بن حاتم ، فزياد بن خصفة ، فحجر بن عدى ،
فغيرهم ، يسابقون إلى تلبية الدعوة . وما لبثت قوائم الجند أن توات ، تتبعها
الجنود المصطفة في العدة والجهاز حتى بدا كأن الأمر قد عاد سيرته الأولى ، وبلغت
الأنفس ذروة الولاء والأهبة للفداء . . .

لكن القلوب لم تكن — مع هذا كله — مجمعة الرأي على « القصد »
وإن أجمعت — فيما يلوح — على الوسيلة . إنهم لا يرفضون القتال ، وإعنا
يختلفون في « موقع » الحرب ، وفي « العدو » الذي له تجهشوا وتسلموا وإليه
هموا أن يغذوا السير . . إلى النهر أم إلى الشام ؟ . إلى الخارجة أم إلى
معاوية ؟ . أم هي حرب تأمين جزئية على عتبة حاضرتهم ، أم هي حرب فاصلة

حاشية تنقض على الغريم الأكبر وتردع بقمعه والقضاء عليه كل من وراءه ومن دونه من الشاغبين والمخالفين ؟ . . .

الحشية من الخوارج ظلت تخايل السكثرة منهم ، وتلح عليهم الإلحاح الذى يترك الرأى وهو شذيت . والهمس يتطاير . والجرس يعلو . والجدل بينهم يعمل ويشور . . . ولم يكتفوا رغبته ، وإنما تداولوها فيما بينهم ، صريحة ، بلا تحرز ، ولا مواربة :

« لو سار بنا إلى هذه الخارجة ، فبدأنا بها . . . »

فكأنما لهم الأمر . وكأنما السنة فى الجيش — أى جيش — أن يختار الجند أنفسهم لأنفسهم الموقع والخطوة والعدو والحركة وساعة اللقاء لا أن يصغوا للرأى قيادة هى التى تزن وتنظم وتخطط وتوجه وتدير المعركة فى المكان والزمان اللذين تراهما كفيدين بالنصر . . .

أم لعلها أمنية خالجتهم ؟ . . . إن تكن هذه أو تلك محاولتهم عندئذ قد شككت « ضغطا » على أميرهم يستمد القوة من رغباتهم وبدع السبيل مفتوحا إلى النيل هونا من معنويات الجيش لو جاء السير على غير ما يشتهون ، ثم يضع قيادا على حرية قائدهم فى التصرف والحركة وهو يستعيد فى باله ، عند كل خطوة يخطوها ، ما قد طالعوه به ، ويحسب له كل حساب . وإذا ما اختلفت النظرة بين الجند والقائد فالطاعة خليقة بأن تتقلقل ، والنظام حرى بأن يضطرب ، واتجاه الالتزام يغدو أدنى إلى انعكاس خطه الطبيعى فيتسنى التابع وينزل المتبوع !

وتحرك الإمام ثانية يحاول أن يحد من شططهم هذا الذى يوشك أن يقترب بجيشه من الفوضى والاختلال وانقطاع النظام إن لم يقارب الخروج والتمرد . . . قال وقد جمعهم لبحث الأمر :

« . . . قد بلغت قواكم لو أن أمير المؤمنين سار بنا إلى هذه الخارجة التى خرجت عليه فبدأنا بهم فإذا فرغنا منهم وجهنا إلى الحلين . . . »
فدارت عيونهم بينهم مليا وإن فكرتهم تلك مستدور أيضا دورانها فى الأخلاص حول محور الرغبة . . . لكن كلماته القلائل التى سرى فى نبراتهما جرس الإباء ولهجة القطع ، خلفتهم على تربص ، ينظرون . . .

وأكل :

« .. إن غير هذه الخارجة أهم إلينا منهم . فدعوا ذكرهم ، وسيروا إلى قوم :
يقاتلونكم كما يكونوا جبارين ، ملاكا ، ويتخذوا عباد الله خولا ... »
ولم يأتهم قوله بحجة جديدة ، ولكن شيئا من هيئته — فيما أحسب — قد
وقع إذ ذاك في قلوبهم حتى أنساهم منطقهم ، ودفعهم — أو دفع كثيرهم الغالبة —
افتتاناً بشخصيته ، إلى الانصياع ...

وتنادوا من جوانب الجمع :

« سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت ... »

ونهم صيفى بن فسيل الشيباني يفصح عن تأييده :

« يا أمير المؤمنين نحن حزبك وأنصارك ، نمدى من عاديت ، ونشايح من

أناب إلى طاعتك ، فسر بنا إلى عدوك من كانوا ، وأينما كانوا ، فإنك إن شاء الله
لن تؤتى من قلة عدد ولا ضعف نية أتباع .. »

وعقب بعده محرز بن شهاب التميمي :

« يا أمير المؤمنين ، شيعتك كقلب رجل واحد في الإجماع على نصرتك ،

والجد في جهاد عدوك ، فأبشر بالنصر ، وسر بنا إلى أى الفريقين أحببت ،
فإننا شيعتك الذين نرجو في طاعتك وجهاد من خالفك صالح الثواب ، ونخاف
في خذلانك والتخلف عنك شدة الوبال .. »

أفكان هذا هو رأى الجمع قد ساقه بعضهم عن اقتناع أم كان وليد عاطفة
عارضة ، وحماسة طرأت والإمام حيالهم يطالعهم بنظرته ؟ .. إنك حين زن حقيقة
الإجماع على اتجاه لا بد أن تعرف إلى أى مدى أضرته معارضة كانت لا تؤمن به
منذ حين ، لتصفو أمامك مرآة الواقع ، وتعرف إلى أين ذاك الاتجاه . لكن
الذين مالوا إلى « تجميد » حرب الشام ، ولم تسعفهم طبيعة الموقف بالمجاهرة
بالتجميد — نأيا بأنفسهم عن مواقع الزيف والشبهة — تستروا هذه اللعظة
بالصمت ، لا يقرون ولا ينكرون . فيحسبهم أن يدعوا القوم وما هم فيه وإنهم
يمهلون أن عمر الحماسة قصير . وبحسبهم أنهم قد حرثوا لهذا التجميد تربة صالحة
منذ الموادعة في صفين . وبحسبهم أن استطاعوا شغل الأذهان بالعدو « القريب »

التربص على عتبة بلدتهم ملقين في روع الناس أنه أولى بتعجيل سحقه من عدوهم « البعيد » الآخر ، الذى يجنهم عنه بعد الشقة ، وإيثاره السلامة داخل حدوده ، وميله المعروف إلى التمسك بهذه الهدنة العارضة ، إلا أن يخرج من قوقعته سيرهم إليه . . .

فى هذا الاجتماع لم ينطق الأشعث . وما كان لينطق حتى لا يشى به ميل نذره منذ البدء لكف الحرب عن معاوية وعن قومه الحمية الذين لاذوا به وآزروه . إنه لينكر — لا شك — ما جهر الناس به من وجوب تقديم السير إلى الشام على السير إلى النهر ، ولكنه يرجى إنكاره ، ويدخر الجهر برأيه حتى تخف فورة الحماسة العارضة ، وينعسر المد ، وتتكشف الأحداث عن ظروف أصلح لانطلاقه . ولا أيسر عليه عندئذ من تصيد الأسباب والدواعى ، ولا أيسر أيضا من انحرافه بالاتجاه العام إلى وجهته الخاصة التى مهد طويلا طريقها والنفوس جميعا مشحونة بما يعطفها إلى متابعتها حيث يريد أن يسير . . .

ولم تبخل عليه الأحداث بما شاء . فما أسرع ما جاءت الأنباء بسوء سيرة الخارجة — حيث ارتحلوا وأقاموا — فى الناس ، واقترافهم ألوانا من الفساد بعدوا بها عن كل متوقع من أمثالهم ذوى الجباه السوداء ، المنتسبين للورع والتقوى ، المتشبهين بحرف القرآن . . .

وكثر القالة فيهم . فهم يعيشون فسادا فى الأرض . ينشرون الإرهاب ، ويشيعون الدعر ، وينتقصرون الأمن ، ويكثرون القتل . ولا كت الألسن ما اقترفوا ، ووجد الكثيرون فيه سندا لتوجسهم منهم ، ودواعى للتعجيل بقمعهم . وتزيد — لا ريب — أناس فيه ، وجسم خطره آخرون . وما يستطيع أحد أن ينكر أن الخارجة قد جنحت إلى الشطط فى سيرتها بالنهر ، فدأبها الشطط دائما — منذ نجمت — فى كل ما أصدرت عنه من فعل أو قول . ولكننى أحسبها قد رأت ، أو رأت بضعة منهم ، أنهم خليقون أن يوطدوا بالشدة هيبة أقاتهم فى مقامها ذاك ، كفيلة بأن تردع عنها كل ساخط دعوتهم ، مستهين بشأنهم ، طامع فيهم ، وأن تفى بهم إلى شىء من طمأنينة يموزهم فى معتزلهم الذى اختاروا إذ تشعرهم أنهم هم الأعلون فى مجتمعه الجديد وترضى غرورهم وكبرياءهم .

غير أنها في الحق ليست سوى شدة المذعور الذي يتوهم الخطر في كل حركة ،
 لا شدة القادر القوى المدل بالسطوة . وحين نستقرئ ما اقترفوا نكاد نتيين فيه
 صوراً من أهواء متفرقة اتخذت مظاهر من السلوك الفردي المنحرف الذي يدل
 على القلق النفسى واختلال التقدير قبل أن نجد فيه لونا من « العدوان الجماعى »
 الصادر عن وحى تصرف عام . فلم نرهم ، بعد محاولتهم دخول المدائن ، قد أعادوا
 الكرة ، ولا حاولوا اقتحام بلدة محاولة فتح وغزو ، ولا أغاروا بإغارة منظمة
 شاملة على مكان مأهول . ولم نألف منهم ، منذ خرجوا خرجتهم من الكوفة
 والبصرة ، إلا سير التخبط المضطرب الذى ينطلق عفوا عسى أن يجد المأمن ،
 أو يجد نصرا لا يتوقعه ولم يعد له . ولقد كان قصار انهم أن يتستروا بالليل ما وسعهم
 التستر ، وأن يفروا من اللقاء ما وسعهم الفرار . فعلوا هذا حينما انبرى لهم سعد
 ابن مسعود وقد لقيهم عند موقع الكرخ ، فلم يستقبلوه استقبال قوة لقوة ، بل
 ناوشوه المناوشة التى تدنيهم من الليل ليتخذوه سربا للهروب . وفعلوه أيضا حين
 تبعهم أبو الأسود الدؤلى عند الجسر الأكبر ، فتحاموه بالظلمة ثم أدلجوا
 هاربين . . . فهم إذن موقنون بعجزهم عن مواجهة حرب سافرة ، عليمون بأن
 قوتهم ليست بالثابت فى قتال جاد . أو هم — فى القليل — لم يجعلوا من
 القتال فى آوتهم ملك وسيلتهم إلى مأربهم ، ولا وضعوا لأنفسهم خطة تعتمد عليه
 وتكون السبيل لتنفيذ سياستهم . ولعلمهم قد شاءوا الاعتزال إلى حين . ولعلمهم
 قد أرجأوا الحرب — إن كانوا بيتوا عليها النية — حتى يشتد ساعدهم ، ويكثر
 جمعهم ، ويزودهم الوقت بزد جديد من النصر ، أو يكرهوا عليها حتف الأنف
 فلا يصبح لهم عنها محيص . . . فإذا نحن بعد هذا استنبأنا دخالهم ، لا يعسر أن نجد
 التردد بحكم خطاهم ، ويكبل سلوكهم ، ويعوق أمانهم أن تتمثل حقيقة
 حية تدب فى دنيا الواقع على قدمين . . . فمعروف أنهم لم يسلموا من تلوم ما فتشوا
 يستشعرونه ويتناولون أنفسهم به لأن موقفهم إبان صفين حين دعوا إلى الاحتكام
 للقرآن هو الذى فرخ الفتنة . ومعروف أنهم الآن يعتقدون نفس نظرية على
 ويرون مثله وجوب المناجزة معاوية وإن كانوا قد شاءوا لهذه المناجزة أن تقع
 قبل التحكيم . ومعروف أنهم يؤمنون بأن الإمام على شاكلتهم رجل دين من أهل
 القرآن وغريه رجل دنيا وضلال . . . وقوم شأنهم كهذا خلقون — عند

سير الأمور وإيمان النظر — أن يقتحم الدخل عليهم ثوابهم ، وتحيط الشبه
بمداخل سلوكهم ، ثم يتهونون في حيرة . . .

ومع ذلك فالكوفة استكثرت ما اقترفوا في النهر كأنما وزنته بغير ميزانه ؟ . .
من بينها أناس أفضهم التصرف . ومن بينها أناس رأوه كارثة . ومن بينها
أناس تبينوه خطرا ليس بعده على الدولة خطر ، يهون دونه خطر الشام بانشقاقها
على الأمة وبجيشها النظم ، وبجندھا المجوز بخير عتاد وزاد . . فإذا نحن قسنا
بمقياس سليم تكلم الجرائم التي ارتكبتها الخارجية وهالت الكوفة هذا الهول
الأكبر لكان حقا لنا أن نعجب لهذا الهول وننكره ، لأن المقدمة لاتعجب هذه
النتيجة ، ولأن شواهد الحال تأبأها . فمن المحال أن تبني الصرح الشامخ على الرمل
ولا ينهار إلا أن تمد له دعامة ركيئة تذهب تحته في الأرض إلى أبعد غور لترتكز
على الصخر ! . .

فما هي إذن تكلم الدعامة ؟ . . ما هي القوة التي آزرت هوان جرائر أصحاب
النهر فأكسبتها أبدا جعلها الهول الأكبر ؟ . .

إنها الدعوة إلى الفرع . . فلقد كانت ثمة لاريب دعوة صاحبت هذه الجرائر
ونفخت فيها ، وأزكتها نارا مدمرة . . وما أريد هنا أن أسمى داعية بذاته قد
آثارها ، وتنادى بها بين الناس . ولكنني لا أستطيع في هذا المجال أن أبرئ
الأشعث بن قيس وشرذمة أخرى على شاكلته من التشديق بالخطر الموهوم ،
وتغذية أنباء الجرائر بما ينميها ويفظعها على النفوس . فالرجل وشرذمته أهل
موادعة . وهم لا يشاءون لأنفسهم أن يظهروا منكرين للعرب حتى لا تأكلهم
الأسن . ولقاء الخارجية رده لهم من شبهة التثييط والتخلف . والبلدة قبل هذا
وبعده أكرث القول في الخطر المتربص على عتبتها ، فحديثهم إذن عنه ، ودعوتهم
لوأده ، لن تنفر منها أذن ، لأنها تسير الاتجاه العام . .

بغريزة القطيع التي حركتها صيحة الفرع انحرفت الكوفة إلى هذا الطريق
الجانبى ، وانطلقت منه مشحونة بم عاطفة مضللة . بهلع موهوم ، بظل خطر ؟ . .
أما الدعوة الحققة . فمع معاوية . السير إلى الشام ، فقد غدت همسا لا يكاد تنفرج
عنه الشفاه حتى يذوب في صياح القطيع ! . .

٢

قصه الفزع الأكبر الذى عم الكوفة كانت ملهامة . بلية مضحكة . فهههه عالية الرنين أطلقها القدر ليردد صداها رعودا مدوية فى آذان القوم نزلزل جلدهم ، وتهز ثباتهم ، وتدفعهم يثلفتون رعدة وقلقا فلا تثبت لهم قدم ولا يستقر حلاق ... إنها للفزع من خيال . من ظل يتحرك بليل .. أصلها واه ، وباعثها واهن ، وعقباها المنتظرة أو هن على أى امرئ يتجرد من التأثير بطبائها الأجوف ، ويحاول على روية أن يتلقاها بالتأمل والتفكير . لكننا الحصة الصغيرة توشك ألا تنال شيئا من نهر يتدفق ، ولكنها حين تلقى فى مائه تستطيع أن تفرقه ، وتحيل سطحه من حولها دوائر ودوائر لا تزال تتسع وتتوالى ، ثم تتسع وتتوالى ، حتى تمس بأقواسها المترامية شاطئيه ...

المخبر هين ، والمظهر يهول ... فالخارجة فعلت . والخارجة عاثت . والخارجة قتلت . والخارجة لم تدع شيئا يقطع إلا كانت لها وراءه أصبع ... ومع هذا فإن وقائع الحال التى دونها الزمن فى تلك الحقبة وضمتها الأسفار لا تطامنا بغير « عصابة » من الخارجة كانت هى التى أنت بما رج النفوس وشق على جلد الناس بالكوفة حتى تركهم فى صورة تخللها وغشاها ضباب الدهول حتى انوشك أن تراهم جلودا تنضج بالجزع بدل العرق ، ومناخر تنفث الخوف بدل الزفير ، كأعما الجوكلة حولهم قد استحال بهوائه وهبائه ذعرا خالسا لا مكان به لطمأنينة ... الحصة الصغيرة فرقت الدوائر ، ووسعتها ، ورفعتها الواحدة فى إثر الأخرى أمواجاً تترى . وتسبح ، لتضرب بخطوطها السارحة كل جواب البلدة الهلوع ...

ولقد لا ننسى هنا أن خطة الخوارج ، منذ بارحوا منازلهم فى البصرة وفى الكوفة ، كانت الانطلاق على استخفاء إلى منتجعهم الجديد . . فرادى انطلقوا ، أو سراذم صغيرة — بأوسع تقدير — نزولا على وصية صاحبهم زيد ابن حصين إذ نصحهم قبيل الرحيل :

« إن خرجتم مجتمعين اتبعتم . ولكن اخرجوا ، وجدانا ، مستخفين . »

ولقد لا ننسى كذلك انهم رأوا أنفسهم أهون من العصف بالمدائن واقتحامها على حمايتها فآثروا الابتعاد عنها ، والانحراف بعيدا إلى موضع آخر مأمون ، عند جسر النهر وان .

لا ننسى هذا وذاك . ولا ننسى انهم وعوه وفعلوه لأنه يتفق وطبيعته الوضع انكى كانوا عليه ، والتستر الذى آثروه ، والخشية أن يجتذب أى « دنو » لهم من أرض مأهولة ، أو أى « تجمع » قد يضمهم أنظار الناس ، فيستقبلهم مناوئوهم بمقاومة لا قبل لهم بها فى وقت ما نراهم هياوا فيه أنفسهم للقاء جاد ... فهم إذن قد مضوا وحدانا ، أو مضوا شراذم صغيرة مفرقة ، من بضعة نفر ، لو استبحنا التجاوز إلى هذا التقدير . وهم إذن قد جانبوا المدن والبقاع المأهولة التى قد لا ينجم دنوهم منها من مصير يرهبونه ، ويحرصون كل الحرص على تحاميه . وهم خليقون بعد هذا — وقد عسكروا عند النهر — أن يلزموا نفس سياستهم فيسكون تنقلهم أيضا فرادى ، أو مثنى وثلاث ، أو عصابات — مهما تعدد نفر الواحدة منها فلا نظنه يجاوز أقل القلة — إننا نعلم ظروف حياتهم اليومية الجديدة إلى التنقل من مكان لمكان ، بحثا عن زاد ، أو كشفا عن موقع ، أو عسا لتبين مكن من مكامن الخطر ، لأنه لا يعقل قط أن يسيروا بجمعهم الكامل : أربعة آلاف ، ولا بنصفه ، ولا بعشرين مئتين . .

« عصابة » من جماعة الخارجة — كما حدثتنا الأخبار — هى التى قارفت تلكم الجرائر التى أشاعت الذعر فى الكوفة وبهرت الأنفاس . عصابة من نفر قد يبايعون العشرة عدا ولكنهم لا يجاوزون الأربعين مهما مططنا نطاق التقدير . ولم يكن فعلها — فيما يروى — عن إعداد مرسوم ينبىء عن اتفاق كافة الجماعة عليه ، ولكنه كان عفوا لحظته ونتيجة حبطة عشواء . . فلقد جاء فيما روى عن فعلتهم أن خارجة البصرة أقبلت حتى دنت من إخوانها بالنهر ، فخرجت « عصابة » منهم ، فإذا هم برجل يسوق بامرأة على حمار ، فعبروا إليه ودعوه . وما أدرى فيما كانت الدعوة . ولكن لعلهم خشوا أن يكون عينا عليهم فرأوا أن يتثبتوا لأنفسهم . . . ويبدو أن أمرهم أزعجه ، وقد كانوا لا ريب إذ ذاك فى السلاح ، فاضطرب وسقط عنه بعض ثوبه على الأرض . وعندئذ أرادوا التهوين عليه . .

سألوه :

« من أنت ؟ . . »

قال وهو يلتقط ثوبه ويلتقط معه أنقاصه :

« أنا عبد الله ، بن خباب بن الأثر . . »

« صاحب رسول الله ؟ . . »

« نعم . »

« لا روع عليك . »

فاطمأن هونا .

وعادوا يقولون :

« فحدثنا عن أبيك بمحدث سمعه من النبي لعل الله ينفعنا به . . »

فتفكر مليا ، ثم أجاب :

« حدثني أبي عن رسول الله أن فتنة تكون ، يموت فيها قلب الرجل كما يموت

بدنه ، يمسى فيها مؤمنا ويصبح كافرا ، ويصبح فيها كافرا ويمسى مؤمنا . . »

فما كان أغناه عما قال . . ما أحسبه إلا قد نكأ بالحديث قرحة نفوسهم

وأدمأها . ألم يطف به حول حالهم ، والفتنة الواقعة ، وتذاؤبهم فيها من القيض

إلى النقيض حتى ليرون مرة الإيخان في التحكيم ثم يرون فيه الكفر والفسوق ؟ . .

وكأنما أحسوا أن الرجل قد شاء غمزهم والتعريض بهم ، فعاجلوه وإنهم

ليحبسون غضبهم خلف نواجزهم :

« لهذا الحديث سألتك ! . . »

ثم أردفوا لهتكوا خبيثة صدره :

« فما تقول في أبي بكر وعمر ؟ . . »

فأثنى عليهما خيرا .

فسألوه ثانية :

« وما تقول في عثمان ، في أول خلافته وفي آخرها . . ؟ »

فأثنى كذلك .

فسألوه ثالثة :

« وما تقول في علي قبل التحكيم وبعده ؟ » .

فلم يتردد ، وأجاب :

« إنه أعلم بالله منكم ، وأشد توقيا على دينه ، وأنفذ بصيرة . . »

وواضح من حركة الحوار ، مده وجزره ، أنه لم يكن مجرد سؤال وجوابه ، بل الأغلب على طابعه أنه كان نقاشا بينهم وبين الرجل ، يحاجونه فيه بمنطقهم ويحاجهم بمنطقه أو المنطق الذي كان عليه — عداهم — جمهور الناس ، ثم لم يصلنا منه إلا نزره وهو هذا النثر . فما كان لسؤال — أي سؤال — بادروه به في مثل هذا المقام أن يحمله على الإجابة عليه إلا بقدر مقدور . بما يلزم . بعبارة هينة « مسطحة » ، بلا بعد ولا غور ، توصل وراءها الباب فتكشف فضولهم عنه ولا تغريهم بالملاحقة والإلحاح . فأما وكلمات ابن خياب ذات عمق وأبعاد ، بما حوت من وصف حالهم ، وتعرض بهم ، ونقد أفعالهم ، وإعلاء انظرة على نظرتهم ، فإنها إذن الكلمات الخليقة بأن تجيء خلال جدل لا خلال استفسار . . وكذلك حتى غضبهم عليه . أشعلته صراحة الرب ، وخوضه في شأنهم ، فاحترقت نفوسهم حقدا وموجدة ، فإذا بهم يخاضونته :

« إنك لست تتبع الهدى . . إنا تتبع الرجال على أسمائها . . »

ونظروا إلى مصحف معلق في عنقه ، وقالوا :

« إن هذا الذي في عنقك ليأمرنا بقتلك » .

فلم يزد على أن أصابهم بسكينة الإيمان :

« ما أحياء القرآن فأحيوه ، وما أماته فأميتوه . . »

قالوا :

« والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحدا . . . »

وانقلبوا عليه يعنفون به وهو مستسلم صابر . فشدوا وثاقه ، ثم أقبلوا به وبامراته وهي حبل ممت ، يسوقونه إلى مصيره . ونزلوا في طريقهم تحت نخل مواقر ، فسقطت رطبة منه ، فأخذها رجل منهم فوضعها في فيه يهم أن يلوكها ، فإذا صاحب له يصيح يزجره :

« بغير حلها ، وبغير إذن . . »

فلفظها ولد تمسها أسنانه توقيا للعرام . . .
ومر بهم خنزير فقتله آخر . فأنبكر عليه رفاقه فعلته :
« هذا فساد في الأرض ! »

وعوضوا صاحب الخنزير — وكان من أهل الذمة — عن دابته المرداة بما
أرضاه . . .

ويبدو أن هذه اللامعات المشرقة من سلوكهم قد خدعت ابن خباب عن حقيقتهم
وزودته من الأمل بزاد ظنه بشيرا بنجائه . فما هو أن رأى منهم التقدم على ما قرط في
الرطوبة ، وفي دم الدابة ، حق استبشر ، وقال بصوت خفيض كأنما يهمس لنفسه :
« لأن كنتم صادقين فيما أرى فما على منكم بأس . إني لمسلم ، ما أحدثت حدثا
في الإسلام ، وقد أمتعنوني . . . »

فإذا هو لا يكاد يكمل الهمس حتى يبادروه بنقيض ظنه . . .
قتلوه ! . . .

أضجعوه على حافة النهر وذبحوه ، فسال دمه يلون صفتحه في خطوط وقطرات
كأنما يخطط قصة وحشية رهيبة . ثم جاءوا بامرأته على الأثر يجرونها إلى ما أعدوا
لها من جزاء لا يستقيم إلا في شريعتهم الحقاء .

وصرخت المرأة الملتاعة فيهم ، بكل أسى قلبها الجريح :
« ألا تتقون الله ! . . . »

فما ردهم عنها شيء وأن زارت ، وولولت وذكرتهم بقيم العدالة والرحمة .
وأنى لهم أن يدعوها وإنهم لا يرون رحمة إلا في عدلهم الخاص ، ولا عدلا إلا
في سنتهم ، ولا تقوى وتمسكا بأهداب الدين إلا في إنفاذ مشيئة هي نتاج زواج
حرام لأنفس مهزوزة من عقول مكزوزة . . .

وأتبعوا الرجل امرأته . فبقروا بطنها عن جنينها ، وألقوا بهما إلى جواره
سلبا هشيا لهذه الغزاة . . . ثم قتلوا نسوة ثلاثا أخريات لعل أحدا لا يدري بأية
جريرة إن كان لا مناص عن تقصى الأسباب لكل بدوة لأولئك الخارجة تربط
التأجج بالمقدمات . . . ولكنهم إذ فعلوا ، إنعا استشعروا لا ريب طمأنينة وراحة
وقد شدتهم نظرتهم المتعصبة إلى إيمان موهوم يروم ، ويسيطر على أحاسيسهم
فيدفعهم إلى الثقة بأنهم يفعلهم هذا قد استأدوا حق الله ! . . .

معالم على الحبال . . . معالم تظهر إلى أى مدى كان القوم من جمود الضمائر واختلال التفكير . . . فلائن يأكل أحدهم وطبة بغير حلها ، ولأن يقتل آخر دابة بغير عُنها ، فإن هذه أو تلك لهى كبيرة الكبار ، والحرام الذى ليس بعده فى صفحات الآثام حرام . . . أما أن يذبحوا مؤمنا ، ويقطعوا جنينا مخلقا ، ويقضوا على طائفة أخرى صبرا أو غدرا وما تولتهم بسوء ولا قارفت جريرة ، فهذا هو الحلال البين الذى لا يريثهم عنه تلوم ولا يردهم تخرج ، ويقبلون عليه خفا سراعاً بالنفس الراضية المطمئنة والصدر المبسط المشروح . . .

فما هى آفتهم ؟ . . . ما بلواهم ؟ . . . ما هو الداء الذى أصابهم ؟ . . . إنه الغلو !.. الغلو الذى يقتحم بهم كل معقول مقبول . التعصب الذى يورث الهوس فيشرد بالعقل عن كل سوية وقاعدة وقانون . الجنون الذى يشل التفكير ويمحق سلامة التقدير . .

إن سلامة النظرة فى أمر — أى أمر — هى التى تهب القدرة على وزنه حق الوزن بغير إفسار ولا تطفيف . وعدالة الميزان هى التى تجىء بصحة التقويم . وهذه الصحة بدورها هى التى تحدد قدر الأمر من ثمن ، أو تبعته من جزاء . . .

غير أن الحارجة — فيما بلوناهم من قبل ومن بعد — كانوا أناسا يفتقرون إلى حاسة التمييز التى تصنع الاتزان . . كانوا فرقة على شبهة . كره البصائر . عقولا مضطربة ، وقلوبا غلغا ، وضمائر مألوسة . . يتذاءبون دائماً بين عين ويسار ، وخلف وأمام بغير ثبات تذاؤب الدبالة المريضة كلما لعبت بها نفخة نسمة من هنا ومن هناك . يعرفون القلق ولا يعرفون القرار . لا يقفون عند مبدأ ، ولا يشبتون على رأى . إنما لا يزالون يتأرجحون بين الأمر وتقيضه من لحظة للحظة ، ثم لا يعوزهم فى الإقبال ولا فى التراجع منطق أخرق يؤيد كل بدوة تسوقهم إلى اقترافها أيا فكرة عارضة . الصواب دائماً فيما يأتون وإن كان من قبل خطأ لفظوه إذ ذاك وحاسبوا عليه الناس . والخطأ فيما ينبذون وإن كان من قبل صواباً طالما آزره وناضلوا عليه . النور أبداً على خطاهم . والحق أبداً ظلهم أينما تولوا ومالوا تولى ومال . فالذين يخالفون عن نظرهم ، وينبرون لنقدها وزنا بميزان المنطق هم الخطاءون المارقون وإن كانوا المسلمين جميعا ، وإن أيدتهم فى محاجتهم عبرة الماضى ، وشواهد الحال ، وقوة التدليل .

هذه كانت نظرهم . ومن لم يعتنقها فهو الآبق الخارج من دائرة الحق وحظيرة الدين . فكل مسلم — عداهم — ضال لأنه عارضهم يوم ظاهروا ورفع المصاحف وأبى قبول دعوة التحكيم . وكل مسلم بعد هذا — عداهم — ضال حين رجعوا عن رأيهم هذا ، وشاءوا نقض ذلك العهد الذي تاضلوا على قبوله ، ثم أبرموه ، ثم ألزموا به عليا وأصحابه ، ثم ارتدوا عنه متنادين : « لاحكم إلّا الله ! » . وإذا كانوا قد أقروا على أنفسهم طواعية بالكفر إذ قبلوا الحكومة ثم تابوا عن القبول ، فكيف نعتيهم من رؤية « الردة » التي كابدوها ، في قلوب أبناء الأمة الإسلامية جميعا الذين لم ينقضوا عهد الحكومة وثبتوا عليه — وفاء — إلى أجله المكتوب ؟ ..

« الردة » هي القضاء الذي قضوا به على كافة المسلمين . و « التوبة » — بعد الاعتراف بالكفر — هي الخلاص . ومن لم يعصم قلبه بهذه التوبة التي يفرضونها فليس جديرا بأن يكون في صف الإيعان ، ولا بأن يوقى جزاء ارتداده ، ولا بأن يعصم منهم دمه وماله وولده لأنه عندئذ أعقى شركا بمن لم يذق قط طعم الإيعان .. أما جب الإسلام الشرك ؟ .. أما برىء الله ورسوله من المشركين ؟ .. أما قال في محكم تنزيله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد » ؟ ..

زرعة بن البرج قال للإمام مرة :

« أما والله يا على لئن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله قاتلتك ، أطلب بذلك وجه الله ورضوانه .. »

وعبد الله بن وهب قال لأصحابه قبيل مخرجهم من الكوفة ، يحثهم على هجرة في الله حتى تعلو كلمته :

« .. اخرجوا بنا — إخواننا — من هذه القرية الظالم أهلها ، منكرين لهذه البدع المضلة ... »
وقال لهم :

« إنكم أهل الحق .. »

وحكيم بن عبد الرحمن بن سعيد التبانى ، قطع ذات يوم على أمير المؤمنين خطبته بالمسجد ، وصاح به :

« ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك
واتكونن من الخاسرين » - ١٧ - »

فالدعوة إذن للحكومة — في رأيهم — شرك والحكومة شرك . والرضا بها
شرك . ولقد قال الله قولته فيمن يشرك وأبرم جزاءه فلا مناص لهم من التزام
قول الله ، واتباع أمره وإنفاذه . فمن أولى إذن في الناس بإعلاء كلمة الله ، والأخذ
بحقه ، ممن قارفوا الكفر فزعوا عنه ، وعرفوا الإيعان فثابروا إليه ؟ ..

لا سواهم ! .. وإنهم لو حدهم على البيئة البقاء . الموكلون بدحض الشرك .
المعتزمون تنقية الإيعان . الآخذون أنفسهم بتطهير الدين من كل متعهم وعابث
وإن كان عليا والذين معه ، ومعاوية والذين معه ، والأمة جمعاء بشق أقطارها من
أقصى اليسار إلى أقصى اليمين حربا بالدعوة ، وضربا بالسيف حتى تنزع وتتوب ؟ ..

٣

لم ينقسم رأى على امرئ من أعلام الناس في عصر من العصور مثلما انقسم
الرأى أقساما ، وتشعب شعبا ، مع الإمام وعليه ، في تقدير مقومات بنيته النفسية
أو مظاهر سلوكه المحسوس ، ذهابا مع التقدير والتصوير من أقصى نقيض إلى
أقصى نقيض ، ومع الإقرار والإنكار من غاية الولاء إلى غاية اللدد في العداء ...
وفيما بين طرفي غايقي الرأي كثرت النحل الموالية والمعادية ، كل فريق منهما
يسلك طريقا طويلا ممدودا قد تعددت مراحلها بتعدد منازع الدين طرقوه . فإذا
أولى الطائفتين تبدأ من مجرد الاستسلام وإلقاء السمع له ، لما أخوذة بسحر
شخصيته أو راضخة لسلطانه ، لتخضع — تدرجا في متابعتها إياه ورضاها عنه —
إلى حد تقديسه وتأليه . . . وإذا الثانية تنطلق ، على منها المغاير ، في أشواط
انشقاقها عنه ، من مجرد خلاف تضرره النيات ، حتى يصل بها سخطها
إلى تكفيره . . .

شيع شق نزاحت تنحله الصفات والأضداد في آن ، وتعاقبت على الزمن
لا تنحصر في مكان . . . إبان حياته ومماته ظاهره ، ووقروه وعبدوه . وإبان
حياته ومماته خالفوه ، وحاربوه ، وكفروه . وفي ظلال نزعاتهم — بكل غلوها

أو اعتدالها — عاشت الأرض الإسلامية تاريخها وهي لا تخلو من شعبة هنا وشعبة هناك ، تنشر بأوصافها — الموغلة منها في العداء والمفرقة في الولاء على السواء — ضبابا كثيفا حول خليقة الرجل الموصوف ، وحقيقة الأحداث والظروف . .

وما نبرئ الدين شطحوا فمالوا إليه حتى علوا به عن البشر وعدوه في المقدمات ، ولا الدين اختبلوا فمالوا عنه حتى ألبسوه الضلالة ، ولكننا — مع هذا — لا يجعل بنا أن نلومهم وإن فسقناهم وذهبنا في تفسيقهم أبعد الأشواط . فاللوم لا ينهض إلا على معaire الأسباب الموضوعية التي ولدت الانحراف إلى هذا الجانب الموغل في الإعلاء أو ذلك المغرق في الإزراء ثم قياسها بالحساب المنطقي الدقيق . فأما والنزعة هنا وهناك تعبر عن « جنون » عاطفي فإنه لا سبيل إذن إلى اللوم لأن « الحبال » لا يدخل في نطاق الأفعال الاختيارية ومن ثم فلا وجود لأسباب تجيز العتاب ! .

ولد أنبا رسول الله عن هذه الشطحات المجنونة من قبل أن تتمخص عنها وعن أصحابها الأيام . فلعلها عندئذ دراسة قد استقرأت في صفات الإمام ومقومات خلقه ما تكشففت عنه الأحداث من سلوك أولئك وهؤلاء المدخولين نحوه بعد حين . . أو لعلها إشراقة إلهام ، طافت بخاطر خير من نطق في هذه الدنيا عن إلهام ، جعلته يحرك بمكامن صدورهم لسانه فيقول :

« فيك مثل من عيسى بن مريم . . أبغضته اليهود فبهت أمه ، وأحبته النصارى فرفعته فوق قدره . . »

وخبرهم على بنفسه من بعد ، إذ أحس منهم الشطط إلى عين أو إلى شمال ، فقال :

« يهلك في رجلان : محب غال ، ومبغض قال . . »
ولقد كان .

ولا عجب قط إن انبعثت غلواء الإكبار والإعلاء من نفوس أنصاره الذين شايعوه ، أو غلواء البغض والإزراء من نفوس عدوه الذين شنأوه ، لأن المتشبع المحب يعضغ العيب ، والعدو الكاره يصطنعه ويهول فيه وله من حسده

الذى يسد عليه منافذ الإنصاف ويستعبد حواسه وتفكيره ذخراً ضخماً يده بما يريد . . . لا عجب قط أن يحب التشيع وأن يبغض العدو ، وإنا العجيب كله أن ينبع الحب والبغض من قلوب عرفت قدره والتفت به ثم يعضى كلاهما إلى الشأو الذى تتحطم دونه الحدود والأصول ، وتتيه فيه الأخيلة قبل العقول . .

ومع هذا فقد اجتمعت فى شيعته الفئتان ! . . فى أنصاره من ذوى الهوس الدينى اجتمعوا ، ونضحت كل فرقة منهما بما فيها ، هذه تغلو فى حبه ، وتلك تغلو فى بغضه . لأن الغلواء يدين العقول التى تدين بعبارة « الحرف » فيسيطر عليها عناد يجعلها دائماً حبيسة نص مسطور لا تستطيع أن تستكنه دواعيه ولا مراميه . وهام أولاء القراء ، فيما تكشف من سلوكهم وأحاديثهم ، أناس قد كلفوا الكلف كله بالإصرار على ما يرون أو يريدون ، لا يحولهم عنه منطق ولا برهان ، فعاشوا فى غيابة جب من الجمود إن لم يكونوا تحولوا هم أنفسهم — عقولا وقلوبا — إلى جمود الجمود . .

ولقد علمنا كيف ارتد فريق منهم عن مولاته إلى معاداته ، ثم شطح بهم هذا العداء المجنون ، بعد التحكيم ، إلى رميه بالكفر والمروق حتى أباحوا دمه ودم أعوانه ، وعدوا حربه جهادا فى الله ، إلا أن يشهد على نفسه بالشرك . ويتوب ! . . فكأنما اقتضت طبيعة الوجود التى تجمع فى وقاضها الأمثال والأضداد : كثافة إلى شفافية ، وجمودا إلى سيولة ، وموادا إلى بياض ، أن تعادل أيضا بينهم وبين طائفة على نقيضهم تجثم على الطرف الآخر من الغلواء . . على نقيض أولئك الغالين فى البغضاء نجمت فرقة بين أشياءه سلت من صدورهم وأخلادها كل ما لعله قد يחדش صفة من صفاته ، أو يمس باللمسة الرقيقة الناقدة ، بل المتدبرة ، ذاته . . لا عن روية وتقدير فعلوا ، وإنا — لا ريب — عن هيام مجنون بشخصه ، صدر عن خيال ، وسدر فى إكباره إلى ما يجاوز كل مقبول معقول ، ويحرق كل تصور وخیال . . إنهم ليرقون به إلى النبوة . فإلى التنزيه . فإلى التقديس ، فإلى الإلهية المألكة الخالقة ، القادرة الرازقة ، الآبدة الواجدة ، الواحدة المعبودة . .

. . . إن منهم لمن اقتطعوا له نصيبا من نبوة رسول الله . . .

... وإن منهم لمن علوا درجة في غيهم قافتروا على محمد أنه كتم عن الأمة من الوحي تسعة أعشار ، فأزاح على السر ، وأظهرهم على السر ، حتى لقد كانوا يقولون :

« هدينا لوحي ضل عنه الناس ، وعلم خفي عنهم ! ... »

وإن منهم لمن حسبوا أن « إيمانهم » به مفقدهم من الحساب ، لأنه يرفع عنهم التكليف ...

... وإن منهم لمن أمعنوا في شطحتهم هذه ، حتى لقد أسقطوا الثواب والعقاب ، ومجدوا البعث والنشور ، قائلين :

« إنما الثواب والعقاب ملاذ هذه الدنيا ومشاقها ! »

... وإن منهم لمن قالوا بخلوده ، وببقاءه على الدهر ، لم يردهم عن ذلك أن مات وطواه التراب . فما مات ، وما يمكن أن يموت ! ... بل غاب إلى حين ، ولسوف يعود :

« لم يموت ! ... وإنه لفي السماء ... »

ثم اصطنعوا من ظواهر الطبيعة شاهدا على ما يزعمون . فالبرق صورته ، والرعد صوته . وكلا أربعت السحب ، وسطعت في جوانبها ومضات البرق ، رفعوا وجوههم نحوها في خشوع ، ورددوا يحيون :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين . »

... وإن منهم لمن جعلوا له الحساب ، يعذب إذا شاء ، ويثيب إذا شاء ... مر يوما يقوم يأكلون في نهار رمضان ، فهاله ما رأى منهم ، وأقبل يستفسرهم سر فطنتهم الشنعاء :

« أسفر أم مرض ؟ ... »

قالوا :

« لا ، ولا واحدة »

فعاد يسأل :

« فمن أهل الكتاب أتم ، فتعصمكم الذمة والجزية ؟ ... »

« لا »

« فما بال الأكل في رمضان ؟ »

فإذا بهم يجابهونه بالرد الذي يجافي السليقة قبل أن يوقر الأسماع أو يزلزل العقول ، فيدعون أنه هو عاصمهم من جزاء ما يقترفون ، قائلين :
« أنت أنت . . »

ويصخب :

« ويلكم ! . . إنا أنا عبد من عبيد الله . . »

ويسجد عبودية لله ، ويلصق خده بالتراب .

لكنهم لا يرجعون عن هذا « الإيعان » بربوبيته وإن توعدهم أن يحرقهم بالنار ، بل يزيدهم وعيده تشبثاً بإيعانهم المزعوم ، فمن يعذب بالنار غير الله :
. . . وإن منهم لمن ادعوا أنه الخلاق الرزاق ، فقال له قائلون :
« أنت خالقنا ورازقنا . . »

وقال آخرون :

« لو شاء لأحيا عاداً وحموداً وقروناً بين ذلك كثيرين ! » .

فرق ونحل تدرجت في مراتب الولاء له ، شعبة بعد شعبة ، وفرقة وراء فرقة ، على طريق الزمان المحدود ، وفي نطاق الدولة التي ترامت برقعها التخوم والحدود . لم تنحبس حيث عاش ، ولا حين عاش وكان له سلطان ، وإعنا انطلقت تردد دعوتها ودعواها أينما كان له شعبة وأتباع ، وأيان سرى ذكره ولقفته أسمع . . .

وما نريد أن نغضى شوطاً آخر مع هذا النوع من الغلواء ، فبحسبنا أن رأينا يرقى بطبيعة الرجل « البشرية » إلى « الإلهية » وهو قصارى ما يمكن أن تبلغه عواطف الولاء . . . ولكننا نحاول أن نكمل الجانب الآخر من الصورة ، ليلتقى الضدان . ويجتمع النقيضان . .

إن الأنفس التي خامرتها البغضاء ، ليس يعينها في شيء — إن هي أسلست لجوحها القياد — أن تجار بماطفتها على ملائ الناس قدر ما يعينها أن تجتر هذه العاطفة وتلوكها في دخيلتها ، تلذذاً بها ووفاء للمادة ، كما يلوك المدمن مضغة التبغ ، قد لا تنفعه ، بل تؤذى حلقه ، أو تنوشه بغشيان فلا يعنيه إلا أنها تشيع في كيانه « منعة » نذوب فيها أفدح غضاضة ، وأقسى أذى ، وأعنى غشيان . .

كهنه الشاكلة رأينا من رجاله — دع عنك مناوئيه — طائفة قد كتبت
إلا عن « عالم النفس الداخلى » بغضه ، يعيشون معه وهم قواقع قد انطوت
أصدافها على الغل وإن لاح ظاهرها براقا أملس يهر النواظر حتى لتسلكهم
— مخدوعة — فى صفوف الأعوان . . رأيناهم رياء يدب ويخطر على قدمين :
على الشفاء عبارات ولواء ، وفى القلوب دودة بغضاء . . بعضهم أخفى غله ، ووسعه
أن يسيطر فى صدره على ناره أن تثور إلا نفثات دخان تقرب حينا من الرجل
الفوار لنهدأ ثانية إلى حين . . وبعضهم أعجله مأرب ففسد « الصمام » واندلعت
النار . . .

ولا حاجة بنا كما أسلفنا ، لتقصى كافة المدخولين ، وأنهم لكثير ، فى صفوفه
وفيمن اعتزلوه وبدوا من شيعته وشيعة عدوه على سواء لا إلى أولئك ولا إلى
هؤلاء . . ولكننا حين نعرض لتلك الطائفة منهم ، التى أظهرت ميلها إليه ،
وانخرطت حينا فى سلك الأعوان ، نجدها قد آزرت عن ألف دافع ودافع إلا عن
اقتناع ولا تقول عن إيمان . . فالصيت الذى تضيفه عليهم متابعتهم إياه مدعاة .
والقرب فيه من صفى رسول الله مدعاة . وخشية تقمة عامة قومهم عليهم مدعاة .
والباهة والفخر والخيلاء مدعاة . والتطلع إلى ثمرة مظاهرتة مدعاة . وكلام
وغيرها عروض وقشور لا تثبت قط عند الاختيار . .

ولعل المثل ، ونحن نجمع قرائن الحال لنسوق الأمثال ، لا يعوزنا حتى فيمن
لهج بحمده على الأشهاد ، وسل القلم واللسان ينضجان عنه ، ويفضحان غريته
بمقدع من النعوت والأوصاف طالما تناقلت الرواة . . لعل المثل قد لا يعوزنا
فى « النجاشى الشاعر » الذى أسال فكره قريضا ونظما يفيض ثناء على مناقب
الإمام وإعزازا لأمره ، وهجوا لابن هند وتحقيرا لشأنه ومسلكه . . ومع ذلك
فلا يكاد هذا الشاعر الغاوى يتعرض للامتحان حتى ينقلب الميزان ، فإذا هو يرتد
عن نهجه ، وإذا الممدوح هو الخلق بالهجاء ، والمذموم هو الحقيق بالثناء . .

خلط من الخلط يجريه الهوى . ويفرضه الإخلاص الأثيم للذات ولا نائل
أنفسنا فم كان انقلاب الرجل ، أعدولا عن باطل كان ، أم استجابة لحق ، أم
تشبهاً بعبداً جديد . . لا نائل أنفسنا وأماننا من خبره قرينة حال تغنى عن
كل سؤال :

كان ذلك ذات رمضان . في أول نهار من هذا الشهر الذي يعف المسلمون فيه عن الطعام والشراب والشهوات زكاة للنفس وتعبئة لقوى الروح . وكان النجاشي قد خرج من بيته يسير إلى غير غاية كأنما ليشغل بعض وقته ويعمل بالحركة ما يحسه فيه من فراغ ، فإذا هو عر بصاحب له ، قد لاذ بفناء داره فأقرأه السلام . . . قال الرجل وهو يدعو أن يلزمه لعله يغريه بالقبول :

« . . وهل لك في رءوس وأليات قد وضعت في التنور في أول الليل فأصبحت قد أينعت وقد تهرأت ؟ »

فراجع الشاعر سمعه ثم رد في استهجان :

« ويحك ! . . في أول يوم من رمضان ؟ . . »

لكنه قبل . الطعام أغراه ، ثم أغراه بعده التبيذ ، فأهدر صومه ، وخرق شريعة الله . . ثم راح يعب وصاحبه من الشراب حتى فقد الوعي وعلا صياحهما المحموم ينيء عما اقترفا . . . فلما انكشف الأمر ، وأخذ بسكره إلى الإمام أمر بحمله ثمانين جلدًا وزاده عليها عشرين . . .

وكأنما هاله الجزاء فأطلق لسانه يقول :

« يا أمير المؤمنين . . أما الحد فقد عرفته ، فما هذه العلاوة ؟ »

قال على :

« لجراءتك على الله ، وإفطارك في رمضان . »

فمن عجب أن تأخذه العزة بالإثم وتأخذ معه طائفة من الجانية ، فيها طارق بن عبد الله بن كعب النهدي . . غضبوا له ولم يغضبوا لله ، فمشوا — بمنطق الاستكبار والاستعلاء — إلى الإمام يحاجونه وينكرون عليه ما كان . . قال له طارق :

« يا أمير المؤمنين ، ما كنا نرى أن أهل المعصية والطاعة ، وأهل الفرقة والجماعة عند ولادة العدل ومعادن الفضل سيان في الجزاء حتى رأينا ما كان من صنعك بأخي الحارث . . »

أفهذا منطق تناقش به جريرة الشاعر ؟ . . أم يرون قسطاس الله يحابي الناس على أصولهم فيلين بهم ما شرفت الأصول وإن خفت الأعمال ، ويشدد عليهم في العقاب إن انخفضت الأحساب . . أم يريدون الإمام على أن يشتري من أتباعه طاعتهم بإهدار أحكام الله ؟ . .

وكرهه قولهم ، ولكنه استمسك ما استطاع ليألف في وجوههم جوابه الذي لا جواب غيره في مثل هذا المقام :

« يا أخا نهد . . وهل هو إلا رجل من المسلمين انتهك حرمة من حرمات الله ؟ . . »

ومع ذلك فقد أدلج طارق والشاعر بلبيل يفران من الحق إلى معاوية ، ملتجئين به ، ولافيين في رحابه النعمة التي يجدها عنده كل خوان ! . . ثم لائين يجلس لديه لا يتشدد رواده في صباح ولا مساء إلا بالطعن على الإمام واستخراج العيوب والمثالب من كل مكرمة وسعها خلقه واستوت في سلوكه وطبعه مع سواها من المكرمات تؤلف شعاعا هاديا لمن أراد الانطلاق على غير شبهة في طريق الله . . ولقد شاء معاوية كدابه ، وإنه لفي أسر غله ، أن يداهن الوافد الجديد على حساب القيم الخلقية الرفيعة فراح يثلب محامد الإمام ويلطخ صحيفته النقية بالافتراء ليبدى صحيفة كل مرتد عنه منتقض عليه ناصعة بقاء . . . شاء هذا فأطلق لسانه ما وسعته عبارة ذم ، وبالع ما شاء ، ثم غلا في قدحه إلى شأ ولم يستطع عنده أولئك المرتدون أنفسهم التصبر على السكوت ، فانفلت طارق من بينهم يعارضه ويقول :

« يا معاوية . . إني متكلم فلا يسخطك . . »

وتكلم . . لقد أنطقه الله عندئذ بكلام ليس من ثناء قط إن لم يكن هو الشاء ، على الإمام ، والذين معه من رجال . فهم منار للهدى . وهم معالم للدين . وهم عدول ، ليسوا بنا كثرين ولا قاسطين . . وإنا غير هذا زمرة الناصلين منهم ، المنحرفين عنهم ، المنحازين مع الأهواء ، وإن كان هو أحدهم ، وإن أوشك أن يقرن طغبتهم بمن صباؤ عن الإسلام . . .

كان مما قال :

« . . فلم يكن رغبة من رغب عنهم ، وعن صحبتهم ، إلا لمرارة الحق حيث جرعوها ، ولوعورته حيث ملكوها . . غلبت عليهم دنيا موثرة ، وهوى متبع ، وكان أمر الله قدرا مقدورا . فلقد فارق الإسلام قبلنا جيلة بن الأيهم ، فرارا من الضيم ، وأثقا من الدلة . . فلا تفخرن يا معاوية إن نحن شددنا نحوك الرجال ، وأوضعنا إليك الركاب . . »

... وإن نحن أطفنا بأولئك الذين عاشوا على رياء في صفوف الإمام طوال حياته ، يصابرون حقدهم أن يثور ، ويكتفون عن الإظهار بالإضمار ، وعن المكاشفة بالاجترار ، لرأينا على رأسهم الأشعث ، الذي كان يحسب دائماً في أعوانه حين القياس بالأقوال ، وفي عدوه وشائتيه حين تعجب النيات أو تستقصي الأهداف الخفية وراء أية بادرة بدرت منه ، يستوى في هذا مائد عنه من بادرات التلميح ومظاهر السلوك الصريح .. ولئن كان قد ظل دائماً في ركاب الإمام ، فإنه لم يكن ، في حقيقة الأمر وحكم الواقع ، محسوباً له بل محسوباً عليه ، ومنتقصاً منه لا مضيفاً إليه . . . ولئن كان قد التزم بحبته ولم يفارقه ، فللأنفة فعل ، وللمباهاة والتفاخر وليس للولاء والوفاء . . . ولعل أبلغ ما يصور لنا موقفه ، ذلك الحديث الذي جرى به لسان الهيثم بن الأسود أبي العريان ، حين استفسره معاوية مقدار إخلاص أهل العراق وأهل الشام ، كل فريق لأمره ، وصدقهم له النصح ، وفي سبيله البلاء . . .

قال له معاوية يسأله ، عقب التحكيم :

« ياهيثم . . . أهل العراق كانوا أنصح لعلى في صفين ، أم أهل الشام لي ؟ . . »

فبادر على الأثر يجيب :

« أهل العراق قبل أن يضربوا بالبلاء كانوا أنصح لصاحبهم » .

فعجب معاوية :

« كيف قلت ذلك ؟ . . »

قال الهيثم يوضح له :

« لأن القوم ناصحوه على الدين ، وناصحك أهل الشام على الدنيا ، وأهل الدين أصبر ، وهم أهل بصيرة . وإنا أهل الدنيا أهل طمع . . ثم والله ما لبث أهل العراق أن تبذوا الدين وراء ظهورهم ، ونظروا إلى الدنيا فالتحقوا بك . . »

هنا جاءه من العاهل الأموي السؤال الذي لعله طالما تردد في كل خاطر

آنذاك ، في العراق ، وفي الشام ، بل في كل بقعة غيرها من ديار الإسلام :

« فما الذى يمنع الأشعث أن يقوم علينا ، فيطلب ما قبلنا ؟ . . »

فكان فعل الخطاب الذى يعاير العلة بأدق معيار .

« إن الأشعث يكرم نفسه أن يكون رأسا فى الحرب وذنبا فى الطمع ! . . »

وصدق الهيثم وأصاب .

فعلى هذه الشاكلة ، شاكلة النجاشي وطارق والأشعث ، كانت كثرة من رجال الإمام ، فى تلك الحقبة من تاريخه التى تلت صفين . . كثرة تضرر السخط — إن لم تكن تضرر الحقد — وتلوكه ، تلهذا به ، ووفاء للمادة على أقل احتمال ، كما يلوك المدمن مضغة التبغ ، هى لا تنفعة ، بل تؤذى حلقه ، وتنوشه بغثيان ، ولكنه لا يكف ، لأنها تشيع فى كيانه « متعة » نفسية تذوب فيها أفدح غضاضة ، وأقسى أذى ، وأعتى غثيان . . .

ولكم تحطم فى نفوس بعض أولئك الكثرة المرائية الصمام فانبعس البخار المكتوم . أما الآخرون فوسعهم أن يصابروا محنة نزوعهم إلى الانسلاخ عنه إلى عدوه ، فمكثوا حيث كانوا منه ، قرييين بالمسافة ، بعيدين بالإخلاص ، عن أنفة وكبرياء ، لا عن عقيدة ولا ولاء . . .

٤

تحفرت الأوصال للحركة ، وامتلاأت القلوب بالتطلع . . النخيلة ناشطة كما لم تنشط قط من قبل فى عهدى الأخير . الخطا لا تستقر على أديم المواقع . الجنود تحتشد لتنتظم . المطى تخطر وتطفز . السلاح يلتصق على وهج الشمس ، ويخايل بيرقه الأعين . فى النواظر لهفة ، وفى الجوانب وجيب . فالأيام القلائل المقبلة — المغلفة بعد بالغيب المجهول — تنسج ، فى خفية عن الظنون والأحداث ، خطوط الأحداث التى تشكل المستقبل .

أينما استدار بصر كان ضجيج يشور رجه تحت الحف والحافر . وأينما مالت أذن كان وقع وقعقة . وأينما سرح ذهن كان حدث يهم أن يتخلق جنينا فى بطن الزمن وراء مشيمة من ضباب التوقع لاتنى تشف وتشف لتلشق عنه . . كل حركة فى الأرجاء المائجة تنبئ عن عزم مستور . .

وعلى الأفق لون الدم . فى الهواء رائحته . فى العروق النافرة سوره وحياه . .
 مامن امرى هنا إلا رنا ، بلحظ عينه أو ذهنه ، إلى حلبة تعتنق فيها الأسنة الهوج
 لتصمى وتبتر ، وأجساد تلتقى وتضطرب لتهاوى فى سواد السنايك ، وبقاع
 تنفسح وتضيق كالأفواه المتلحظة لتلتقم ذوب الأنفس . . ما من يد إلا تشرعت
 للطعان . . ما من خيال إلا ارتحل بصاحبه عبر الزمن والمسافة ، شرقاً أو غرباً ،
 إلى موقع صدام منتظر ، يحجبه اللحظة عن الرؤية — وإن طالعتة قوى التصور
 القلق — هيكىل تل ، أو منبسط بادية ، أو شريعة ماء . .

فأما الملتقى فقد تفرقت عليه الأفهام . المنطق أحياناً يرسمه والوهم أحياناً
 يبينه . . أهو بعيد بعيد ، أم هو قريب قريب ؟ . . أعلى كشب ، أم دونه مراحل
 تتقطع عليها الأنفاس ، وتتمزق الأقدام ؟ . . أفى ساحة الأمس ، أم بركان يباعدها
 أو يدانها ، تجسسه الرغبة أو تحدده الصدفة واحتمالات الظروف الطارئة التى
 لا تخضع لقواعد الإعداد ؟ . .

تفرقت عليه الأفهام !

طائفة طمأنتها الأمانى وتلقت الحركة الدائبة بغير احتفال . ما عسى يغيرها
 بهذا الضجيج الذى يشغل الجسوم ، وبهذا التوقع الذى يملأ الحواطر وإنها —
 لفرط التصاقها بفكرة السلم — توشك أن ترى المنظر كله فقاعة هواء لا تلبث
 أن تنفث . ثم يرين الهدوء . الناس ، فى رأيها ، استرخوا للدعة ، ولد لهم مذاقها
 فراحوا يلوكونها ناعمين . . .

أولئك فريق الاستسلام !

طائفة أخرى التصق يومها بأمسها ورأته معبراً لا معبر غيره لغدها المرقوب
 الذى تتوسم فيه النصر والوحدة والسلام للأمة جمعاء . إذ تأكل الحرب بنارها
 عوامل الفرقة ، وتمحق دعاة الفتنة ، وتطهر الأرض الإسلامية — طولها وعرضها —
 من درن الانقسام . . فإلى أين إذن تكون الوجهة إن لم تكن هى الشام ،
 أو مشارفها ، أينما كانت لأمرها المتمرد بقعة يدل فيها بسلطان ؟ . .

أولئك خاصة الإمام . . !

طائفة ثالثة حزبا — أو خالت ، أو بدت كأن قد حزبا — أمر خارجه النهر ،

فراة أن نهطع إليها بموقعها فتصفها ، تأمينا للكوفة ، وقضاء على احتمالات غزوها من وراء أظهر أهلها حين تدعوهم الدواعى إلى الانطلاق للقاء فاصل بينهم وبين متمردة الشام . .

أولئك كانوا الأشعية — رجال الأشعث بالولاء أو بالانحياز — سواء منهم الذين أضمرؤا مسالمة معاوية عن عزم معقود غلفوه بخاطر أصحاب النهر ، أو الذين منهم استجابوا لدعوة الرعب مخدوعين . .

ولقد يوشك من يرى المنظر العام لهذه البيئة التى تشابكت فيها خيوط الاتجاهات ، واشتبه الرأى ، أن يظنها قد أجمعت أمرها على المعركة الفاصلة التى تحسم كل تردد ، وتقضى على ما نشب من خلاف بين الأمة ، وتضع حدا حاجزا بين مقتضيات الظرف الحازب وبين التذاؤب مع الآراء مرة تقدا إلى أمام ومرة تقهقرا إلى وراء . . يوشك أيضا من خبر الموقف ، وسبر غوره ، أن يتنبأ بفسار المطى ، وآثار الأقدام ، ومواقع الصراع المنتظر والجيش عندئذ يتأهب للانطلاق . .

لا جدال فى هذا . فالإمام قد قال . والناس استجابت ، والجند احتشد وغدا فى الحلقة والدرقة . . غير أن الأبناء ، فى نفس الوقت ، كانت ما زالت ترى عليهم ، تدخل فى آذانهم كلمة أو عبارة ، فتخرج من حلوهم هلعا أو رهبة . . إن منهم لن يصوغها كما يهوى ، ويلفها بما يزلزل الأئدة ويرج الأوصال . وإن كثرة لتوغل فى تصوير الهول وعقباة ، ويتطائر حديثها متفجرا حتى يبلغ سمع الإمام ، فيستحضر ابن مرة العبدى إليه ، ثم يبلغه أمره لعله يأتيه من لدن خارجة النهر باليقين :

« اخبر لى خبرهم ، واعلم لى أمرهم ، واكتب إلى به على الجلية . . »

ويعضى الرسول . .

ويتلبث الناس على ترقب بريده أو سمته يطلعه لهم الأفق فى صباح أو مساء ، ولكنهم لا يظفرون إلا بنياً هو آخر ما كانوا يتوقعون من أبناء . فلقد أصبح الرجل نفسه الخبر المرقوب وغدا فى الغابرين بعد أن قتلتة الخارجة وقد أبوا أن يسمع منهم أو يسموا له . . .

عندئذ اشتد الهول ، وعلا التصايح حول على والجيش بهم أن يأخذ طريقه إلى الشام . . .

وتزاحمت عليه أصوات في جرسها من التمرد أشد مما بها من إنكار :
« يا أمير المؤمنين .. علام ندع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا ؟ .. »
وقال منهم من حسب أنه يأتي بفصل المقال :

« سر بنا إليهم ، فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم ، سرنا إلى عدونا من أهل الشام . »
ولم يخل الجمع من رءوس تستدير ، عيانا أو مخالسة ، صوب الأشعث ، كأنما يذكرونه رأيه ، ويمعلنون تأييده ، ويستحثونه أن يظهرهم هذه اللحظة ، كدأبه في لحظات الفصل التي تقلب الميزان . . . ولقد وقف الرجل هنيهة مزمووم الشفتين وإنه ليشمر أنه في غنى عن الكلام . فاهرج قد وقع . والتمرد أطلع قرنه . وما غرسه في الليالي الطويلة وتمهد عوده قد أعر الآن . . .

ومع ذلك فقد تكلم . ردد ثانية دعوته . أخذه زهوه بانتصار نظراته فلم يستطع الصمت والكتمان . . .

وكرة أخرى انقلب القوم إلى ما أوشكوا أن يخرجوا منه . أن يتحرروا من إيساره . أن تغتسل عقولهم من عواطفهم الموهومة الرعناء . . كرة أخرى سيطر عليهم الدعر ، أو سيطرت النزوات المنحرفة أو الرغبات الخدوعة فإذا بهم يلوون بأعنة مطاياهم ، ويقسرون الأقدام على غير ما اعتزمت من قبل . .

أفصرع العبدى حقا هو الذى قلب الميزان ؟ . .

ذاك ما لعله بدا حينئذ لمن عاش معهم هذه الحنة النفسية وتنفس القلق والصخب والثورة على ما سبق لهم الاتفاق عليه وأبرموه في لحظة تعقل ، أو لحظة ولاء للهدف الحق ، خطفت كومضة البرق ثم ذابت مع الظلام . .

لكن الصرع لم يزد ، في الواقع ، عن تعلقة مصنوعة ، تعلموا بها ، أو تعلمت بها فئسة الانقسام وعرفت كيف تغرسها في أذهان الناس لتعدل بهم عن السير إلى الشام . . لقد عملت فيهم — وإن لم يفتنوا ، حمى السلام لتدعهم بعد قليل سرعى استسلام .. وإذا كان الأشعث بن قيس قد نعم بما أفشى ، إذ انفتح أمامه الطريق إلى مشتاه ، فإن نقرا من جمعهم هو الأقل ، مضى الشوط على كره

وفي حسبانته أنه حلقة — تقدمت أو تأخرت — ليست خاتمة الضال المنشود على أى حال . أما الأشعثية ، وأما الانهيار النفسى ، وأما سطوة القدر المتربسة بالسوانح والأخطاء لتجعل منها وسائل إلى ما تروم ، فكأنها عرفت أنها نهاية المطاف . . .

وعندما بدأ الجيش العلوى عندئذ زحفه فى الرحلة الجديدة ، كان يطوى السجل على هدف نضاله ، وينحاز إلى درب فرعى لا يفضى به إلى الغاية بقدر ما يفضى إلى تيه من التخبیط فى ضباب أحداث ، فإنها موج فى يدي عاصفة ، لا يعرف مذهبه ولا مآتاه ، ولا يرسم هو خطوطها ، أو يحدد إليها مسالكه ، لأنها هى التى كانت تحركه ، وتزلق به — عن غير إدراك منه بخاطر المزالق ، ولا قدرة على التحكم فى نفسه — لتصنع ، على هواها ، مصيره . . .

٥

عبر الجسر سلكوا على دير عبد الرحمن ، ثم مضوا على دير أبى موسى ، ومنه على شاطئ الفرات . .

على ضفة النهر خطوا رحلة النهاية . . . لعل التراب ها هنا لم يحفظ أثر الأقدام . . لعل ربيع الشتاء الآفل سفت عليه ونسكته . . لعل رموسا عديدة ودت — من بعد — لو استطاعت تخيلاتها طمس معالم هذا السير . . . فلستم يطمح الناس إلى نسيان ما يسيئهم والفرار من ذكره . . .

ولم يكن الإمام ، وهو يؤمهم فى الانطلاق ، إلا مثقل القلب ، نفسه حزينة ، وحلقه ممرور . . . كان له مظهر القائد وليس له إلا انصياع المقود . كان ريشة على تيار .

إنه ليملم أنهم أخطوا السبيل ، من البدء كان يعلم . وكان قلقا من عاقبة ما يفعلون ، منذ خدعة المصاحف . . منذ وقف القتال . . منذ فرضهم أبى موسى الأشمرى عليه . . منذ مهزلة الحكم . وطوال الأيام التى صرفوها تعلا وتلكؤا عن تلبية ندائه لمعاودة استقبال معاوية بالسلاح كان يخشى منهم ألا يتابعوه ، ألا ينظمهم أمره ، ألا يوفوا ، بسلوكهم هذا ، على الغاية التى رسمها من أول

لحظة خرج فيها من مدينة الرسول لضرب التمرد وقمع الفتنة رأبا للصدع الذى أحدثه مناوئوه فى جدار الإسلام . . .

ولكم كان هينا عليه أن يحملهم على غير ما أرادوا وذهبوا إليه مذهبهم اللئوى عن هدفه . فما زالت به قدرة ليقف فى وجه السيل . . وما زال بينهم نفر يؤمنون نفس إيمانه بنظرته . . . وما زال أئمة رجاء فى أن يتابعه جمعهم الحاشد وينصاع لأمره ، ولاء له ، أو هيبة منه ، أو تظاهرا بطاعته . فكيف إذن عدل عما فى مقدوره إلى هذا الذى حملوه عليه ؟ . . .

لو أنه لم يعدل إنه إذن لراكب بهم ، وبنفسه ، وبنضاله كله أضعف مركب وأسوأه يمكن أن يسير إلى غاية يتطرب بلوغها اجتماع القلوب قبل اجتماع الأبدان . وما انتفاعه عندئذ بجند إن يكونوا ككسفة الليل — لو تراصوا أمام العدو قد يحجبونه عما وراءهم بمددهم الوافر — فإنهم أيضا كستار ضباب ما إن تلتصع أشعة الشمس حتى يتبدد ويذوب . . . إن أعنى أسلحة الحرب وأقدرها على انتزاع النصر من بين أنياب الموت هى ، لا ريب قوة النفس وقدرتها على التحكم فى جوارح البدن وموجبات الذهن تحكما كفيلا بأن يروضها على مواجهة أى موقف قد تفجؤها به احتمالات الصراع الحربى — المتذائبة أبدا بين مد وجزر — بمسلك تلقائى حاسم ، منبعث من جنان ثابت ، يفرز الجلد والصبر والإصرار ، ولا شية فيه من تردد أو قلق أو خشية . . « الروح المعنوى » هو السلاح الأول والفعال فى كل قتال . وهؤلاء الذين ينطلقون معه الآن — أو ينطلقون به — إلى النهر وان ، كان قصاراهم ، لو التقوا بأهل الشام آوتهم هذه ، أن يكونوا ظلال رجال ، قلوبهم جوفاء ، ونفوسهم هباء ، وعيونهم وإن يكن حمالقها يمتد أما ماصوب جند معاوية ، فإن أعصابهم ، التى هدها القلق على ذويهم بالكوفة ، خليفة بأن تشدهم إلى وراء . . .

فأية كارثة كانت حرية بأن تحيق بهم لو أنه « ساقهم » إلى معركة تشهدها منهم الأبدان ويغيب الجنان ؟ . . وبأى سلاح كانوا سيقتلون وقد جردهم القلق من أقوى سلاح . . إنها إذن « سوقة » إلى المصارع . إلى مذبح لا تتناثر على ساحتها الجوارح والأشلاء بل تدفن كذلك تحت ثراها القيم والمبادئ التى يناضل

طوال حياته لرفع علمها إلى مسار النجوم . وإذا كان هو اليوم قد امتلان لهم بالإذعان فلائها — في حساباته — أزمة نفسية لعل جنوحه اللحظة إلى جانبهم يخفف عليهم شدتها ليجتازوها بأمان .

لقد كان ، مع كل ما ثقل عليه منهم ، يدرك ما يتقل عليهم . ويحاول بكل طاقة أناته واحتمال صبره أن يعيد إلى نفوسهم طمأنينة سلبتهم إياها أحداث قد شحنوها — إبان فزعهم الفارض — بأفزع خطر موهوم . فإذا رأى الآن أن يشفى بهم على ذلك الخطر ، ويكشف لهم عن حقيقة الطبل الأجوف فيه ، فإنه إذن للشفاء ! . . .

وكذلك مضى معهم إلى الدواء المر ، ونفسه لا تخلو من رجاء أن يجتاز بهم المحنة النفسية التي يعانون منها كل هذا العناء . فالخارجة لا تهوله ولن تعضل به . والنصر عليها ميسور . وتطهير الأرض من طغمتها مزود رجاله بزاد من روح معنوى هو أقوى الأسلحة التي يفتقرون إليها أشد افتقار حين يشدون الرحال . للقاء متمردة الشام . . .

ولم تهتز أيضا ثقته . فما كان شيء في الدنيا بعينه من سياسة الحكم أو الناس هو الذى دائماً كان بما فى يد الله أوثق منه بما فى يديه وأرسخ إيماناً بقدره وإن جاءه هذا القدر بأهول ما تسوقه الأقدار . . . وعندما اجتاز الجسر ، وهم أن يبدأ الخطأ على الطريق ، مثل بين يدي ربه ، وألقى نفسه فى ذاته القدسية فى ركعتين ، نأى فيهما عن عوالم المخلوقات . فلعله عندئذ قد راح يجلو يقينه . لعله استزاد فى شعلة روحه . لعله غسل بابتهاله ما عساه قد علق بذهنه وبقلبه من غضب أثاره فيهما كنود أصحابه ولاث ما كان عليه من صفاء . . .

ومضى وإياهم والنهر وإنهم أجمعين — وإن اشتدت الأسواق تحتهم تحت السير — قد تعثرت عزائمهم ، واضطرب فلسكها ، بعضهم من غيظ ، وبعضهم من ندم ، وبعضهم من حيرة بين أولئك وهؤلاء ، دع عنك تلك الطائفة للشبوة التى استطارت بها الفرحة برجعان رأيها وكانت — دونهم — على زهو وخيلاء . . . حتى إذا قطعوا أشواطاً ، وأوشكت بهم مراحل السير أن تشرف إلا قليلاً على طي مجمع الخارجة ، أقبل امرؤ له هيئة وسمت ، يشق طريقه بين الحشد إلى الإمام .

وتساءل أناس .

وتهاشم ، فيما بينهم ، آخرون .

« منجم ، يعرف أسرار النجوم ، ويقرأ الأقدار . . »

واقترب صاحب السميت المرموق ، من ابن أبي طالب يناديه :

« يا أمير المؤمنين . . »

فتلبث يصغى .

« يا أمير المؤمنين . . لا تسر في هذا الوقت إليهم . . . »

ورمقه الإمام بنظرة استفسار . فأردف الرجل يقول ولهجة تفيض بالتوكيد ،

وكانها صيحة القضاء :

« لا تسر ! . . إنك إن سرت ، يا أمير المؤمنين ، في هذا الوقت ، خشيت

ألا تظفر بمرادك . »

« ومن أين علمك بما تقول ؟ . . »

« من طريق علم النجوم . »

عندئذ ارتسمت بسمة ساخرة على وجهه على وهو يثر الرجل نظرة إنكار :

« أزعج أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه سوء ، وتخوف

من الساعة التي من سار فيها حاق به الضر ؟ . . . »

ورمى ببصره يدور في رجاله ، كأنما يحشهم أن يحسنوا الإصغاء ، ثم أكمل

يقول :

« . . إنك لتبتغي في قولك للعامل بأمرك أن يوليكَ المجد دون ربه ، لأنك —

بزعمك — أنت هديته الساعة التي نال فيها النفع ، وأمن الضر . . . ألا فمن

صدقك بهذا فقد كذب بالقرآن ، واستغنى عن الاستمانة بالله . . »

ثم استقبل الناس يحذره :

« أيها الناس ، إياكم وتعلم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر ، فإنها

تدعو إلى الكهانة . فالمنجم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ،

والكافر في النار . . . »

وحيث خطاه :

« سيروا على اسم الله . . »

ولم ينقطع قط اتصاله بالخارجة . مرارا عدة استفاءهم إلى الطاعة ، وأملى لهم في مراجعة النفس عما نزعته إليه ظلمة . . . بلسان كثيرين من رجاله فعل ، لعلمهم أن يرفعوا الحق ، وتثوب قلوبهم إلى الخير والوحدة والسلام . . . لكنهم كانوا قوما قد صمس على أفئدتهم هواها فعميت البصائر ، وخفت الأحلام ، وتبدو كأعما يخبطون كالمشواء إلى الهاوية وهم معصوبو الأعين ، وما أكشف العمى الذي يحجب عن تعصب . . . إنهم لا يرون غير رأيهم هم ، ولا يسمعون إلا نفس قولهم هم ، كأعما يرون ويسمعون من داخلهم ولا تحترق بهم عين ولا أذن ولا بصيرة جلد هم الكثيف ، أو تنطلق إلى خارج طبيعتهم المصمتة الصماء .

كان علم السلام والمصالحة الذي رفعه لهم ، كلمات قلائل تحقق حق الله ، وتقيم حدوده ، ثم تفتح الطريق بعد هذا إلى الوثام والإصلاح :

« ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم ، نقتلهم بهم ، ثم أنا تارككم وكاف عنكم حق ألقى أهل الشام . فلعل الله أن يقلب قلوبكم ، ويردكم إلى خير مما أتم عليه من أمركم . . »

ما أراد أن يحملهم نفس محمله على قتال معاوية ولما تصف نفوسهم بعد الصفاء كله ، وإنما شاء أن يفسح لهم في مجال التفكير عسى أن يثنيهم التدبر والادكار عن المكابرة وقد اتسع وقتهم أمامهم في تناول الأمر كله بالتأمل الهادئ والنطق السليم .

ومع ذلك فقد أبوا الفرصة البسيطة أمامهم ، وردوا بجفاء واستعلاء :

« كنا قتلهم ، وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم . . »

لكنه تصبر وإنهم عندئذ ليرفضون الانصياع إلى بديهة من بديهيات حياة المجتمعات هي بديهة القصاص ، ويضعون بهذا رأيهم وحده قواما على رأى الدين تصير مستمكا بهدى ربه الذي يقدم الدعوة بالموعظة الحسنة على الأخذ بالعنف والشدة سبيلا إلى رتق الانقسام واستعادة الولاء . . .

وكرة أخرى ينقل وافده إليهم قيس بن عباد ، الدعوة السمعة ضنا بدمهم

أن يهدر ، وحرصا عليهم وعلى الأمة أن يستغرقها خلاف مسلح حيثما تغنى الرويه عن امتشاق الحسام .

يحدثهم قيس ، في تودة ولين مفصحا لهم عن خطل ما يعتنقون :

« عباد الله . . أخرجوا إلينا طلبتنا منكم ، وادخلوا في هذا الأمر الذى خرجتم منه . . وعودوا بنا إلى قتال عدونا وعدوكم ، فإنكم وركبتم عظيمًا من الأمر : تشهدون علينا بالشرك والشرك ظلم عظيم ، وتسفكون دماء المسلمين وتعدونهم مشركين . . . »

فيأبون ثانية في عناد مجنون . .

ويثنى من بعده أبو أيوب الأنصارى :

« عباد الله . . إنا وإياكم على الحال الأولى التى كنا عليها . . ليست بيننا وبينكم فرقة ، فعلام تقاتلوننا الآن ؟ . »

فيقولون ولما يتزحزحوا عن موقفهم ، كأنما قد غاصوا بأقدامهم إلى الركب في حاة سلبتهم القدرة إلا على التدلى والانزلاق دون التحرر أو الخلاص :

« إنا لو بايعناكم اليوم حكمتم غدا . . »

لوثة « لا حكم إلا لله » تعاودهم ، وتلح عليهم ، وتعلق دونهم كل باب إلى الصواب . .

عندئذ لا يملك الرجل إلا أن يحذرهم قفزهم هذا إلى خاتمة فى طى الغيب ، لا ينبىء عن وقوعها شيء قط إلا ما فى مخيلاتهم من اضطراب :

« فإنى أنشدكم الله أن تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتى فى قابل »
ولكنهم لا يسمعون .

٦

بدوا كأنما آثروا الحرب حلا لازما للخلاف الذى أنشبهوه . فأصاليب التفاهم
قد تقطعت واحدا بعد آخر . ووعوه النىء إلى الجماعة خفتت كالهمس . ذابت في
غمرة العناد . وندت تحت تراب شعارهم الذى يجافى كل حق ومنطق وروية ...
ووقفوا على تحفز . أعصابهم كالأوتار . أجيادهم ممدودة مشرعة إلى الأمام
كالسهام . أكفهم لفرط تقبضها أو شكت أن تغوص فيها القسي والحرايب ومقايض
الأغمد والسيوف المسلولة . .

اللحظة الفصل . لا عودة أبداً لأمس الذى نبذوه وخلصوا من خزيه .
لا رجعة بنقاش وكلام ولا إلى نقاش وكلام . الجسور التى عبروها إلى رأيهم
وباعدت ما بينهم وبين على ومن بقوا معه قد تحطمت واحترقت وتناثرت مع
الريح كالهشيم ...

ومع ذلك فقد ثبتوا نظراتهم على وجهه الذى لوح الغضب قسماته كأنما حرصوا
على ألا تفوتهم منه طرفة هذب أو اختلاجة شفة . . ثبتوها على كره وإنهم
لراغمون ، فما فى طاقتهم أن يقتحموه . . . إن له لسحرا يشد حنلاهم إليه ،
وسطوة روح تجذب الآذان والعيون . ولئن عرفوا — من السنة وافديه إليهم
طوال ما سلف من أيام — ما عساه محدثهم الآن به ، فإنهم لا يملكون حياله
إلا التطلع إليه بانتباه وترقب ، لا عن رغبة فى الأصغاء ، وإنما لإحساس يشيع
فى جنباتهم يخالون معه أنه يعلأ الأفق حولهم بهامته المربوعة ويسد منافذ الفضاء
فلا يتلفتون هنا أو هناك إلا وجدوه !

وسكنوا كأنهم جمود . وأتأرووه نظرات ثابتة لا تطرف كأنها أسلاك مشدودة
من مآقيهم إلى عجياه . واستغرقوا كل استغراق فى ملاحه ، فكل حركة الآن
تبدد منه إنما تبدد لغرض ، كما تبدد بمقدار . . .

أما هو فقد اجتاحتهم بنظرة طافت بجمعهم الحاشد وحصرتهم فى إنسان عينه
الدقيق . نظرة محيطية ، أسرة مسيطرة ، إن يكن فيها سخط ، ففيها كذلك نذير ،
وفى رثاء . . فما كثره قط أنهم من قبل قد خالفوه . وما يكرهه الساعة أنهم

مصرفون على خلافه والانسلاخ عنه . إنما الذي يكرهه منهم ولهم أن يلج بهم
سفههم حتى ليخرجهم من حظيرة الإيمان وهم يحسبون خروجهم الإيمان كل الإيمان .
وعندما همد الصوت ، وأطبق السكون ، واحتبست الأنفاس ، وغدا المكان
بما فيه ومن فيه أذنا مصغية ، سرت إليهم كلماته قاسية كضربات معول على صخر :
« أيتها العصابة . . . »

قليل جرس النداء العنيف قد اخترق عليهم قشرة الجلود التي غلفتهم ، وسرى
في عروقهم يرج دماءها رج الحمى دماء محموم . . . لعلمهم عرتهم انتفاضة . لعلمها
اتسعت الحدق . لعلمها رعشت الأهداب . . . أيما ثوبة نابوها آتشد من عالم الجهاد
لدنيا الأحياء — طالت أم قصرت — لم تنل شيئا من همود السكون المحيط الذي
تجمدت أنفاسهم على حواشيه تجمد الصقيع في صبح بارد على مدر صحراء . . .
واستطرد بنفس قسوة الجرس ، يسوط بصوته وجوههم وجوانب الفضاء
المحدود ، في تهمل وريث ، وهو يضغط على الكلمات ضغطا ينحلها حياة تزيد
قدرتها على التعبير :

« ... أيتها العصابة التي أخرجتها عداوة المراء واللجاجة ، وصدها عن الحق
الهُوى ، وطمح بها التزق ، وأصبحت في اللبس والخطب العظيم . . . »
ثم هدر في حديثه صوت القدر القاصف ، وعينه تقتحمهم إلى النهر الذي
تدافع مياهه على كشب ، ويرسم تدافعها انسياب أحداث لن يلبث ستر اللحظات
القلائل الباقيات من عمرهم أن ينجاب عنها لتبرز إلى عالم الوجود :
« . . . إني نذير لكم . . . أن تصبحوا تليفكم الأمة غدا صرعى بأثناء هذا
النهر . . . »

ولم يعض حديثه فيهم على طريق التهيب وحده دون أن يعيل إلى المحاورة
التي تجمع الترديد إلى التهديد ، والإعذار إلى الانذار . فما جاء اليوم ليلعاهم بقدر
ما جاء ليصرهم بغبة ما هم فيه ، عسى الله أن يحملهم بمنطقه إلى الصواب . . .
وحين سألهم يستنبثهم سر خروجهم من طاعته ، وانتفاضهم عليه ، تناثرت
منهم العبارات ترسم حجتهم ، فإذا هي لا تخرج في مضمونها عن نفس العلة التي
اعتلوا بها من شهور :

« الحكومة . . . »

عندئذ قال :

« . . ألم تعلموا أنى نهيتكم عن الحكومة ، وأخبرتكم أن طلب القوم إياها
وهن ومكيدة ؟ » .

فلم يكن لهم إلى الإنكار سبيل .

« ونبأتكم بأنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ؟ . . وأنى أعرف بهم منكم
— عرقهم أطفالا ورجالا فهم أهل المكر والعدو ؟ . . »
فبدا على ملاحظهم الإقرار .

« . . وأنكم إن فارقتم رأيي جانبتم الحزم ، فعصيتموني ؟ . . »

أجل . إنهم ليعلمون أنه صدقهم عندئذ النصيح بخالفوه . ولعلمون أيضا أنهم
ندموا على ما فرط منهم أبلغ الندم وأوفاه حتى لودوا لو محوا من صحيفة عمرهم
ماتلا صفين فعاد بهم الزمن ثانية إلى ساحتها والدعوة إلى تحكيم القرآن تزحف
عليهم من صفوف العدو ليقمعوها بحمد الحسام من جديد ! . .

وأحياء الإمام بكلامه كرة أخرى أمسهم المتأثم القريب ، والحنة المدمرة
التي جرها ضيق أفقهم ، وعنادهم المعقوت ، وجهالتهم الحقاء ، على أنفسهم
وعلى الإسلام :

« لقد اجتمع رأى ملئكم على اختيار رجلين ، أخذنا عليهما ألا يتعديا القرآن .
فتأها عنه . وتركنا الحق وهما يبصرانه . . »

فكأنما سرت ، للذكرى ، بين جمعهم همهمة تلوم تقيض ندما على ذلك الرأى
الخييط الذى اعتنقوه ، وتتنزى بالاستغفار لأنفسهم عنه ، ثم لا تخلو من الإزراء
بالحكيم وبالحكم معلنة سوء الأسلوب وسوء النتيجة . على السواء . . وكأنما
شاء الإمام على الأثر أن يخفف عنهم بعض هذا الذى يعانون من وطأة الإحساس
بالذنب ، فانتقلت يذب بعض الذب عن الوسيلة التي عساهم ركبوها
وفى نيتهم الإصلاح :

« . . إنا حكم الحكمان ليحيا ما أحيا القرآن ، ويعينا ما أمات القرآن .
وإحياؤه الاجتماع عليه ، وإماتته الاقتراق عنه . . فإن جردنا القرآن إليهم اتبعناهم .
وإن جردهم إلينا اتبعونا . . »

فهل لقي منهم تخفيفه هذا هوى أو موضع رضاء وإنهم لموقنون أنهم — إذ قبلوا التحكيم ودعوا إليه — قد قارفوا جرما لا قبل لأحد بالتهوين منه بنصاعة حجة ولا بقوة دليل ؟ . . . بل كلا . . . فالإثم إثم وإن نبع من دافع . والذنب ذنب وإن بررته المعاذير . . . وما ركونهم أمسهم الداهب لهذا التحكيم إلا حوية حوبة لا تغسلها إلا توبة ، وممصية لا يحطها عن كواهلهم إلا مغفرة يسبقها ندم يعيدهم إلى ظل الله وليس يملكها غير قابل التوب ، كاشف القلوب ، غافر الذنوب . . .

وما أحسب بعضهم عندئذ إلا قد تهامسوا بينهم بشعارهم الذى اختلط بكيانهم روحا ومادة ، ومملك عليهم منافذ الحياة والموت ، وعوالم الرؤية والرؤيا ، والسر والعلن ، فأوصد دونهم كل باب إلى دنيا الناس . . . ما أحسب إلا أنهم تهامسوا بعبارة : « لا حكم إلا الله ! » إظهاراً لاستمساكهم بالحق دون أمة الإسلام ، وإعلاناً عن نزوعهم — وحدهم — إلى الصواب بعد غي ، وإلى الهدى بعد الضلالة . . . ولئن كانوا قد استطاعوا هنية من وقت أن يطلقوا نفوسهم على سجيتهما ، فتجهر بما تهوى ، وتنفس عن الداء المكبوت معربة بذلك الشعار ، فإن اللحظات القلائل التى خرقوا خلالها جنة الصمت المهيمن على المكان ، وتردد فيها تلاغظهم بدعواهم ، ما لبث عمرها أن انطوى فى هدير صوت الإمام وهو يأتهم حاسم النبرة قاطعا عليهم التردد :

« . . . ألا من دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه ، ولو كان تحت عمامتي

هذه . . . »

وقرن قوله بحركة ارتفعت بها كفه تلامس عمامته ، وامتدت عينه تحتاج جماعتهم فى تحد عنيد ، وتكاد تخرق عمامتهم إلى ما تغطيه من رءوس . . . ولم يكن بهزل وإن كان يسخر . فتلك الطائفة المفتونة كانت — مظهرا ومخبرا — خليفة بالسخرية والتندر ، لا بسبب شعارها العقيدى الذى رفعته فدلّت به على هوس وضيق أفق وحرفية ، بل لأنها كذلك ، استزادة من إحساسها بالتفرد ، قد شاءت أن تجمع إلى الهوة الفكرية التى باعدت ما بينها وبين بقية العقول هوة مظهرية تباعد ما بينها وبين بقية الأبدان . فلقد ترجمت شعارها إلى

هيئة بدنية تعلم أفرادها عمن سواهم من الناس . ولو أنك حسرت عنهم العائم ،
لتثلث لك تلك الهيئة في رءوس حلقت أوساطها فبدت كالأرض الجرداء ، وترك
الشعر على حوافيها أكاليل مهدلة شعنا ، كأنها العشب الجاف . . .

وأخذتهم بلا ريب سخريته . ولكنهم فروا منها إلى نفس الحجة التي لم
يفتأوا يتذرعون بها تفسيراً لانقلابهم من نقيض لنقيض .

قالوا يبررون :

« إنا حكمنا ، فما حكمنا أئمتنا ، وكنا بذلك كافرين . وقد تبنا . فإن ثبت كما
تبنا ، فنحن معك ومنك . وإن أبيت فاعتزلنا ، فإننا منا بذوك على سواء ، إن الله
لا يحب الخائنين . . »

فتلون وجهه بالغضب لقولهم ، وصاح :

« أصابكم حاصب ، ولا بقي منكم آبر ! . . أبعد إيماني بالله ، وجهادي مع
رسول الله ، أشهد على نفسي بالكفر ؟ ... »

ثم انثنى يسألهم في استنكار :

« ... فإن أبيتم إلا أن تزعموا أنني أخطأت وضللت ، فلم تضللون عامة أمة
محمد بضلالي ، وتأخذونهم بخطي ، وتكفرونهم بذنوبي ؟ . . »
وتفرس في وجوههم ملياً يترقب ، لعل عبارة من هنا ، أو عبارة من هناك
تسرى إليه من بين صفوفهم برد مقبول أو غير مقبول . . . غير أن السكوت وحده
هو الذي أتاه لو تكلم سكوت ! . . وبقيت شفاههم مطبقة على حسر ، وعيونهم
تسيح في حيرة . حتى إذا عدم منهم الجواب ، استرسل يلقيهم الحجة التي ليس
لهم بدفعها قبل وإن نظراته لتطوف بهم وبما يحملون من سلاح ...

قال معاوداً السؤال :

« . . بماذا تستحلون قتالنا والخروج من جماعتنا ؟ . . سيفكم على عواتقكم
تضعونها مواضع البرء والسقم ، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب ؟ لقد
علمتم أن رسول الله رجم الزاني المحسن ، ثم صلى عليه وورث ميراثه أهله . وقتل
والقاتل وورث ميراثه أهله . وقطع السارق وجلد الزاني غير المحسن ثم قسم
عليهما من الفئ ونكحهما المسلمين ، فأخذهم رسول الله بذنوبهم ، وأقام حق الله

فيهم ، ولم يمنحهم سهمهم من الإسلام ، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله »
 فلو أنك شهدتهم بموقفهم منه آنذاك لحسبتك شهدت جسوما قد استعالت حجارة
 صلبة صماء استنزفتها الحجة كل نبضة حياة ، إلا تذاؤب المقل — حيرة — في
 المآقي ، ورجفة الثأنة — عيا — على الشفاه ! .. وهل لهم بمنطقه طاقة ؟ .
 وأنى لهم وهو يقارعهم رأيهم الخبيط المهزوز يبرهان الله وبسنة رسول الله ؟ .
 إنهم الآن لفي تيه ، يستشعرون معه أن الدنيا كلها حولهم فراغ وهباء ، بلا نامة
 صوت ، ولا لمسة نسمة ، ولا صورة موجود ... بل ذواتهم أيضا قد هانت ،
 وراحت تتضاءل وتتضاءل من تخاذل وخزي كأنما تذوب في ذلك التيه ... أفعدوا
 إلى عدم ؟ .. أم تلك غشية أخذتهم أو سنة نوم ضربها عليهم جبروت بيانه للفهم
 فلا يستطيعون قولاً ولا إشارة ؟ . . . وحين وسمهم أن يشربوا إلى بعض وعى ،
 سمعوا كلماته تتعذر إليهم — كأن في حلم — مبينة بلا جرس ، معبرة بلا رنين ،
 كما ينفذ لفتح الشمس — بغير وهج — من خلال كسفة ضباب . . .

ولقفت آذانهم من مقالاته كلمات ، تندد بسلوكهم وتلعاه :

« . . . إن هذا هو الخسران المبين ! . . . والله لو قتلتم على هذا دجاجة

لعظم عند الله قتلها ، فكيف بالنفس التي قتلها عند الله حرام ؟ . . . »

فلم يجدوا وسيلة تجنهم من لومه ومنطقه إلا أن يسيجوا أنفسهم بالعناد ،
 شأن العاجز اللعنت ، الذي تعضل به المناقشة ، ويعيبه تلمس منفذ يلاقى من خلاله
 الرأي بالرأى ، والدليل بالدليل . . .

انتفض بعضهم يريب بمن لعلمهم قد يحدتهم اللجاج بمحاولة اصطناع جواب .

« لا تخاطبوهم ! . . . »

وصاح آخرون :

« لا حكم إلا لله ! . . . »

وهتف فريق :

« تمياًوا للقاء الرب ! . . . »

وهبت الصفوف وهي تهز السلاح في أكفها تصيح :

« الرواح الرواح إلى الجنة ! . . . »

نداءات توالى تتعالى فى الجو ، وتنتشر بأصدائها إلى ما يجاوز المكان ويعدوه ، لا ساقها عقل ، ولا بعثها حكمة . إنما فاضت عن الصلف والغرور وأنفه الرجوع عن رأى رأوه إلى رأى يخالفه ولو كان لهم فى هذه المخالفة أمان وحياة ، وللأمة صلاح ونجاة . . .

ولم ينبس الإمام . أطبق على الألم فيه الممرور ، وترك فؤاده يتحدث بشجوه ، رثاء لهم ، وحسرة عليهم . ثم راح يعد بصره بعيداً عن ملتقى الجمع والضجيج والضوضاء ، إلى النهر وراءهم وهو ينساب فى مجراه ، وقد بدت أثنائه وجوانبه كأنها تفغر أفواهها انتهاءً للوليمة المقبلة . ففى ترى شاطئيه ، عما قليل ، سينطوى صرعى عصاة العناد والمرء .

٧

رتب على رجاله . .

الفرسان فى المقدمة ، من ورائهم النبالة ، تليهم الرجالة . وعقد ألوية الفرق لحيرة أصحابه ، وأصبرهم على القتال . . .

وكان الجيش ، كألوف التنظيم آنذاك ، قلباً وجناحين . فى القلب أبو قتادة الأنصارى ، وعلى الميمنة حجر بن عدى ، وعلى الميسرة شيب بن ربيع ومقل بن قيس الرياحى . وقاد الخيل أبو أيوب ، وأهل المدينة قيس بن سعد ابن عبادة . .

ولم يعن الإمام بهذه التعبئة أن ينشب الحرب ، ولا أن يخوف ويرهب ولكنه أعد وتياً فما يدرى كيف يتطور الأمر وهام الآن خارجة النهر على أهبة أشد من الأهبة ! على شغف وشوق ! فلقد كسروا جفون السيوف ، وعرقبوا الخيل ، وجثوا على الركب يوشكون بهذا التحفز أن يطيروا إلى الالتحام متعجلين موعده . وهل دونهم اللحظة غير خطوة واحدة إلى الأمام ليلتقوا مع الله ؟ . .

كذلك نحسب . وكذلك هم يوقنون . . فعلى نحو من الأنحاء — وإن خالفوا آنذاك برأيهم جماعة المسلمين — كانوا فئة قد تنسى لها كل فضيلة ثم يعسر إغفال أنها أرباب دين ، يتمسكون به ، ويذودون عنه ، ولا يبيعونه بغير شخص ولا غال . فئة نهجها النسك ، ومنوالها الزهادة ، وطريقها عبادة الله . ما طلبت ضللاً من

باطل ، وإنما طلبت حقاً فغررت بها شبهة أوقعتهما في المحذور . و « ليس من طلب الحق فأخطأه ، كمن طلب الباطل فأدركه » كما قال عنهم الإمام . . .
ثم هاهم — في ربة الرأي المشبه — يجرون شوطهم كله إلى غايته . إلى نهايتهم . إلى أقسامهم المترتبة بهم عند حافة النهر ، والإمام يشهد اندفاعهم فيود لو يردهم ليجنبهم هذه الأفذار . . إنه ليأسى لهم . ويستشعر الألم من كل خطوة يخطونها إلى مجمع المصارع كأنما يطأون قلبه بالقدم وبالحافر . . وإنه ليرجع بذهنه القهقري ، فتشط ذاكرته وتستضيء . لتستحي صورة من الماضي البعيد ، ما زال تتجمع خطوطها ودقائقها ، بما تضم من ظلال وأضواء ، لتبرز حياله كاملة ، قد مثل فيها رسول الله بين أصحابه ، يتحدث إليهم ، وينساب صوته مع الصورة ، عبر الزمن والمسافات ، ومن وراء الأعوام والتخوم :

« إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما فاتلنا على تنزيله » .

فيهب إليه أبو بكر ، وإنه ليرجو أن يكون هو ذلك الذي عناء بالحديث :

« أنا يا رسول الله ؟ . . »

« لا »

فيتقدم على الأثر عمر بن الخطاب . لم لا وها هو ذا شرف يخايله ويدنو منه بعد

أن فات رفيقه ، وإنه للحقيق به — لا ريب — بمد الصديق .

ويسأل ، في تردد وشغف :

« أنا يا رسول الله ؟ . . »

« لا . »

ثم يتبع محمد رده بلفظة إلى ابن أبي طالب ويقول :

« بل خاصف العل »

وكذلك آن للنبوة أن تحرك الأحداث . . .

ويتفكر على ، والد كرى تفيض بواعيته وتعلأ عينيه . .

نعم تأولوه تأولوا القرآن فأخطأوا التأويل . اجتهدوا الرأي فاشتبه عليهم

الأمر ، وكبا الرأي بهم في غير ما أرادوا ، فإذا النتيجة تخالف النية ، وإذا العقيدة

تغايير الإرادة ، وإذا الأنفس تزل على كره وتزل معها الأقدام فتزلق بهم إلى هذا

المقام ، بهذه الأرض المنكودة عند النهر الذي يوشك أن يلتهمهم ماؤه وشاطئاه ! .

ويطوف يبصره فيهم هنية ، ثم يرده عنهم إلى جمهرة أصحابه يوصيهم ، ويؤكد لهم ، وإن رحمته لتلك الفئة المشبهة لتكاد تسبق في قلبه عزيمة القصاص :
« لا تبدأوهم بقتال حتى يبدأوكم .. »

حتى إذا رأى قوله قد وقع موقعه ، وعان من رجاله علائم الامتثال ، التفت إلى الخارجة يقول :

« عباد الله . . أقيدونا بدم عبد الله بن خباب . . »
فهل أثر فيهم نرفته ، وحملتهم دعوته السمحة على نبذ العنف والنزوع عن العناد ؟ . .

كلا ! . . بل هبوا جميعا ، في صوت واحد ، يهتفون :
« كلنا قتله ! . . »

غير أنه لم ييأس ، وما كان لييأس وئمة بصيص رجاء في فيثهم إلى السلم ، ورجوعهم إلى جاده العقل والصواب . . لكأنما خشى أن يأخذ فيهم البريء بالمسيء ، والحق بالمبطل ، فعاد يخاطبهم ليستوثق كل استيثاق :
« . . فانفردوا كتائب ، لأسمع قولكم كتيبة كتيبة . . »
ففعلا . وراح هو يتأملهم بعين هادئة ، ويسألهم في لين ، زمرة زمرة ، وكتيبة كتيبة . .

لكنهم لم يغيروا . فرادى وجماعات كان الجواب الذي صكوا به مسجيه نفس الجواب .

« كلنا قتلناه ! . . »

وازدادوا عتًا ومغالاة :

« ولنقتلك كما قتلناه ! . . »

ومع ذلك فقد صبر . ما عليه إذ فعل ؟ . فمسي الله أن يخرج خيرا من شر ، ويكتب هدى ونجاة ، لهم ، أو اطائفة منهم ، لو نزع للأناة . .
كرة أخرى رأى أن على لهم في المراجعة والتفكير . . مضى و سكون يرود الوجوه المظلة من اللحي الكثيفه ، ويقرر بنظراته الثاقبة جلودها المرتخية والمشدودة عن دخائل النفوس . . على ملامح بعضها جمود أخرس ، كأنه الموت ،

يحسم الإصرار . . على ملامح غيرها وجوم يثل الضياع . . على ملامح أخرى
اختلاجات تنبئ عما يعمل في الصدور من صراع . .

ثم رمى بآخر ما في جعبة صبره من ترفق وريث وإمهال . فدفع راية أمان
إلى أبي أيوب الأنصاري ، أمره أن ينشرها ، ويدعوهم ، ليلوذ بها منهم من شاء
من عسى يهديهم الله . .

ونادى عليهم أبو أيوب :

« عباد الله . . من جاء هذه الراية منكم ، ممن لم يقتل ولم يستعرض ، فهو
آمن . . ومن انصرف منكم إلى الكوفة ، أو إلى المدائن ، وخرج من هذه الجماعة
فهو آمن . . »

وتلبث بهم قليلا ثم أكمل ، يوضح لهم ، بلا مواربة ولا إخفاء :

« . . عباد الله . . لا حاجة لنا — بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم — في
سفك دمائكم . . »

وسكن الصوت . وران الصمت على المكان حتى لأشك ألا تسبح فيه غير
الأنفاس . . .

للحظة بدا كأما حركة القوم التي كانت عملاً الجو من قليل ، وتشيع في جنبانه-
الضجيج ، قد انتقلت كلها إلى العقول . . للحظة لاحوا يراجعون النفس ، ويزنون
العرض السمع ويعايدون قيمته وجدواه . . للحظة وضعوا أمسهم وحاضرهم في
كفة وإزاءه في أخرى وضعوا مصير الأمور . . ولم يكن مصيرهم هو الذي عناهم ،
ولا الذي دفعهم إلى التدبر والتفكير . ولكن شرارة من شك لا بد قد ومضت
آنذاك في أذهانهم فلسعت بعض ثقتهم فيما اعتقدوه ، وردتهم حيارى بين التردد
والانصياع ، وبين المكابرة والرجوع . .

وأثمرت الدعوة . . هزت فيهم الريب كما هزت اليقين . فإذا أحدهم ، فدوة
ابن نوفل الأشجعي ، يردد لنفسه ، ثم يصارح أتباعه :

« والله ما أدرى على أي شيء نقاتل علينا ؟ . . لا أرى إلا أن أنصرف حتى
تتفد لي بصيرتي في قتاله أو أتباعه . . »

وانصرف في خمائة فارس ، يغادر وإياهم الميدان . .

وإذا الطريق يستضيء أمام فئة ثانية ، تتبين لنفسها النهج الأقوم ، فتسرع — إذ تحررت من أسر الشبهة — لتلتحق بالإمام ، وتنتظم في صفوفه . .

وإذا آخرون ، جماعات وفرادى ، يتفرقون — على تردد أو عن اقتناع — منسولين من مواقع العصبة المناوئة ، إلى الدائن ، أو الكوفة ، أو أى مكان غير هذه وتلك ينأى بهم عن ساحة القتال . .

أما البقية التى أزلتها الشبهة ، واستذلها العناد ، فقد أخذتهم عزة الأنفة المضلة ، فأصقوا القدم بأديم الأرض ولو وسعهم لغاصوا بها فى مواطنها ضمانا للرسوخ والثبات ! . . ثم هبوا على الأثر ، بنبرة راعدة كالهزيم ، يتصايحون :
« لا حكم إلا لله ! . . »

ومن بينهم انقلت فى ناء بنباته ، يشهر سلاحه ، ويخبط به حينما وقع منانه رجال الإمام ، نعمة وحقدا ، وهو يرتجز وفى صوته يترنم شيطان :
« أفتلهم ولا أرى عليا ولو بدا أو جرت الخطيا » . .

وبهت الناس لهذه البغلة . فلقد سقط ثلاثة منهم صرعى وما زال الراجز يتغنى بفخره ، لكن عليا ما لبث أن انبرى له فكان أسرع إليه من عبارته على شفثيه ومن ارتداد طرفهم عنه ، وعاجله بضربة صعقته وأحمدته لسانا وأداة قتال ! . . ومع ذلك فقد ملك جناته ، ولم يتبع الضربة غيرها ، ولا لاقى عدوانا بعدوان .
إعنا عاد فى هدوء يؤكد لأصحابه :
« كفوا عنهم ! . . »

فكأنما أغرى الخارجة به وبصحبته هذا الحلم ، فرمت صفه رميا حرك الحمية ، حتى صاح بعض رجاله :
« يا أمير المؤمنين ، قد رمونا . . »
فأعادها :

« كفوا ! . . »

ثانية وثالثة ردهم عن القتال . عن مقابلة العدوان بثله ، وفى يقينه أن الإمهال خليق بالاتباع إعذارا لعدوه ، وإعذارا لنفسه أيضا أن تلتطخ يدها بدم عسى مشيئة الله تسبق غضبة الإنسان إلى حقنه والإبقاء عليه . . فلما أبى الله أن

يرعوا عن النى ، ولاح كأنما شيطانهم يعدم بزاد جديد من المكابرة يسعون به
شعلة الحرب التى رحا لها الإبطاء ، ألقى هنيئة بأذنه إلى صياحهم المحموم :
« لا حكم إلا لله ! ! ! »

ثم مال عنهم إلى جنده ، يفسر لهم حكمة التمهل :
« كفوا عنهم حتى يبدأوكم ، فإنهم لو قد شدوا عليكم — وجلهم رجال —
لم ينتهوا إليكم إلا لاغبين وأنتم رادون جامون . . . »
وكذلك كان منطق القتال . فالمدو فى أغلب جمعه مشاة ، بعد إذ رحل فدوة
وفرسانه ، يقتضيه للقاء مبارحة مواقعهم ، بكل عدتهم ، سيرا على الأقدام ،
دون دريئة تحميهم عصف الخيل المناهضة . وفى هذا عناء ومشقة ولعب ، تنال
من طاقة الاحتمال . وتحد ، قليلا أو كثيرا ، من قدرتهم على الثبات للقتال . .

وأقبلت الخارجة زاحفين ، يختلط فى صفوفهم المندفعة هزيم الصياح بهدير
الأقدام . وعلا الرهيج ، وثار الغبار . وحملت الأنفوس بعد إذ نشطت الأوصال .
وضاقت الشقة رويدا رويدا بين الجمعين ، ولكن جند الإمام ظلوا كافين ، على
تربس وأهبة ، وفى مكينة وهدوء ، لا يقدمون ولا يحيدون . . .
فإن هى إلا لحظات من بعد حتى انطلق الخارجة انطلاقة إعصار محتاح ،
يشدون على خيل على ، وهم يرددون صرخة الجهاد :

« الرواح الرواح إلى الجنة ! ! ! »

عندئذ نادى الأمام أصحابه :

« الآن طاب الضراب ! ! . شدوا . . »

والتعم الفريقان .

لكن الخيل ناءت بثقل الهجمة العنيفة ، فانفرج صفها ، والتوت بها الأعنة
إلى الجانبين ، كأنما لا تقوى على الصمود ، وكأنما الأرض تحت سنابكها تعيد
فتحاول أن تلوذ عنها بمواطن غيرها جديدة ، لعلها أصلب موطنًا ، وأسب
للثبات وانقارار . .

ولاح لكل من شهد الواقعة أن الصف الأول ، والأقوى ، من جيش على راح
يتقصص أمام يأس المهاجمين ولم يعد جنة لمن وراءه تحميهم وترد عنهم عادية

الانقضاء ، بل غدا باباً مفتوحاً على مصراعيه ، تلجئه إليهم الهزيمة طائفة بجناحي إعصار . . .

أفتلك الشدة القاصفة — تؤازرها البغته — هي التي أذهلت الفرسان ، عن أنفسهم وواجبهم ، فزحزحت الخيل ، وأزالتها عن مواقعها في مثل لمحة الطرف ، أم قد كان وراء هذه الحركة المتخاذلة خدعة قتال ؟ . . .

ليوشك الأكثرون أن يروا في تزايل الخيل دحرة مقهور . . . وفي بلوغ الخارجة مبلغها هذا من القتال بداية انتصار . . .

لكن الأحداث هي التي تحسم وتحدد ، وتأتى وحدها بعقب الأمور . . . وهي لا تحسم ولا تحدد إلا عن استقرار واع لسكافة العوامل النفسية والمادية التي يتحرك العدو بوحى منها ، وفي نطاق قدرتها المحسوبة المعدودة . فإذا قررت من بعد ، فقرارها عندئذ مقرر بخطة محكمة ، أصابت التنبؤ بكل احتمالات الموقف لدى خصمها ، وكل بادرة سلوك لعلمها تند عنه ، ليقابلها بما ينقض تدبيره ، ويلوى النتيجة إلى غير ما يرضيه . . .

وهكذا قرر الإمام .

فلم يكن عبثاً أن رتب جيشه كما رتب ، فقدم الخيل التي تخفى من ورائها رامية يذودون حين البأس عن الرجال

ولم يكن عبثاً أن أمر — رجاله — وإن أنارهم عدوهم مراراً بغاراته المفاجئة — أن يكفوا عن القتال ، حتى يحتمل الهجوم الباغى ، ويلتحم الجيشان أوثق التحام . . .

ولم يكن عبثاً ، ولا عن دحرة — فيما يلوح — أن ينشطر صف الخيل أمام هجمة الخارجة شطرين ، شطرا إلى يمين ، وشطرا إلى شمال ، كأنما قد تقوض وانهار . . .

لم يكن هذا كله وغيره عبثاً ، وإنما كان — بلا جدال — عن تقدير وتدبير ، بتخطيط وإعداد ، كل خطوة بحساب ، وكل حركة بمقدار . . .

فما إن لاحت الخيل تنهاوى تحت طرقات الهجمة المفاجئة ، وترتد إلى يمين ويسار ، حتى انفتحت ثغرة في الصف ، مرقت الخارجة من خلالها كالسهم ، مفضية إلى قلب الجيش الذى كشفته دحرة فرسانه . . .

بداية نصر لا شك فيه ، لمن أخذ بظاهر الأمور
ولكنها في الحقيقة بداية بوار . . .

فإن هي إلا لحظات حتى انقلب الميزان . . .
من طريقهم الذي شقوه للظفر ، فاجأهم الخطر بأسوأ ما يمكن أن تجيئهم
بهم المفاجآت . . .

إن قلب الجيش العلوي لم ينكشف لسلاحهم آنذاك ، بل هم الذين انكشفوا
له ، حيثما لا جنة تجنهم عنه ، وتحميمهم منه ، ولا فرجة للملاذ ينأون فيه عن
ضرباته ، إن إلى بعيد ، أو إلى قريب . . .

فما كادوا يلجئون الثغرة ، ويغوصون في جيش المسلمين غوصا حسبوه فاتحة
الظفر ، حتى استقبلهم أولئك الرامية — الذين أعدت لهم من قبل مواقع معلومة فيما
على الخيل — برشقونهم بالنبل ، ويغرقونهم من قذائفهم الطائرة في سيل . . .
وأخذتهم المفاجأة . . .

ثم عاجلتهم المنايا ، ولما يفيقوا من أثر البغثة . . .
لا مهرب الآن . لا ثغرة لنجاة لا سبيل إلى الارتداد . . .
فهاهي النبل أمامهم لا تنى تضرب منهم الوجوه والقلوب .
وهاهي الخيل التي حسبوها ولت ، تأتيهم عن جانبيهم ، تكرر من هنا كرة ،
ومن هناك كرة ، ليلتهم ثانية صفها المشطور . ثم تعطف عليهم بالموت . . .
وهاهي ميسرة الجيش ، وتلك ميخته ، تطبقان عليهم ، ويعمل فيهم رجالهما
الرماح والسيوف .

ثم هاهو القلب أيضا ، وهو راد جام لم ينله منهم شيء ، قد شارك في استكمال
محنتهم ، التي لم تجل لهم في بال .
من وراء وأمام ، ومن عين ويسار ، سارعت إليهم المصارع ، وهم بينها
حبيسو حلقة محكمة الإغلاق . . .

ودارت الرحي فطحنتهم ، وما كان أسرع الدوران . . .
أحمدوا في ساعة ، وما أفاقوا بعد من نشوة النصر الذي استطعموه . . لكأنما
قليل لهم موتوا فماتوا . . . وكأنما كانوا على موعد مع النصر والموت في آن . . .

٨

مال الإمام إلى مجمع المصارع ، على حافة النهر ، يسبح بناظره في الجثث
الشوهاء التي طعنتها الحرب ، وإن الأسف ليملك عليه نفسه ، على هذه الغروس
المهوج التي طالما ود لو قوم أعوادها فعمادته في أملة الأقدار . .

وقال في صوت هامس خفيض :

« يؤمنا لكم . . . لقد ضرركم من غركم . . »

وسمع الهمسة بعض رجاله ، فسألوه :

« فمن غركم ، يا أمير المؤمنين ؟ . . »

قل :

« غركم الشيطان ، وأنفس أمارة . . غركم الأمانى ، وزينت لهم المعاصى ،

ونباتهم أنهم ظاهرون . . »

والنفث به جماعة المسلمين تسير وإياه في رحلة الموت على جانب النهر . . أينما

أجالوا البصر كان صرعى وكانت أشلاء . . وأينما ألقوا السمع كان حسيس من

بين تلك الأكداس التي فرشت الثرى بالدم ، يتم عن أنه خافته — تكففة سراج

جف زيته — تلفظها ، وما تكاد ، شفتان أخذت تنطق . عليهما ذبالة الحياة . .

لا معالم ، هنا وهناك في الساحة القسيحة ، إلا لعدم ، ولا مظاهر إلا لفناء .

الخارجة ذهبت مع الظهيرة المولية . إلى غير عودة ذهبت . . مالت إلى مغيب عن

وحه الأرض كالشمس الجانحة نحو الغروب . . غدت ذكرى . . عبرة في خاطر

ذاكر ، وعبرة في عين محزونة ، وحديثا على لسان راوية . .

ولم يخلفوا غير أثر لا يذكر . . قلة بقيت ، تتردد القلوب في صدورهم واجنة

بينما قد أهدتهم الجراح . . وكثرة مضت إلى نشأتها الأولى تخالط التراب لتحول

إلى تراب . . في جانب من أرض الواقعة رقد إمامهم الراسي ذو الثغفات وفي جسده

الممزق رمحا هانىء بن خطاب الأرجسي وزيد بن خصفة . . في جانب آخر

انبطح زيد بن حصين بضربة رمح تفذت من صدره إلى ظهره . . في ناحية يجندل

حرقوص بن زهير ، وفي أخرى همد شريح بن أوفى . . أشياخهم هلكوا جميعا

ولم يبق إلا نكير من عرض الأتباع قد أئختهم الجراح . .

ما كان أغناهم عن هذه العقبي المشئومة . . . ما كان أولاهم إذن بالإصغاء
إلى نذيره وهو يحذرهم الخنوف والمصير الخوف . . . أقد كفت لحظة عن النصيح ،
وعن الإعذار ؟ . . . أخفى عنهم ؟ . . . أطبق دونهم سجل القدر على البلاء
المتنظر ؟ . . .
بل كلا . . .

لتوشك أصداء حديثه المحذر الزاجر أن تظل لها — إلى الآن — بقية عالقة
في الجو ، تحمل النذير وترسم المصير . . . الهواء لم يبدد الأصداء ورهيج الوقعة
لم يغلفها بعد بغلالة ضباب تصدها عن التردد والانسياب . وضجيج المعركة — من
صليل السلاح ، وصهيل الخيل ، ووقع الأقدام — لم يذوبها في العدم . . . والذين
قد بقوا منهم حطام رجال إلهثات مبهورة ، يسمهم أن يلقفوا من هذا الحو
الواجم الساكن ، مع آخر ما يلتقطون من أنفاس ، كلمة أو عبارة مما قال . . .
ولقد سبق أن قال ، وإنهم ليندفعون للقتال :

« مصارعهم دون النظفة والله لا يفلت منهم عشرة ، ولا يهلك منهم
عشرة . . . »

وصدق . ما نطق عن هوى . لكأنما كان يقرأ الغيب من كتاب مفتوح .
وها هي القلة المحتضرة تشهد في أنفسها ، وفي أشلاء جماعتها المبعثرة حولها ، آية
صدقة فتستوثق حين لا غناء في تصديق . . . وهام أولاء أصحابه يرون نبوءته
رؤية عين لا رؤية تصور أو خيال . . . عيونهم تعلوها الآن — وهم يذرعون معه
شاطيء النهر الدامي — النتيجة المسبوقة الواقعة ، المقدرة المقدورة . . . في كل
مكان بهذا الميدان ، لا تقع من عدوهم إلا على قتيل . . . على مناظر نصر لا يسبق
ذهن إلى مثيله . . . على مشاهد هزيمة بلا نظير . . . على معالم بوار ساحق ماحق
هو الفناء . . . لكأنما ترجمت رمية القدر عن عبارته ، أو كأنما ترجمت عبارته
عن الرمية . . . حرفا حرفا ، وكلمة كلمة تجسدت العبارة في صورة . . .

لكنه كان — مع الذي لقيه من نصر — بادي الهم ، مشغولا بهذه الأرض
اللزوعة بالجثث والجحاشم ، لا ينى يبحث في كل شبر ، ويتفرس في كل صريع . . .
كان يعضى على قلق . ويحيل بصره على قلق . ويكاد ينبش التراب ويغوص في ماء

النهر عساه يعثر على ما يسعى إليه . . ومن حوله طائفة من رجاله ، تفعل فعله ، وتسعى معيه ، تسبقه آنا ، وتتأخر آخر ، ثم لا تلبث أن ترتد إليه ، وفي نظراتها حيرة وإخفاق . .

ويهتف بهم حين يعودون :

« ويحكم . . . التمسوا الرجل فإنه في القتل . . »

ويعودون إلى ما كانوا فيه ، ينبشون ويفتشون . ثم يكرون إليه مرة وثانية وصرات وليس في وقاضهم ما عناء . .

والحيرة تسيطر ، والقلق ينتشر ويشع . . ومع ذلك فإنه لم يئأس ، ولم يجد به القنوط عن متابعة وجهته . كان موقنا أشد اليقين أنه واقع حتما على طلبته حينما أراد الله أن تكون . لا شك ولا مرأ . فما كذب عليه من لم ينطق إلا عن بينة من ربه وبرهان . .

وحينما تبين اليأس في وجوه أصحابه ، وأحس أن جهدهم الضائع يوشك أن يحوزهم إلى راحة الإستسلام ، عاد يحثهم ويحفز عزيمتهم :

« والله ما كذبت ، وما كذبت اطلبوا الرجل ، وإنه لفي القوم . »

بهذه اللهجة القاطعة خاطبهم ، وإنه لوائق كل الثقة بما يقول . مؤمن كل الإيمان بأنه سيعثر على الرجل في القتل ، إن اللحظة ، أو في ساعة ، أو بعد ليال وأيام . . فما كذبه محمد . والأعوام التي انصرمت إلى اليوم منذ وقعة « حنين » لم تكن لتبلى نبوءة الرسول الصادقة أو تغير منها في قليل ولا كثير . . .

ومع ذلك فملأهم الضيق لم تغادر قسامته . والقلق النفسى ما فتى ينتهبه وهو يشهد رجاله يروحون ويغدون في غير طائل . حتى إذا عيل صبره ، وطال عليه الانتظار ، رأى أن يحسم حديثهم ، فنأدى على بضعة منهم دانية منه :

« اتئوتى بيغلة رسول الله . . . »

وجاءوه بها فامتطاها وهو يقول :

« . . إنها هادية »

ثم مضى ، وهم يحفون به ، يرتاد المسكان ، لا يدع منه ناحية دنت أو بعدت إلا طوف بها طواف تحقق وإيمان ، ولا صريحا مجذلا إلا تفحصه أو أمر رجاله

فقلبوه أمامه ظهرا لبطن ليغوص بناظريه فيه . . حتى إذا بلغوا من شاطئ النهر
وهدة غائرة قد شرقت بجثث القتلى وافعمت بها إلى الحافة ، مالت به البغلة إلى
جانب به خير ، وتوقفت سن السير . . .

هنا ترحل يجيل بعمره في تل الصرعى . ثم دعا أصحابه أن يفرقوا الجثث ،
وينشروها جثة جثة تحت عينيه . . فلما أفرغوا الوهدة وبلغوا أسفلها دون أن
يعثروا في قاعها على ما يطلبون ، أوما الإمام إلى أحد رجاله وهو يشير إلى
جانب الحرير :

« فتش هذا . . »

وبادر الرجل . فإذا يده الموغلة في الماء تقع تحت أطباقه على شيء ما إن
أطبق عليه حتى صاح :

« هذه رجل إسان ! . . »

وجذبها إليه كأنما ليستنقذ صاحبها أن يترحل به تيار النهر . وأسرع الإمام
يعاونه ، ويجذب الرجل الأخرى ، حتى إذا جرا الجثة ووسداها التراب على
حافة الماء ، طالعهم منها قتيل يعلمه سواد لونه ، وثخن ريحه ، وقطعة لحم على منكبيه
كثدى المرأة عليها شعرات كشوارب الهرة ، إن مددتها غدت كذراع ، وإن
تركها تقلصت وعادت إلى شكلها الأول ككثدى مهمل . .

وصاح الناس حين تبينوه :

« ذو الثدي ! . . »

وخر على ساجدا ، شكر الله ، وهو يقول :

« صدق الله ورسوله . . »

وهللت جماعة المسلمين :

« الله أكبر ! . . الله أكبر ! . . »

وامتلا المسكان ، هذه الساعة من الأصيل ، بهدير التكبير ، يسلمه العصر
إلى المغرب ، ويسلمه المغرب إلى العشاء ، فألى الليل كله ، أوله ومنتهاه . . .
أما الإمام فقد سبغت روحه في طمأنينة ملكت عليه كل حواسه ، وأشفت
به على ذلك المجلس الذى شغله بأمر هذا القتل ما حدث فيه . .

إنه مجلس الرسول ، ومحمد قد توسطه يحف به أصحابه ، وغنائم حنين التي غنمها المسلمون أمامه يقسمها بين الناس . .

ويقبل عندئذ ذو الخويصرة ، أحد بني تميم ، يشهد القسم الذي يجريه رسول الله . فإذا الشيطان يستذله ، فيصور له الحق باطلاً والباطل حقاً . وإذا جلافته تذهب به إلى التطاول على رسول الله ، فيصبح مزرعاً بتقسيمه :

« اعدل يا محمد ! . . »

فيعرض النبي عنه .

غير أنه لا يكف ، بل يكرر الإجراء :

« اعدل يا محمد ! . . »

ويعرض النبي ثانية ، كأنما ود بإعراضه أن يعلل لهذا الجلف في الرجوع عن رأيه الظالم . .

ومع ذلك فإن ذا الخويصرة لا يفيد من هذا الحلم الممدود له ، بل يعاود ثالثة ، ممعنا في بهتانه :

« اعدل يا محمد فإنك لم تعدل ! . . »

عندئذ يرد الرسول :

« ويلك ! . . ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ . . »

ويتبدى على عياء الكريم غضب يدفع أصحابه إلى الضيق برجل بني تميم المكابر الزنيم ، وإلى مخط قوله ، فينبري بعضهم وقد أثارهم مسلكه ، يقول للرسول :

« يا رسول الله ، إئذن لي أضرب عنقه . . »

لكن محمداً ينهاه :

« دعه ! . . »

ثم يتبع النهى بقول ابن تلبث الأعوام من بعد أن تحقق كل ما ورد فيه ، وترجمه إلى حقيقة واقعة . .

يقول لهم رسول الله :

« ... سيخرج من ضنفيء هذا ، قوم يرقون من الدين كما يرق السهم من

الرمية . ينظر أحدهم إلى نصله فلا يجد شيئاً . فينظر إلى بغيته فلا يجد شيئاً . ثم ينظر إلى القذد فكذلك . سبق القرت والدم .. يخرجون على حين فرقة من الناس ، تحترق صلاتكم في جنب صلاتهم ، وصومكم عند صومهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم . . آيتهم رجل أسود ، محدج اليد ، إحدى يديه كأنها ثدى امرأة . . . » ثم يكمل يقول :

« . . إنهم شر الخلق والخليقة ، يقتلهم خير الخلق والخليقة ، وأقربهم عند الله وسيلة . . »

... ويمود الإمام من رحلة الذكريات بنفس مطمئنة هادئة ، وقلب عامر بالثقة واليقين ، وبصيرة مجلوة قد استضاء أمامها الطريق . فقد قتل ذا الثدية ، لحقت بهذا فراسة الرسول في الأمر كله — في استقامة نهجه هو ونهج أصحابه ، وفي بطلان قضية الخارجة الذين مرقوا من الدين ، وغدوا الآن صرعى بأثناء النهر ...

عز نصرهم . الخوف الذي أوثك أن يشاهم وهم بالكوفة قبيل الواقعة كأنما غلبوه الآن بالنهر . فلا خارجة . ولا فرصة تسنح لكرة على نسائهم وأطفالهم بالكوفة ممن عسكروا على مشارفها ، وراحوا يشيعون حكم الإرهاب ويستعرضون عباد الله بالتنكيل والقتل . ولا مبيت من بعد لنكسة ينتكسها أمرهم عليهم ، وقد ذاب عدوهم في الموت كما ذابت طلعة هذا النهار من أواخر أيام السنة الثانية لإمرة على في غبشة الغروب . .

الساعة التي قضوها على قدم ، يضربون فيثخنون ، بالنهروان ، جنبتهم القلق والفرع والعورة المكشوفة التي ظلت طويلا شاغلهم الشاغل . . أصحاب النهر أصبحوا اقي مضيعا على شاطئيه . جماعتهم المشاقة العادية غدت كلها قطعة من القناء . همدت عديدا ودرست عدة . وحين تلفتوا حولهم في الميدان لم يروا حيالهم منها - سوى بضعة لم تبلغ عشرة ، ثم فريقا من مكلومين وجرحى بغير حول ولا حيلة .

وشغلوا أنفسهم قليلا عن بقي بهم رفق من أوثك المدحورين يستنقذونهم من بين القتلى والأشلاء . فما يجدر إلا أن يحفظوا عليهم بقية الأنفاس . ولا هو يقبول في شرعة صاحبهم أن يجهزوا على جريح ولو جاء الإجهاز عن إهمال وتغافل . فكذلك أمرهم . وكذلك برأيه تسير خطة الانقاذ .

وقال لهم :

« ادفعوا بهم إلى عشارهم . . »

ثم مال إلى المشائر يوصيهم :

« احمولهم معكم فداوهم ، فإذا برأوا فوافوا بهم الكوفة . . »

ولقد بدا من أصحابه كأنما قد عنثهم الغنائم والأسلاب في معسكر عدوهم

فودوا لو احتازوها ثمنًا للنصر ، فإذا هو يردم عما ودوا ، ويبين لهم :

« . . أما السلاح والدواب وما شهدوا به الحرب فقسمة بين المسلمين ،

وأما المتع والعييد والإماء فمردود على أهله . . »

ولم تعد لهم من بعد بساحة الموت حاجة ، فقد انطفأت الحرب ، وجمعوا السلب ، واحتملوا الجرحى ، إلا أن يحملوا الأرض بها مجازا إلى غايتهم التي من أجلها بارحوا الكوفة . لم يبق لهم بعد هذا النصر السريع المؤزر ، إلا أن يولوا وجوههم شطر النصر الأشق الأكبر . . .

وأوجز الإمام لهم هذه الغاية في كلمات :

« عباد الله . . . إن الله قد أحسن بكم ، وأعر نصركم . فتوجوا من فوركم هذا إلى عدوكم من أهل الشام . . . »

وما يشك أحد لحظة في أنه كان موقنا عندئذ أنهم سابقون عبارته هذه إلى السير ، خفافا مشوقين ، إلى وجهتهم المنشودة . فالنصر يشعل الحماسة . والحماسة تورث الثقة ، والثقة تفتح آفاقا من الأمل فسيحة تغرى الأنفس بارتدادها نشدانا لتعزيز نصرها الأول بنصر غيره جديد . . .

ما يشك أحد في هذا قط لو أنهم حقا — حين سيرهم بدء الأمر إلى النهر — كانوا مؤمنين بما ساروا فيه ، عارفين أنه مرحلة من كفاح مفروض ، لا يمكن أن يتكشف عن نتيجته المرجحة إلا بمتابعة الخطا على بقية المراحل . . . لكنهم ، في واقع الحال ، إنما ساروا آنذاك خداعا وتعمية ، وهم يضمرون غير ما يظهرون . كان سيرهم ذاك مرحلة في حسيان من يأخذ قولهم على ظاهره ، ولكنه ، في حسيانهم ، كان نهاية المطاف ! . . . وكذلك انكشف عنهم الغطاء ! . . .

فلم يكذ الإمام يطالبهم بكلماته ، حتى انبرى له الأشعث بن قيس : رأس الشيطان ، يقول بلهجة الناصح الأمين :

« يا أمير المؤمنين . . . نفدت نبأنا ، وكلت سيوفنا ، وانصلت أسنة رماحنا ، وعاد أكثرها قعيدا . . . ارجع بنا إلى مصرنا ، تستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عددنا مثل من هلك منا ، فإنه أقوى لنا على عدونا . . . »

وأحسب أن طائفة من الجيش — وإن تكن قلة — صفحت آنذاك قول الأشعث ، ونبت بدعوته فلغير النهروان كان مخرجهم إلى القتال ، ولغير الخارجة كان إعدادهم قبل أن يبرحوا الكوفة . وإذا كانت الخطا قد سارت بهم إلى معركة

اليوم فلائها وسيلة وليست بغاية ، ولأنها معبر لا بد منه إلى الشام ، بتطهيره من من الفئة المناهضة يؤمنون ظهورهم ، ويجنبون بلدتهم كل عدوة مفاجئة ، ثم يحفظون خطوطهم إليها ومنها سليمة حين اشتبا بهم على مشارف الشام . . .

غير أن الأصوات التي ناهضت الدعوة الأشعثية ، لم تسكن أعلى جرسا من أصوات المؤيدين ، ولا كان أصحابها أعز نفرا وأبلغ أثرا في الجمع حين تقاس العزة وقوة الأثر بالأعداد والمعدات . . . فما أن أعربت تلك القلة عن رأيها حق تعالت حولها دعوة العودة ، وأغرقت أصوات المعارضة في طوفان .

ولاح كأنما المناخ النفسى للجماعة يوشك أن يطلع عليها بفتنة جديدة قد لا تؤمن مغبتها في هذه اللحظة الحازبة التي بلغوا عندها مفرق الطريق . فالإصرار على المضي للحرب ، إن وجد سبيلا إلى التحقيق ، سيقدم إلى سعيها رجالا كلا رجال ، نفوسهم خواء ، وقلوبهم هواء ، خليقين أن يشكوا وقودا شهيا للنار ، إذا لم يؤثروا السلامة ، ويهبطوا إلى الفرار . . . وهو دون ذلك وقبله مدعاة أى مدعاة لخلاف لا بد من وقوعه ، مآل الأمور به انقسام الجيش العلوى على نفسه ، وتمزق وحدته ، وانتكاث صفوفه : صفا في جانب ، وصفا في آخر لا يحتكان إلا لمنطق السلاح . . .

ورأى على من غالبية القوم ميلا لرأى النفاق ، وانحيازاً إليه يوشك أن يفسد الأمر عليه ، فبادر يستحث الناس ، ويشير فيهم حمية الجهاد بكلمات من عند الله : « يا قوم . . ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ، ولا تترددوا على أدباركم فتقلبوا خاسرين . . »
لكنها كانت صرخة في واد .

لم يلق أيهم إليه السمع . إنما تلكأوا ، وبادل بعضهم بعضا نظرات جوفاء . ثم انقلبت طائفة منهم — وقد أعوزتهم الحجة — تقول على تردد وهي تصطنع العذر الذي تحسب أنه يؤيد الرجوع :

« إن البرد شديد . . »

فرد في عجب :

« إنهم يجدون البرد كما تجدون ! . . »

فأخلدوا هنية أخرى إلى صمت عاق ، وفي عيونهم علامت معارضة وإباء إن لم تكن نذر تمرد وعصيان . .

عندئذ استيأس ، وزفر في ضيق :

« أف لكم ! . . إنها مئة جرت » .

ثم تلا قول الله :

« قالوا يا موسى إن فيها قوما جارين ، وإنا إن ندخلها حتى نخرجوا منها ،

فإن نخرجوا منها فإننا داخلون . . »

وكأنا رأيت فئة بينهم أن تعالج الداء بالتريث ، لعل الله أن يجمع كلمتهم من

بعد ، وينفي بهم كافة إلى تدبر يفضى إلى الطاعة ، فبادر إليه منها من قال :

« يا أمير المؤمنين . . الجراح فاش في الناس . فارجع إلى الكوفة فأقم بها

أياماً . خار الله لك ! . . »

كان قولهم أمنية . ومع ذلك فلم ير ، حسماً للنزاع ، إلا أن ينزل على الرأي

المعروض . وهل كان له معدى عن النزول ؟ . .

وعاد . .

مضى يجترأله ! . . من إذن لله وحقه إن لم يقم فيه — بصلاته رمح وسرعة

إعصار — أصحابه هؤلاء ، العلماء الأبرار ، التلون القرآن ، العابدون القانتون ،

المنهجون بالأسفار ؟ . . من على الشيطان وحزبه ، إن لم يثب جمعهم الجم ،

الذى فرق الهدى من الضلالة ، وطعم حلاوة الإيمان ، وأصبح على بيته من أمر

ربه ؟ . . فيم نكوصهم اليوم عما نديهم له ، ودعاهم دينهم إلى النهوض فيه ؟ . .

فيم تمجدهم السلامة ، وطريق الجنة — كما يعلمون — تحفه للكاره ؟ . .

ليس بوسعه حملهم على محجته . أعياه أن يفعل . النصح الذى طالما بذله ذهب

مع الريح . تبدو كهباء . . لو شاء . لألقمهم السيف لهذا العصيان ، ولكنه يأبى

أن يخوض في دم ! . . لو شاء أيضاً لصانعههم ، بالمنصب وبالمال ، ولكنه لا يبيع

دينه بدنياه ! . .

ماله إلا أن يصبر . . وها هو الآن ينطلق بهم ، على كره ، فيشعر أنه

يطوى الأعوام طياً إلى الوراء ! . . ها هو يعود القهقري بالتاريخ ! . . ها هو

يخلف مدرجة الجهاد إلى أرض الدعة . . إلى الاستسلام ! . .
وسار والمحنة . . الهم والغيظ في ركابه . في قلبه ثقل ، وفي فمه حنظل . .
النصر الذي حازه وإياهم اليوم أشد قسوة عليه من هزيمة مدمرة . . طوال الطريق
كان يمشي على عذاب . والجيش الظافر الذي يتبعه ، بدا في عينه كالفلول المحزنة
التي تهيم في تيه من الجزع والضيق ، لا تكاد تعثر في فراغه على فرجة إلى
طمأنينة . .

وعندما لاحت لهم مشارف الكوفة ، أراد أن يغلب جموحهم الأحمق إلى
الراحة الدليلة ، فقال بهم عنها إلى مهـكر النخيلة ، أهل مكـتهم به لا يـحمد في
نفوسهم ما بقي من جذوة القتال . حياة المعسكر خليقة بأن تحفظ عليهم صلابتهم ،
وتقوى روح الجندية فيهم . . .

ونزلوا النخيلة . .

وفيها أوصاهم :

« . . الزموا معسكركم ، وضموا نواصيكم ، ووطنوا على الجهاد أنفسكم ، ولا
مكثروا زيارة أبنائكم ونسائكم ، فإن أهل الحرب المصابروها ، وأهل التشمير
فيها الذين لا يتقادون من سهر ليلهم ، ولا ظمأ نهارهم ، ولا خص بطونهم ،
ولا نصب أبدانهم »

وكان هو الرأي لو فملوه ، لأنه عندئذ رياضة للنفس ، وتدريب على السلاح ،
ومعيشة تهيم القدرة على لقاء العدو حين تأزف الآزفة ، وهم موفورون ، أهبة
ودربة . .

لكنهم خادعوه . .

عاشوه أياما بهذا المعسكر رياء ومخاتلة . ثم أقبلوا ينسلون إلى الكوفة ،
واحدًا بعد واحد ، وجماعة بعد جماعة ، حتى لم يبق منهم غير قلة ، لا يجاوزون
الخمسين . . .

وفضح الفعل النية ! . .

٢

تنفس معاوية الطمأنينة ملء رئتيه !
يوشك فجر دولته أن يبرغ . الأمل الذي غداه الليالي الطويلة ، قد زكا
وطال . ثم أزهر . ثم أطلع براعمه . ثم أثمر . . .
الأنباء تخبئه مهطعة ، أسرع من شطحات أحلامه ، كأنما تطير بجناح . . .
بشائر الفوز تتجمع حوله . الزمن معه على عدوه . والقدر معه . وأنصار على
كذلك معه بهذا الخلاف المتكرر الذي يشنونه بين كل صبح ومساء على أميرهم ،
وينتقص من أمره ومقداره . . .

فلا صفين والتحكيم كانا نصرا له وللشام وإن لم يفاج بهما على غريعه في قتال
ولا يبرهان . . الخديعة هي التي علت به ، ونصرتة . والخديعة هي التي نالت
من الإمام فقهرته . . . والأيام أيضا تظاهر المخادع وتأخذ بيده بعد إذ خرجت
الخارجة وناوأَت صاحب السلطان . . .

حتى وقعة النهروان كانت وبالاً على المنتصر . ولقد غرست في قلوب أهل
العراق حزنا مقبها على صرعاهم من الجانبين ، الذين حصدتهم الحرب ، لأنهم
جميعا ذوو عصبية وأولياء ، أبناء وآباء ، إخوة وأصحاب وإن تضاربوا بالسيوف
والحراب . . غرست حسرة في كل قاب . وأسالت دمعة في كل عين . وأقامت
مأتما في كل بيت . ثم لم تجمع الكلمة من بعد بل زادتها تفرقا دفع بالقوم إلى
الارتداد دون الالتصام بجيش الشام .

وكذلك رجع معاوية إلى حاضرتة ، على طمأنينة . موفورا وما خاض حربا ،
منصورا وما ضرب بسلاح . فلقد كفاه عدوه القتال . وتركه ليزيد منعة بين أمة
من الناس ، تلتف حوله كأنه علم . لا تراجع في رأى وآه وإن حملهم على باطل .
يدعو فتجيب . ويأمر فتطيع . ويقود فتتقاد . . .

ولم يعد همه بعد هذه الأحداث أن يخلد إلى السكون . فالمراحل التي كانت
من قبل تفصل بينه وبين هدفه قد طوتها له — إلا أقلها — الأيام . والشقة
أصبحت قصيرة . والجهد المنتظر منه ومن رجاله غدا كمشية الهوينى
في نزهة . . .

ولقد عرف الرجل عناءئذ أين يقف وأين يقف أيضا غريعه ، فلم يقفه أن
يقدر الموقفين بالحساب الدقيق ، ويزنهما فلا يستوفي ولا يخسر الميزان . ثم يطالع
بالأمر خاصته وإنه لينوى أن يسير خطوة جديدة إلى الأمام . . .
قال في هذه الآونة وقد دعاهم ليسمعه ويشيروا عليه :

« قد رأيتم كيف صنع الله لكم في حربكم هذه على عدوكم .. لقد جاءوكم وهم
لا يشكون أنهم يستأصلون ببيضتكم ، ويحوزون بلادكم ، ما كانوا يرون إلا أنكم
في أيديهم ، فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا . وكفى الله المؤمنين القتال . وكفاهم
مؤتهم . . . وحاكمتهم إلى الله فحكم لكم عليهم . . . ثم جمع كلمتنا ، وأصلح ذات
بيننا ، وجعلهم أعداء متفرقين ، يشهد بعضهم على بعض بالكفر ، ويسفك بعضهم
دم بعض . . . »

وتعهل هنية ثم أردف ، وهو يدور فيهم بعينه ، ليشهد كيف تقع منهم كلماته :
« . . . والله إنى لأرجو أن يتم الله لنا هذا الأمر . . . وقت رأيته أن أحاول
حرب مصر ، فماذا ترون ؟ . . . »

كان حوله إذ ذاك خيرة صجيبة ، وأعلام رجاله ، ممن لهم في سياسة الأمر
شأن وخطر : فيهم من قريش عمرو بن العاص ، وحبيب بن مسلمة ، ويسر بن
أرطاة ، والضحاك بن قيس ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد . وفيهم من غيرها :
شرحبيل بن السمط ، وأبو الأعور السلمي ، وحزرة بن مالك الحمداني . . . فلما
أن نطق بقوله ، كان أسرعهم إلى جوابه ابن العاص :

« قد أخبرتك ، وأشرت عليك . . . »

فابتسم العاهل . لقد سبقهم حقا عمرو إلى نيته المضمرة من قليل ، قبل أن
يتحدث بها لسانه : فمصر ، لا ريب ، أولهم ، وأدعى إلى وثوبه ، لوفرة ناسها ،
وكثرة خيرها ، وتدنوها الداني من أرضه . . . وانقطاعها إذن عن العراق خلق
بأن يفقد عليها أحد جناحيه ، ويدعه كالطائر المهيض . . .

ومال عن ابن العاص ، يسأل البقية :

« وما ترون ؟ . . . »

قالوا :

« نرى ما رأى عمرو بن العاص . . »

« إن عمروا قد عزم وصرم بما قال ، ولم يفسر كيف ينبغي أن نصنع . . »
فقال عمرو :

« فإني مشير عليك بما تصنع . . أرى أن تبعث جيشا كثيفا ، عليهم رجل صارم ، تأمنه وتشق به ، فيأتي مصر فيدخلها فإنه سيأتينا من كان على مثل رأينا من أهلها ، فنظاهره على من كان من عدونا . . فإن اجتمع بها جندك ومن كان بها من شيعتك على من بها من أهل حربك ، رجوت الله أن يعز نصرك ، ويظهر فلجك . . »

فتفكر معاوية مليا في الأمر . . إن هذا الغزو الحربي الذي يقترحه صاحبه هو أقصر السبل لا ريب إلى مبتغاه . ولكن الحرب — تماما — كالبحر يتماثلان حروقا وطبيعة . فيهما الأمن والخطر . وفيهما المد والجزر . وفيهما الصر والهزيمة . وهو يؤثر ألا يقبل على مغامرة قد تحمله إلى شاطئ السلامة ، كما قد تنوص به إلى القاع ! . .

ودفعه حذره أن يماود سؤال ابن العاص :

« فهل عندك شيء غير هذا ، نعمله فيما بيننا وبينهم قبله ؟ . . »

فأصر عمرو :

« ما أعلمه ! . . »

عندئذ بادر معاوية برد رقيق حصيف :

« إنك يا ابن العاص لا امرؤ بورك لك في العجلة ، وأنا امرؤ بورك لي في

التؤدة ! . . »

ثم أصبح يقول :

« إن رأيي غير هذا . . أرى أن نكتب من كان بها من شيعتنا ، ومن

كان بها من عدونا . فأما شيعتنا فنأمرهم بالثبات على أمرهم ، ونعنيهم قدومنا

عليهم . وأما عدونا فنندعوهم إلى صدحنا ، ونعنيهم شكرنا ، ونخوفهم حربنا . .

فإن صلح لنا ما قبلهم من غير حرب ولا قتال فذلك ما أحببنا ، وإلا فحربهم

من وراء ذلك . . »

فلم يزد عمرو على أن قال :

« فاعمل بما أراك الله ، فوالله ما أرى أمرك وأمرهم يصير إلا إلى حرب ! . . »
وكذلك فضح معاوية بعمده — ذلك المعدن الذي يديه دائماً صاحب ترفق
ولين ، لا يعنف بالناس ، ولا يقتحم الأحداث ، وإنما يصابر ويداور ، ويلتوى
ويلتف ، شأن الثعبان . . .

على هذه الجادة — سار العاهل أشواط كفاحه ، منذ حدثه طموحه أن يضع
خيوط سياسة الدولة في أصابعه ، يرخيها إذا شاء ، ويشدها إذا شاء . . من
يوم توليه الشام ، كان يعمل على جمع هذه الخيوط . وفي محنة عثمان أعد لبيدو
وهو وحده المناضل عن الخليفة المظلوم . وحين اندلعت الثورة ودفع بجيشه
إلى مشارف المدينة لم يكن يعنيه أن يكف الثوار بقدر ما عناه أن يظهر للناس كأنه
على أهبة لناصر أمير المؤمنين لو دعاه . . . ولما أفضت الإمرة إلى علي ، برغبة
الكافة ، لم يحاول قط مخالفة هذه الرغبة العامة لا بفعل سافر ولا بعبارة صريحة ،
وإنما تستر بدعوة القصاص . وعندما وقعت صفين ، وأخذت حربها تلتهم الناس ،
ثم رأى أمرها قد أعضل به ، لبس سرح الإصلاح ونواري خلف القرآن . . .
في كل مسلك له ، كان يبدو بوجه ، ويعمل بآخر . كان يعلأ عينه بدمعة
تمساح . . . كان يبدى الجلد الأملس وهو يخفى السم في الثاب . . . ولقد التزم
سياسته هذه بعصر فلم يحاول قط أن يعصف بها وإن دعتة دائماً مقتضيات الحرب
أن يوجه إليها أعنف ضرباته ، وأجله قواته . فقربها من فلسطين ينقض عليه
أحلامه ، ولا يكاد يدع له سبيلاً إلى الرقاد إلا بعين مغمضة وعين مفتوحة ! . . .
وحراجها يثرى غريمه بالمال والعتاد . وأهلها الجم الغفير يغضونه بالأجناد . .
وهي بهذه الصفات سيف ماضى الشفرة ، حديد السنان ، معلق فوق ناصيته
بأوهى من خيط عنكبوت ، وليس يمسكه أن يقع فيفري ويقطع ، ويبقظ
ليقد ويقط ، غير كلمة آمرة تند من شفق الإمام . .

على أن الكلمة الآمرة القاتلة لم يكتب لها قط أن تقطع الخيط . . . هي — فعلا —
تخلقت على الشفتين ، ولكنها لم تزد على حروف جوفاء . . . لفظ أصداء افتالقيت
عندئذ السميع الحبيب ، حين بلغت قيس بن عباد ، وهو إذ ذاك عامل على

مصر ، ورجله بها الذى اختاره تأمينها له ، والقضاء على من فيها من مشاغبين على أمره ، لتخلص من بعد موحدة الراى والسلاح ، تطبق من الغرب على معاوية حين يتبين لجيش العراق أن يطبق عليه من الجنوب . .

قيس بن عباد شاء أن يدع العنف ويعتصم بالدهاء . . هادن من بها من الخارجين على سلطة الدولة ، وأبى أن يحملهم بسيفه على الطاعة . رضى لهم الانحياز عنه ، والاعتزال فى رباطهم بخربتا وغيرها من ريف مصر ، ما هداوا لا يناوئونه ولا يشغبون عليه . .
وأعطاهم عهده . :

« .. لا أكرهكم على البيعة . ولكنى أدعكم وأكف عنكم .. »
ويوشك امرؤ أن يرى الحكمة فى هذه السياسة المهادنة ، التى تصطنع الرفق بالغريم المنايد ، عسى الله أن يتألفهم بهذه المهادنة ، ويردهم إلى الجماعة والطاعة . . لكنها ، فى حقيقتها ، لا تزيد على أمنية فى ضمير متفائل ، بحسب الظروف مقهورة على السير فى الطريق الذى يرسمه ويرتضيه . وهى — من أساسها — لا تنهض على ظواهر الواقع ، ولا احتمالات المستقبل التى يوشك الغيب أن يطلعها فى مدى قصير أو مدى طويل . . إنما كل قصاراها ، ومنتهى ما تستطيعه هو أن تجمد حركة التاريخ وتقف بأحداثه عند نقطة البداية ، دون تقدم ، إن لم تعد به إلى الوراء ، خطوة أو بضع خطوات . .

لب السياسة القيسية الرحوة ، فى هذه المرحلة الحاسمة من إمرة على يكاد يفتش — من قبل أن تجهزنا نتيجتها المرة — أنها كانت سبيلا إلى تفاقم شأن المعتزلين ، واشتداد أيدهم وشوكتهم ، وإن تواروا فى مرابطتهم على مسكنة ، لا يبادرون واليهم بفتنة ، ولا يجاهرونه بعداوة . فما كان مثلهم إلا كمثل قوقعة طوت على نفسها صدقتها الصلبة ، فبدت للرائى هامة جامدة لا تنم عن حياة . ومع ذلك فالخبر يغاير المظهر ، لأن علائم العدم البادية على القوقعة ، لم تكن لتنع تطور الحياة داخل القشرة أن يسير سيره ، أو تحرم البنية الحية بها قدرتها على النمو والإكتمال والاستفعال .

حتى العهد الذى قطعه لهم قيس إذ ذاك ، كان يغريا أولئك المعتزلة ، أشد

إغراء ، بالإصرار على الخلاف . وكيف لا ، وإنه وهو عاملهم من قبل على ، لا يحاول حملهم على الدخول في بيعة أميره ، كأننا لا يرى هذه البيعة تلزم الناس ، وإنما يعتبرها رخصة يقبلها من شاء ، ويرفضها من شاء . . . ؟ وكيف لا ، وإن خطابه إلى الإمام عنهم ألقى في روع الذين قرأوه ، أو عرفوا ما فيه ، أنه هو نفسه — ذلك العامل المهادن — على شبهة من أمر صاحبه ، وحقه في ولاية المسلمين . . . ؟

والرجل عندنا لا ريب غير متهم في ولائه لأمر المؤمنين ، ولا نضح قط تاريخه بحرف واحد من حروف الاتهام ، ولكن كلماته هي التي نطقت بغير ما عناه . فلقد كان مما كتبه للإمام :

« .. إن قبلي رجلا معتزلين ، سألوني أن أكف عنهم ، وأدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس ، فنرى ويرون .. »

فكيف للأمر أن يستقيم والناس على فرقة واختلاف ، لا وحدة تجمعهم ، ولا سلطان يدينون له بالولاء . . . ؟ كيف تتفق كلماتهم وقد خلى بينهم وبين الأهواء ، تذهب عنة بأولئك ، وتذهب يسرة بهؤلاء . . . ؟ وهل حق على في ولاية الدولة ، معلق بتقلبات الظروف والأيام ، فإن غدرت به فهو مبطل ادعى ما لم يكن له ، وإن آزرته فإنه محق منذ البدء وحق الختام . . . ؟

إن الأثر النفسي الذي نحسب موقف قيس بن عباد قد غرسه في النفوس ، لهو أنسكى على أمره من كل عداوة كان من المحتمل أن يجأر بها معتزلة مصر ، وأشد وقعا من أية حرب كان في مقدورهم آنذاك شنّها عليه .. فلقد كانوا أهون من المجاهرة بالعداء ، وأدنى إلى الاندحار واليوار لو أخذهم قيس بما كان يحذر أن يؤخذ به أمثالهم من العصاة . ولقد كانت فرصة استقائهم للطاعة أو تأديبهم بالسلاح ملء كفيه لو أنه اصطنع الحزم الواجب ولم يلتزم تلك السياسة الرخوة . لكنه آثر أن يلين في مقام شدة ، وأن يحمّد وداوعى المبادرة تدعوه إلى سرعة الحركة .. كانت الظروف عندئذ مواتية كل مواتاة . والأحداث هادئة من حوله تسكاد تستجيب له لو أشار . والمعتزلة تساكنت على ذعر وهي مهينة الجناح لا تستطيع أن تدفع سطوته عليها بينان . ومعاوية في الشام لا تخايله بشأ الرصر وإنما تؤرقه خيالات الاستسلام .

ومع ذلك فقد فرط الرجل فيما كان يديه ، وترك الوحش المنجحر في خربتا
حق استطالت مخالبه ، وبرزت أنيابه . . ولم يكفه هذا التفريط ، بل أغرام
اعتداده برأيه ، بأن يخالف عن رأى أميره ، حين أمره أن يدع خطته التي
لا تقرها طبيعة الظرف ، وشواهد الحال ، ويعمد إلى الحل الحاسم الذي لا تصلح
الأمر بسواه :

« . . سر إلى القوم الذين ذكرت ، فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون ،
وإلا فناجزهم . . »
فقد أجاب :

« . . تأمرنى بقتال قوم كافين عنك ، ولم يعدوا يدا للفتنة ، ولا أرصدوا لها ؟ . .
أطعنى يا أمير المؤمنين ، وكف عنهم ، فإن الرأى تركهم . . »
لكن الفتنة كانت تغتذى في مرابط المعتزلة ، وتنمو ، وتستفحل . وليخرجن
وحشها المنهوم ، بعد قليل ! . .

٣

أو كانوا حقا عشرة آلاف ، أم دون ذلك ، أم كانوا أكثر — أولئك
العصبة التي انجحرت آنذاك في خربتا ، تبكى عثمان ، وتربص من الزمن بسانحة
تسبح في طالع يمن ، لعلها تستطيع تلبية نداء الدم ؟ . .
في تقدير الأرقام ، قد تعلوبها عدتها ، وقد تقل ، ثم لا تكون ، آخر الأمر ،
ذات خطر له أثره المرجح ، لأن الكثرة العددية ليست وحدها العامل الفعال
في تصوير النتيجة ورسم العقبي في ساحة القتال . . وفي تقدير الظروف المحيطة ،
قد يكونون هباء أو أوهى منه ، وقد يكونون ذوى شأن حاسم يقلب ميزان
القوى ، ويلوى الطريق أمام الأحداث ليسير موكبها الحافل إلى حيثما لم يكن
متوقعا له قط أن يسير . .

ولقد رآهم قيس عندئذ كثرة ، بحساب العدد ، ورآهم قوة ، أيضا ، بقياسه
للظروف التي عاشها إبان ولايته أمور البلاد . . ولا عليه — لاريب — إذ فعل ،
فله رأيه ، وله ، إلى جوار هذا ، حقه في أن يسوس إقليمه على النحو الذى يضمن

الأمْن ، ويوثق في ربوعه الولاء له والإمام في آن . فإذا تحقق له من وراء سياسته ما طمح إليه ، فإنه إذن الحاكم الذي وزن فأحسن ، وقدر فأصاب . . .
فأين يقف حسابه من دقة الحساب ، وينزل تقديره من رحاب الصواب ؟ . . .
سؤال لا يسوقه الجدال ، وإنما يفرضه سلوكه بمصر إزاء أولئك القوم ، منذ دخلها إلى أن غادرها بعد عدة شهور ، ثم لا تجيبنا عنه إلا وقائع الحال . . .
في صفر من سنة ست وثلاثين ، أقبل الرجل على مصر ، واليا من قبل على يجتاز حدودها ، ثم يقتحم على المنجهرين وجارهم وهم إذ ذاك على كثرتهم المزعومة ، وما يمينه سلاح مرهوب غير كتاب توليته ، ولا بصحبته جيش كثيف ، أو بطانة عزيزة الجانب تشد أزره غير سبعة نفر من أصحابه أو أهل بيته كانوا وخدم كل من رافقه من جند وأحراس . . .

ومع ذلك فقد ارتضاه الناس ، واستقبلته البلاد بطاعة ضاعت في غمارها نقمة الناقمين . . . فما أن قرأ عليهم كتاب الإمام بتوليته حتى أقروه . وما أن دعاهم للطاعة لعل حتى أسرعوا وبايعوه . . . أما العصبية الساخطة فبقيت دون بقية المصريين بمعزل ، في قربتها تلك ، لا تحرك ساكنا أمام هذا الاجماع . فلا هي عاجلته بسلاح ، ولا عارضته بإشارة . . . كل ما وسعها ، وكان قصاراها حينذاك ، أن تبعث إليه ، على لسان أحد ساداتها : يزيد بن الحارث ، برسالة تقول :

« . . . إنا لا نأتيك ، فابث عمالك ، فالأرض أرضك ، ولكن أقرنا على

حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس . . . »

تمنع كرضاء ، وعداء كولاء . . .

واستقامت له الأمور .

فهل عن قوة أم عن ضعف كان منهم ذلك الخضوع ؟ . . .

إن جماعة هذا شأنها ، وإن كانت عشرة آلاف ، أو دون ذلك ، أو فوق ذلك العدد أضعاف الأضعاف ، وما كانت لتخشى قيس بن سعد بن عبادة إلا وهي تدرك تمام الإدراك أنها ليست بإزاء رجل واحد في سبعة نفر من أهله ، وإنما بأزاء أمة بأسرها خففت جناحها للوافد الجديد ، لأنه يمثل رأيها ، ويعمل به ، وينشر على أديعها ، بها ولها ، سلطان ذلك الأمير الذي آمنت ، وآمن معها عامة

المسلمين ، أنه أولى الناس بالإمرة وأحقهم بالسلطان . .
هذه حقيقة لا يشغلنا قط عن تقريرها أن فريقا من رعاياه حاولوا في البدء
أن ينثروا الشوك في طريقه حين تواب مسلمة بن محمد الأنصارى ينعى عثمان
ويدعو إلى الطلب بدمه وقيس عندئذ لم يكديقف بقدم واحدة على أرض
الإقليم . . . فدعوة الدم تجمدت وما كادت تغادر الشفاه . وشرارة الفتنة
المنبعثة عنها خدت ولما تلحق بحطب ولا بهشيم ! . . وما جاء خمودها ذاك
عن جهد مذكور من قبل الوالى ولا رعاياه بقدر ما كان نتيجة لافتقارها إلى
البيئة الصالحة للاشتعال . وبحسبنا أن نعلم أن قيسا لم يكلف نفسه أكثر من كلمة
عتاب بعث بها إلى النافخ في النار فإذا ناره سلام وثورته استسلام . .
بعث قيس إليه :

« ويحك ! . . أعلى تشب ؟ . . والله ما أحب أن لى ملك الشام ومصر وأنى
قتلتك ! . . فاحقن دمك . . »
ورد مسلمة :

« . . إنى كاف عنك مادمت أنت والى مصر . . »
عتاب فإقرار ، وإعذار فاعتذار ، كأنما لم يكن ثمة خلاف فلا موجب إذن لإضرار
النار . .
كذلك كان .

ولقد يزعم زاعم ، هنا ، أن الدهاء القيسى المعهود ، الذى بطن ، هذه المرة ،
دعوة السلام بالوعيد ، هو الذى وأد الفتنة قبل أن ينجم لها قرن ، وقضى على
نطفتها وما تخلفت بعد ثورة مدمرة حرية بأن يحتاج الأرض المصرية وتصبح تراها
الأخضر بالدم . .

ولقد يزعم آخر أن حكمة الوافد الغريب على بلد غريب طالبتة أن يترث
عندئذ بالعثمانية حتى يعرف المشكلة ، ويسبر عمقها وغورها ، ويدرك حجمها
وأبعادها ، ليتبين — عن تثبت — أين موقفه من عامة أهل الإقليم ، وأين منهم
موقف العصبية المنحازة ، ثم يرم فيها أمره — حربا أو سلما — على يقين . . .
قد يكون هذا ، وقد يكون ذاك ، ولكننا لا نراها غير زعيمين جدليين ،

إن أبحاثهما مقتضيات ترويض الأذهان ، ومساجلات النقاش والحوار ، فإن عناصر الواقع ، وشواهد الأحوال لا تؤيدهما بحال . . .

فالثورة — أية ثورة — كيان عنيد متمرد ، بلا مسمع تصنى لوعيد ، وبلا جنان يرضخ لتهديد . بل شأنها — بطبيعتها — شأن السيد ، يعصف بالجيل كما يعصف بالسهل ، ثم لا يكون أعنف ما يكون قوة وبطشا إلا في مواجهة التحديات . . .

والترث — دائما — رهن بأجل موقوت ، وموعد محدود ، ولا ينطلق به عمره سرمدًا بلا حدود . . .

فإذا مضى المكر مع الزعم الأول — تدبرا وتعميضا — لاح من ثنايا المراجعة والبحث كأعما تلك المعتزلة فئة اشتبه عليها عندئذ الأمر ، وتقسما حياله اضطراب فكري حرما القدرة على تحديد موقفها منه ، وحسمه الحسم الناجز في لحظة كانت — بلا ريب — أنسب لللحظات للمجاهرة بالعداء . . .

فلأى سبب إذن يمزى تقاعس الفرقة المنحازة عن مبادرة الوافد الغريب بما ينكث عليه خيوط الحكم ، ويعجل به إلى حيث لا يكون له عليها سلطان يقهرها بالشدّة ، أو يداورها باللين ؟ . . .

أكانت على ريب — إذ ذاك — من الخلاف الناشب بين على ومعارضيه ، لا تعلم أى الحزبين على حق وأيهما على باطل ، فاستأنت بالعامل الجديد للزمن بعد قليل يضىء لها طريق الصواب ؟ . . .

أم رأت أن تملأ لنفسها في فسحة من الوقت تجس خلالها نبض هذا الوافد — قبل أن تضرب ضربتها — لتعرف مواطن الضعف ومواطن القوة فيه ؟ . . . أم استجابت — رياء وخديعة — لدعوة المهادنة ، ليطمئن إليها الداعى ، وينام عنها ملء جفنيه ، ثم تأخذه بغتة قبل أن يفيق ؟ . . .

أم أحست في نفسها وهنا يرجح كفته في مجال الصراع لو أنها شغبت عليه ، واستقبلته بما لا يرضاه ؟ . . .

أم خشيت نقمة أهل مصر وإنهم ، فيما تدرك ، على ولاء لعل ، وهي فيهم كجزيرة معزولة ، يحيط بها بحر لجى من الإنكار ؟ . . .

أم أرجأت اللقاء الفاصل حتى تستكمل عدتها ، وتشد ساعدها ، ويعدها
وليها خارج الإقليم ، ثم يؤذنها بساعة القتال ؟ . .

فروض تدور في فلك الزعم الأول ، عليها المراجعة ، وتبسطها دواعي
التحريض ، ثم لا تأبأها وقائع الأحداث ، ولا دوافع النفوس . .

فلأى سبب إن من هذه الأسباب ، قبلت معتزله مصر — صاغرة
أوراضية — الهدنة المريبة التي عرضها قيس ، وليس في عرضها حينذاك ما ينفي
منه بطمانينة ، ولا يوحى باطمئنان ؟ . .

لا لهذا السبب وحده أو لذلك من الأسباب ، بل لكل هذه الأسباب .

ولمن شاء أن ينكر ، ويخالف عن هذا الجواب ، فليستنبط الحقيقة من
شواهد الحال ، في الحاضر والمستقبل ، وإنها لخبرته أن معتزلة خربت لم يكونوا
الفئة التي تنشد السلام ، بل كانوا الفئة المعتوهة — أو المخدوعة — بدعوة
القصاص لعثمان ، شأنها في ذلك شأن طلحة والزبير بالبصرة ، ومعاوية بالشام ،
وأحزابهم محم تباكوا أو بكوا على الشيخ ، ونصبوا أنفسهم قوامين
على الإمام ! . .

أجل ، لم تكن هذه المعتزلة ساعية لوافق ، ولا مبتغية لسلام ، بل — كبقية
الحزب المنشق على وحدة الشعب الإسلامي — كان هدفها إثارة فتنة تفضي
إلى اتزاع السلطان ، حسدا وضغينة ، بمن قلده الأمة يبعنها العامة إذ هو أحقها
بالسلطان . . فلئن آثرت المودعة ، ولأنها غطاء لما تضرر ، وطريق تحق سري
إلى ما تروم ! . . ولئن قعدت عن إضرار الفتنة ، فكسبا لفسحة من الوقت
تستطيل فيها المحالب وتبرز الأنياب !

انفرقة الحارحة في مصر على سلطة الدولة ، المنحازة عن الإجماع ، رسمت
لنفسها أنسب سياسة لظرف الزمان الذي تعيشه ، ولظرف السكان الذي تعيش فيه .
فنزعتها الحزبية تريدها على الشعب ، وقوتها الظاهرة تدفعها أن تهتم به ، ولكن
سياستها الخدرة تحملها على الإرجاء . . . وهل كانت لتقعد عن القتال في تلك
الآونة إلا وقد أيقنت أنها لا تقوى عليه وإن كانت عشرة آلاف أو زادت على
هذا العدد أضاف الأضاف ؟ . . وهل كانت لتهمل قيسا ساعة من زمان ،

لو أنها آتست في نفسها القدرة ، وندعه يدخل البلاد ، ويأخذ البيعة ، ويبيث العمال ، ويحجى الخراج ، ويوطد سلطانه أميرا من لدن على مصر وما هو — إذ وفد — غير رجل واحد ، في سبعة نفر من الأعوان لا يمنعونه سطوة المخالمين ؟ . .

هذا منطلق الفكر مع الزعم الأول ، الذي يرتب انطفاء الفتنة الوشكة على دهاء وإلى الإقليم ، نضعه في شتى صور الاحتمالات بغير اعتداف . فلاى منطلق لعله يتجه الفكر ، وهو يتقصى الزعم الثانى : تلك الحكمة التى دعت الرجل إلى التريث بالعثمانية ، وإلى استقباله تشرعهم للنزول عليه — غب وفوده — بالملاينة والترويض ؟ . .

في لحظة مروءة وأريحية ، بلاريب ، وليس في لحظة حزم ، ألقى إليهم الوالى بكلمة أمان .. وما نلومه إذ فعل . فالروءة محمدة تحسب للمرء ولا تحسب عليه . والأريحية إحسان يصانع الأنفس النافرة ، وقد يجتذبها إلى ساحة الرضا ، إن لم يكن إلى حظيرة الولاء . . وقيس بن سعد ، إذ اختصم آنذاك بالترفق ، ولان لهم ، إنما كان يرعى فيهم الرحم ، وحق الجوار ، وصحبة الأمس ، ورفقة العيش والسلاح في الجاهلية وفي الإسلام ، لأن رءوسهم وأشياخهم مثله ، من الأنصار — أهل مدينة الرسول — ثم من قومه ورهطه الأذنين . .

لا تنكر أقيس مجاملته هذه سادة المعزلة الصريين ، ولا تنكر أيضا لم مجاملتهم إياه . . فهو يتعفف عن مقابلة شغبهم عليه إلا بالكلمة الرقيقة دون الحزم الذى قد لا يتحقق بغير شفرة السلاح . . وهو يأبى على نفسه اجتماع أمر مصر والشام في يديه ، لو دانتا له بدم أحدهم — دع الباقين — وساد فيهما النظام . . وهو على لهم في استرسالهم في الخروج على إجماع المسلمين والقعود عن بيعة الإمام ما شاء له الإملاء . . وهو يسجج إلى مدى تنكره عليه مبادئ الحيلة والحذر ، فيسمح لرفاق فكرهم وتأمرهم ، من خارج البلاد ، ومن الشام بالذات ، بالوفود عليهم ، زائرين أو معززين . . وهو يجرى عليهم — في رباطهم الشبره — ما يجرىه من الأعطيات والأرزاق على بقية الناس أصحاب الطاعة والولاء ، دون نقصان . .

مجاملة لا نذكرها لقيس ، ونقره عليها ، حين استطاع — أو يرتجى —
توثيق الصلات ، وتذويب الحزازات بالمجاملات . ولكننا نذكرها عليه ،
ونأخذ بها ، حين لا يكون قصارها غير الإملاء في العصيان والانتقاص من
هيبة السلطان . .

فلأية وجهة تقودنا هذه المجاملة ، أو السياسة التي التزمها قيس منذ دخل
الإقليم ؟ . .

إلى الإنكار لا إلى الإقرار ! .

بدا ونهاية ، لاح من خربتا أنها لا تعمل على رأب الصدع الحادث في
جدار الوحدة الإسلامية آنذاك ، ولا تنتويه ، ولا تنو إليه مجرد رنوة آلمة
مرتجية في شطحة حلم أو في سرحة خيال . كل هما كان الانتظار . التربص
بالأحداث . تحين الفرصة التي تعن للوثوب . .

حتى مجاملة قيس لم ترحزها عن موقفها ، ولم تغير من نظرتها — قيد
شمرة — إلى الأمور . الشقة الفاصلة بينها وبين الإجماع ظلت ثابتة ، كالمها
عندما أعلنت الاشتقاق . والعدوان على النظام القائم كان شاغلها الذي أجمت
الرأى ، وتشرعت له . وبيتته إلى حين . .

بل بيتته إلى موعد معلوم ! . إلى أجل مسمى . إلى ساعة مقدورة محدودة ،
لم تسرها عن العامل المجمال ، وإنما طاعته بها في غير موارد وبلا إخفاء ،
كأنما تبيعه وعيده بوعيد ! . فهذا النظام الذي يثله ، ويرعى دولته ، ووفد
عليهم لينشر سلطته ، لن يلقى منهم سوى عدوة مدمرة ، تهد كيانه ، وتتنقض
بنيانه ، وتذهب به في الغابرين . .

كل ما صانعوا به قيسا وجاملوه هو أنهم أمهلوه . أنذروه لأوان . أرجأوا
ضررتهم حتى يستوفي مدة ولايته ويغادر مصر إلى حيث جاء . فالترفق إذن
بأن بلدتهم رفيق أمسهم ، لصيق رحمتهم ، وليس بالنظام . والوفاء بالإرجاء رهن
ببقائه هو على عمله ، طال أو قصر عمر البقاء . وبما بين النية المضمرة والعدوان
الصريح ، مدح لبدوات الأنفس ، أو تطورات الأحداث ، تبرر نقض العهد
وامتشاق الحسام . .

وكان قيس على بينة من احتمالات الموقف أو يكون إذن في غفلة تهدر دهاءه وتمنن ذكاهه ، وتضمنه حينما لا يرضاه له ، ولا يرضاه كل الذين خبروه . . . فسير الأحداث في تلك الفترة من تاريخ الدولة الإسلامية لم يكن رخاء يجرى على نسق معلوم مرسوم ، وإنما مضى على اضطراب وتقلقل ، يطالع الناس بين الآن والآن بما ليس بحسبان . . . ونزعات الطموح أو الطمع كانت تتلمب بالأنفس فتفرق جماعة الأمة ، وتزرع الضغائن ، وتحزب الأحزاب ، أو تجيش الجيوش وإرادة قيس ليست هي الإرادة التي تستديم له ولايته على مصر ، أو تطيل فيها مدته كيف شاء وأنى شاء ، لأن الولاية عليه ، والأمر دونه ، لأمر المؤمنين الذي يثبت ، وينقل ، ويؤزل عماله حسبما تدعوه سياسة الحكم ، وغير الظروف ومقتضيات الأحوال ، في قلب الدولة وفي مختلف الأقاليم .

فإذا نحن ذكرنا أيضا عناصر الدس والتآمر التي كان أعداء على يسرحونها إلى الأمصار ، نشرًا للفتنة ، وإيقاعًا للفرقة بين أهلها وبين عمالهم ، ثم بين أولئك الولاة وبين أمير المؤمنين ، للقضاء على هيبة الحكم ، ونكث خيوطه ، والذهاب بالاستقرار المذهب الذي يضمع السلطة الشرعية ويدعها فريسة سهلة للعدوان ، إذا نحن ذكرنا هذه العناصر التآمرية فإن العصر الوحيد الذي يظهر في الأفق ، بعد هذا كله ، ويضمن بقاء قيس على مصر لا يكون غير الخلود . . . وما نحسب الرجل إلا آمن أنه — لا محالة — زائل عن مكانه بانقضاء أحد الأجلين : نهاية عمله ، أو نهاية أجله . . . وما نحسب مصر بعده إلا آتلة لوال سواه ، دون عهد قد يقبها عند ذلك سطوة المعتزلة ، أو يجنبها الخروج — بحمد السيف — عن طاعة الإمام .

كل هذه الحقائق والاحتمالات كانت ، بلا ريب ، مالة أمام قيس وهو يحنج للسلم ، فيؤثر مهادنة مخالفه لأنها الوسيلة الوحيدة التي تكفهم عنه ، في مستهل عمله ، أن يعبثوا بالنظام الذي يمثل ، ويمزقوا الأمن ، حتى يتبين ويتبين الناس . فإذا المعتزلة أقرته على هذه المهادنة ، فإنه لعلم أنها تقره مصانعة له ، وليس مصانعة للدولة ، لأجل موقوت بزوال ولايته إن لم تكن وقته باكتمال عدتها ، واشتداد أيدها ، وقدرتها المرتقبة على المجاهرة بالثورة التي تكنها في الصدور . .

إذا هو مضى على سنه هذا لفترة ، فحسنا منه على تجنب الهدى العلوى الناشئ فتنه جديدة ، تزيد من أعبائه ، وترهقه عسرا ، وقدمه لم تثبت بعد على أرض الحكم . .

سياسة إغضاء ، تؤجل العداء ولا تعجل به ، ارتضاها الطرفان ولكل منهما مأرب من ورائها يأمل أن تحققه الأمام . نخطر خربنا قائم على الدولة ، وإن نام عن قيس ، أو أغنى بعين حذرة ، تتسرب منها النظرة المخالصة من خلل الأهداب . وخطر قيس عليها قائم ، وإن عاهدها على حبسه عنها حتى تتكشف الأحداث ويتبين الناس . واستقامة الوضع بعد هذا ، فى الدولة تحت إمرة أئمة امرئ تولاها ، لا تتم إلا بانجلاء أحد الخطرين ، وخضوع فريق للآخر الخضوع الذى يلازم الصدع ، ويحقق الألفه ، ويجمع بالوحدة بين طرفى النزاع . .

هذا هو الوضع الذى يوفر للدولة — أية دولة — مقوماتها ، ويضمن لها السيادة على ما لها من أرض ، ومن بها من أفراد . وكل عامل بها مسئول عنه فى ولايته ، ومسئول عنه أيضا فى نطاق الدولة العامة . من الحكم الأمثل مشاركة عامة ، وليس مشاركة بالاجتزاء . . . فاستقرار النظام فى إقليم ، يعين على استقراره فى بقية الأقاليم . وانقطاعه فى أحدها يغرى بانقطاعه فى آخر ، والنظام كالانقسام ، لكليهما عدوى حقيقة بأن تصيب الأمة ، وتترك أثرها فى بنيتها القومية وكيانها السياسى : سقما أو صحة ، ضعفا أو قوة ، كيفما تهيأت لأيهما البيئة الملائمة ، وأسباب النفوذ والتحكم ، وذرائع الانتشار والاستثمار .

على هذا الوجه يستطيع معايرة الموقف الذى اتخذته قيس تجاه معارضيه فى الإقليم . وبه وحده يستشف المآل الذى تفضى إليه سياسته : نصر : دعما للدولة أو دفعا بها إلى الانهيار . .

فهل وفى الرجل ، وهو يقف موقفه ذاك ، بما عليه ، ونجح فى أداء دوره المفروض قبل الدولة ، التى نصبته ممثلا لسيادتها ، كما ينبغي أن يؤديه عامل يعرف نصيبه من المشاركة العامة فى الحكم ، فينهض به ، ماتزما فى خطط حكمه الإقليمى تلك السياسة التى لا يقوم على غيرها — فى دولة من الدول — حكم ثابت متماسك ، ولا يستقر نظام وطيد ؟ . .

يظلم الرجل من يراه أخفق كل الإخفاق ، ويظلم الحق من يراه نجح كل النجاح . . . فما ينسى له أنه ، في داخل حدوده ، سمى سعيه لإفراز النظام وإن سلك إليه سبيل الحسنى ، أو المجاملة ، أو تجميد العصيان . . . ولكنه ، مع هذا ، النظام الجزئى الذى — إن صالح به حكم ولاية « خاصة » منفردة ، أو باللفظة التقليدية : « إقطاعية » — لا يمكن أن يصلح به حكم دولة موحدة تدوب « فردية » كل ولاية من ولاياتها فى الكيان السياسى العام . .

فإذا دعنا شرعة الإنصاف إلى الاعتراف بفضل الظاهر فى إرجاء الفتنة لا إطفائها ، وبقدرته على نشر سيادة الدولة على مصر — إلا خربنا — إبان عهده ، فإن حتما علينا أن نذكر أيضا أن هذه الخطوة التى خطاها إنما كان ينبغى أن تتبعها خطوات أو تكون السيادة التى حققها عودا هشا قد تقطعه خفقة هواء ! .

كان إذن عليه ، وقد أمن عمله بعض أمن ، وبسط ظل الإمام على معظم أرجائه ، أن يعضى قدما وما بدأ ، متابعا سيره إلى الأمام ليستوفى سيادة الدولة على مصر : بكل اجزائها ، وكل أبنائها ، لا بلوغا بهذه السيادة — بهيئة الحكم وليس بنزوة المجاملة ! — إلى الحد الذى يثبت الأرض تماما تحت قدميه وقدمى أى عامل سواه ، بل توكيدا لشخصية الدولة ، ولحقها على كافة مواطنيها ، وتحقيقا لوحدها والاستقرار العام على أديمها السياسى كله ، من أدنى إقليم إلى أقصى إقليم . .

لكأنى به قد استيقن وفاء تلك الطائفة من رفاق أمسه الأنصار بعهدهم له ، فأمن منهم الغدر والعصيان . . لكأنى به أيضا استيقن استقامة الأمر ، لا محالة للإمام فى كافة أرجاء الأرض الإسلامية ، فى خلال أيام ، فلا حاجة به ها هنا إلى عنف تغنيه عنه الهوادة ، ولا إلى سيف تكفيه عنه بشار السلام . . . وهل هى إلا بضعة من الزمن قصيرة يدوب فيها القلق النفسى الذى يصاحب التغيير ثم تثوب القلوب ، وتهدا الخواطر ، ويألف الناس الأمر فتدخل زمرهم أفواجا فى طاعة الخليفة الجديد ؟ . .

أدنى إلى هذا ومثله كان رأى قيس ، لا ريب ، وهو يترفق ترققه ذاك بينى .

بلدته ، رفاق أمسه ، الذين شاءوا الانتحاء عنه ، عند وفوده ، وتخلفوا بانتحاءهم عن الإجماع . . وما يستطيع أحد أن يأخذ عليه نظرتة ، أو يقابها بثريب وشواهد الحال عندئذ تقره عليها ، وتكاد توفر لها كل مقومات الصواب . . فلقد شهد بعينه كيف لاحقت الجماهير عليا غب مقتل عثمان ليتولى الأمر وهو يمانع — زهدا في الإمرة — ويهيب بهم أن ياتمسوا غيره ويدعوه . . ثم شهدهم يتدأكون عليه ، تذاك الإبل الهيم على الشرب ، ويحملونه حملا على القبول . . ثم شهدهم يدلون إليه بطاعتهم عن رضا وإجماع ككة ، على ملا ، وفي بيعة شعبية عامة لم تنعقد قبله لأمر . .

ما كان قيس يتوقع قط أن يخرج امرؤ من المسلمين على طاعة على والشعب كله هو الذي ولاه . الشعب كله . بكل فئاته . بكل طبقاته . بكل أجناسه وألوانه . بكل بقاعه وأوطانه . . فلم تكن بيعة خاصة كالعهد من قبل غيرها من البيعات التي كان فيها اختيار الخليفة لمجتمع المدينة ثم المتابعة والإقرار لما عداه من مجتمعات . لم تكن بيعة مهاجرين وأنصار كبيعة أبي بكر الصديق . ولا بيعة عهد شخصي ووصية فردية كبيعة عمر بن الخطاب . ولا بيعة بضعة قرشية لقرشي منها كبيعة عثمان بن عفان . إنما كانت بيعة عامة ، توفرت لها كل جوانب « العمومية » وأجمع عليها المهاجرون ، والأنصار ، والقرشيون ، والقبائل الأخر ، والرعاة ، والعبدان ، وأهل الأمصار . بل هي كانت ، فوق هذا كله ، ترجمة صادقة أمينة عن التطور الفكري والإرادة الشعبية الحرة والتغيرات الاجتماعية في بنية الوطن الإسلامي على إتساع رقعة أراضيه ، تمثلت في أهل المدينة ، وعبدانها ، وأهل المياه ، ووفود مصر والكوفة والبصرة الذين أمروا عليهم — بمحض اختيارهم ورغبتهم ، وبغير عهد ، ولا دعوة ولا توجيه — رجلا لم يمرض نفسه ، ولم يسع إليهم ، لأنهم رأوا فيه وحده ، من دون الناس أجمعين ، المثل السكامل للحاكم الذي ترنو إليه مبادئ ثورتهم السياسية النازعة إلى شعبية الحكم بغير تعيين عنصر على عنصر ، وثورتهم الاجتماعية الهادفة إلى وحدة العدل وجماعيته ، بغير تفضيل طبقة على طبقة . .

فلو أنه لحظ قبل مخرجه إلى عمله بادرة خلاف أو انشقاق على إمرة على ،

لما شفع له في موقفه المهادن من الخارجة المصرية شفيع . ولكنه خرج في صفر
والرأى العام مع الإمام ، وكلمة الثورة هي العليا ، والناس كلهم لها تبع وظهير .
ودخل مصر في نفس الشهر ، والحال هي الحال : الوضع ثابت والأمر جميع .
الريح رخاء . على الأفق هدوء ، وفي الجو سلام ، وليس نمة غيمة تنذر بعاصفة ..
الثابت قطعاً أن بذور الانتفاض على الخلافة الجديدة ظلت مطمورة في طوايا
باعثيه بضعة أشهر بعد البيعة لا تبرز لها أسواق ولا ثمار . . . يؤكد هذا كل
التأكيد أن الأمصار استقبلت عمال على عليها بلا معارضة . . عثمان بن حنيف
ارتضته البصرة . وقيس بن معد ارتضته مصر . وعبيد الله بن عباس ارتضته
اليمن . وإذا كان عمارة بن شهاب قد حيل بينه وبين الكوفة ، فإنها بايعت للإمام
على يد واليها قبله أبي موسى ولم تحاول أن تشق الطاعة أو تخرج على دعوة
الخضوع

أما الشام فهي وحدها التي ردت عنها عامله سهل بن حنيف ولما يجاوز
تبوك ، ثم لم تدل بالبيعة . ومع ذلك فإن ردها إياه ، وتخليها عن الدخول في
الإجماع كان خليقاً بأن يحمل عندئذ على الإرجاء أو التردد قبل أن يحمل على
العداء أو التمرد . فما أسفر عاهلها عن نواياه المدهشة لأمر المؤمنين إلا في ربيع
الأول من العام عندما بعث إليه بالطومار . .

وفتنة الجمل لم تبرز أيضاً إلى الوجود إلا في ربيع الثاني — على الأرجح —
بعد مصرع عثمان بأربعة شهور . وإذا كانت دعوة عائشة إلى القود للخليفة الصريح
قد سبقتها في الحرم ، وترددت بمكة ثم جرت بها إلى ماورائها الأنباء ، فإنها
دعوة لم تكن لتفهم ومثيلاتها من الدعوات آنذاك على أنها نداءات انقسام
أو عصيان . بل قد كان لها من ظاهرها البرى ما يبعث على الاعتقاد أنها غير
على هيئة السلطان . واستعداد للحاكم على المجرمين . وصيحة تفجع تطالب بإقرار
العدل مستعثة ولي الأمر إلى التعجيل بالقصاص للمظلوم دون أن تشي بتمرد أو تم
عن خلاف ظاهر أو خلاف مستور . . .

طوال شهرين ، أو ثلاثة ، كانت الظواهر كلها لا تنبو بموقف قيس ولا
تجافيه . بل قد كادت تبدى الحكمة ، كل الحكمة ، في مسلكه تجاه معتزله . .

فقيم إذن مجاهرته إياهم بالعداء ، ونزوه عليهم بحرب مجلبة ، تقطع الرحم ، وتهد الصعية ، وتبذر الثأر بينه وبين طائفة عزيزة عليه من مواطنيه ؟ . . ولم التعجل وصبره عليهم ، في هذا الجو المبشر بانساق الأمور ، لا ريب آتية من لدنهم بالافتناع والطاعة والأمن المنشود ؟ . .

غير أن الأقدار أبت أن تسبح على ظنه ! . .
بمخلاف ما قدر ورجا ، تكدر الأفق الصافي ، وراحت تزحف عليه الظلال . .
بدت غيمة هنا ، وبدت غيمة هناك . تجمعت كسفة ظلام إلى كسفة ظلام . ثم تحركت الريح . ثم ولولت . ثم عصفت . ثم عربدت كشيطان ! . .

في أسابيع قليلة ، بل في أيام ، توالى الحوادث سراعاً على أديم الدولة ، حتى ليلهث الدهر وهو يتابعها ، وترجرج العين — من حيرة — إذ تحاول ملاحقتها من مرمى نظرة إلى مرمى نظرة ، ومن مكان إلى مكان . . في البلدة الحرام ، اكتست الدعوة البريئة المتفجعة جلد ثعلب ! . . على الطريق إلى البصرة ، هدرت السكتائب المعبأة تقودها الضغينة ! . . بأرض الشام انحسر مد التريث الأخرس عن ثورة عصيان ! . . وإلى كل هذه الخطوب ، المتفجرة من قاع الغدر ، تماثرت زمروطوائف ، في شتى الأنحاء ، ترتد امزلة ، أو تحلج البيعة ، أو ترفع ألوية الدماء والدمار ! . .

حتى الإمام بدا كالخير ، أسرع بالردع إلى هذه الفرقة الخارجة على سلطان الدولة ، أم يجعل دونها بتلك ويدعها هي إلى حين . . في أول الأمر أوشك أن يسير بجيشه إلى ابن أبي سفيان ، إذ ألب الشام عليه ، وخرج بها ، وبأهلها ، من النظام العام . ثم كبج نفسه وسيفه ، وهم أن يلحق بطلحة والزبير وعائشة ، عسى أن يردهم بالحسنى عما اعتزموه ، وهم ببعض الطريق . ثم عدل خطته ، وحشد لهم حين فاتوه وعصفوا بالبصرة ، وأشاعوا بها القتل ، وأفشوا الجراح . وهل له معدى إذن عن ملاقة السلاح بالسلاح ؟ . .

درا كما تعاقبت الأحداث على الحكم الناشئ ، وعلى الخليفة الجديد ، وأسهم الناس فيها : كل بنصيب ، يدرأون الخطر ، أو ينفخون في النار ، بحسب ولائهم أو عدائهم ، وبقدر أيدهم وجهدهم ، يدفعهم إلى العمل إيمان يهدف ، وإحساس

بشيعة وتشيع بماطفة ، ومشايعة واعية أو عشواء لرأى روج له بينهم صاحب السلطة فيهم ، أو حملهم عليه . .

أفغاب في هذه الأونة ياترى عن قيس الخطر المائل ، الذى تجمعت نذره في أفق أمته ، وكاد يصيبها الأنقسام ؟ . . أخفيت عنه الأنباء وغاض نبع الأخبار ؟ أ كانت التبعة الملقاة على عاتقه — كوال من ولاية الأمصار ، وممثل للدولة — تسمح له بإغضاء طرفه عما يدور ؟ . . أغفل صاحب الإمرة الشرعية دعوته إلى المشاركة في الصراع الوشيك ؟ . .

ساعة ساعة ، ويوما يوما ، كان عامل مصر يعيش الخطر ويتنفس الأحداث . وخطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة ، كان ينتقل بباله وخياله مع الإمام . . فنذ مولد حركات الخلاف والتمرد ، يمت على إليه ليندب من قبله من الناس لحرب الشام ، حين كان مظنوناً أنه سيبدأ بالشام ، وما كان قد ظهر بعد مايت أصحاب الجمل للبصرة ، ولا ما أكنوه من خلع البيعة وصدع وحدة المسلمين .

ومع ذلك ، فمابان من الخطوب وجزرها ، عاش قيس ثابتاً كأثبت ما يكون جأش ، هادئاً كأهدأ ما يكون بال . . . كأنه بلا أعصاب . . . كأننا الأمر لا يعنيه . . . كأننا النوازل المحيطة ، بعالم ، وهو منها بنجوة ، في عالم بعيد بعيد . . . لقد ندب ، وكان هذا قصاره ، كأن في الندب الغناء في الغناء . . . وقد تواتت عليه الأخبار ، وكان قصاره أن يتابع من خلالها ، تطور الأمور . . . أما دلالتها . . . وأما ما لعلها تثير من تكهن ، وتشير إليه من توقعات . . . وأما ما عسى تتمخض عنه من عواقب وتناجج ، فكلمها — فيما يلوح — لم تحمله على تعديل أسلوبه . ولا على التكيف المرن الذى يقتضيه تغير الاتجاهات والظروف . . .

آثر التريث . بدا كأن شاء الثبات حيث كان . رأى تجميد موقفه الذى اختاره من اللحظة الأولى ، فلاح كالذى يرى قمة الخير في التجميد . . . فهدوء مصر ، وسط تواتر القلاقل في سواها ، يحسب لعل ويصلح أمره ، وليس يحسب عليه . . . وصبره بها على خارقة خبرتنا إماماً لهذه الطائفة في الطمأنينة ، وكبح ليلها العدواني عن المبادرة لسلوك قد يضيف اضطراباً إلى اضطراب ، ويوسع رقعة التمرد المشبوب . . . وتخدير الفتنة أضل من إيقاظها على أى حال . .

كل ما فعله قيس ، في هذه الآونة الحرجة ، هو التصبر الحذر . . . الترقب والانتظار . . . الانحياز عن الإسهام الفعال الذي يمليه لسان الواقع ، ويرجحه منطق الظروف . . . الوقوف بعصر بعيدة عما يدور خارج الحدود . . . المشاركة في الحكم بالاجتزاء كأنه صاحب « إقطاعية » خاصة ، وليس بعامل على ولاية في دولة موحدة ، ذات أمن موحد ، قد تؤثر سياسته الإقليمية — الخارجية على الإطار العام — في وضع الدولة ، كما يتأثر أيضا إقاييمه أسوأ تأثر بما قد يصيب غيره من أقاليم . . .

أية نظرة عابرة عجل يلقبها أمرؤ على الحركات المناوئة للإمام إذ ذاك خليفة بأن نقر خطة الحيلة المحاذرة التي انتهجها قيس ، وشاء بها — إبان تفجر التمرد — تجنب على شر محنة جديدة . لكن إمعان الفكر في تلك الحركات ، بوسعه أن يعدل بالمرء عن الإقرار إلى الإنكار . فحين يستقرىء الحوادث ، ويتبين دوافعها ، يود ويود معه منطقة — لو لم يستمسك الرجل تجاهها بمسلكه ، ولو غير أسلوبه . . . وحين يفوص إلى جذور بعضها ، يرى فيه ما قد أسفر عن نتائج ترتبت على مقدمات ما كان ليعوز قيسا الوقوع على مشيلاتها في إقليمه . وحين يستوحى بعضها الآخر دلالاته ، لا يعدم أن يجد بينها ما يحثه على ترك ركوده ، والمضى قدما إلى عمل حاسم بأوسع خطأ وأسرع اندفاع . . . ولا نريد بهذا أن ننساق إلى لوم ، أو تنزلق في مساجلة جدلية وأماننا ما يغنى عن التأويل . . .

أجل . بغير جنوح إلى مجادلة ، ودون اعتساف لتأويل ، يسع المنصف أن يتبين الدوافع الكامنة وراء حركات التمرد كافة ، في تلك الآونة ، فإذا هي لا تصدر إلا عن حسد للإمام واضطغان عليه . فأسباب التمرد ، في حقيقة الأمر ، « عاطفية » لا موضوعية . . . خروج طلحة والزبير على طاعته باعته فوزة دونهما بإمرة زهدا ، ولم يطلبها ، بينما قد طلما منيا النفس بها ثم سميا إليها سعيهما الدائب ، وركبا متن التدبير خفيت دونها القدم وكبت اللطية . . . ودعوة عائشة إلى مناوئته انبنت على أسس « نفسية » لا على أسس تتصل بسياسة الحكم ، أو قدرة الحاكم ، أو صالح المحكومين . . . وعصيان معاوية تفجر ، كما هو معلوم ، من بركان ذلك الحسد الأموى القديم لبني هاشم ، الذي ظل طويلا يثور ليهداً ، ويهدأ

ليثور ، عدة أجيال . . فإذا بدا لامرئ من بعد أن يقول إن رغبة الثأر لعثمان هي التي حركت أعرد المناهضين ، فإن ظروف المصرع ذاتها تدحض هذا الادعاء وتنفيه لأن دعوة القصاص ذريعة مفتعلة مصنوعة ، وسبب زائف دخيل وليس بصادق ولا أصيل . . وبحسبنا أن علمنا ، في هذا المقام ، أن طلحة والزبير وعائشة كانوا رءوس المؤابيين على عثمان ، الداعين الناس — في حياته — سرا وجهرا ، إلى الثورة عليه وطي سجله أجلا وخلافة . . . وأن ابن أبي سفيان لم يحاول عندئذ — وقد كان بمقدوره — أن يحرك جيشه المتربص على مشارف المدينة ، ليدفع عن الشيخ ، المحصور فيها ، مصيره ، ثم ساوم الإمام ، بعد المصرع على البيعة لقاء جباية مصر فوق ولاية الشام . . .

ولم تدم الدعوة من رجالها أناسا نبا زيفها بهم ففارقوها ، أو نقدوها ولحوا دعائها على ما ادعوه ، وإن كان صلاح أمرهم في نجاحها وبلوغها الشأو الذي تريد . . . وليس سعيد بن العاص ، وإلى الكوفة من قبل عثمان بالوحيد الذي جرى ذكره في هذا المقام . ولا محمد بن طلحة بن عبيد الله ، الذي ألقى على أبيه — زعيم الدعوة للنار ! — ثلث دم الخليفة المقتول ! . . فدعوة القصاص إذن لم تكن لتنجم ويرتفع لها صوت لو أن البيعة قد أفضت إلى غير طي بعد عثمان . . . ولم تكن أيضا سوى ذريعة ، مفتعلة ومصنوعة ، حاول أصحابها — خداعا وتمويهها — أن يرفعوها شعارا عاليا أمام أعين الأمة ، انتقالا بحركاتهم المنتفضة الحاقدة من نطاق الهوى الخاص إلى حيز قضية عامة . . .

ولقد أطلق رجال الفتنة النيران من عقالها ، وأججوها في أرجاء الوطن العربي بدعوتهم هذه التي مست مكنن الأسف والتفجع في قلوب الناس ، ثم راحت تستثير التعطش للانتقام من عاد ظالم لقتيل مظلوم . ولا ينفع هنا أن يقال إن الجرم قد ألقى على غير مقترفيه ، لأن الجماهير ، في مثل هذه الحالة ، يصدرن في انقيادهم العاطفي عن غريزة القطيع . . .

ومع ذلك فإن الخطر في الدعوة التي ذاعت ، وتوالى موجهها العاتي كالطوفان ، لم يكن فيما حركت من غريزة الوحش القابع في جوف الإنسان ولا فيما أيقظت بنفوس بضعة حاسدة من حقد ، أو جشعة من نهم بالسبوة والجلاء . . .

ولا فيما ابتدعت من عوامل الشقاق والانقسام . فالتنافس على السلطان — أى تنافس — يحمل دأما في طواياه بذور خلاف تنبت العداوة وتزكى الصراع ، وتثمر الفرقة . وهو عادة يقترن بالشغف بالدم . . . إنما الخطر ، كل الخطر ، كان في استغلال الدين ، وتسخير خدمته الشعار الخداع . ومن ذا يستطيع أن يقول إن القصاص لا يدعم الحياة وأنه ليس ببعض شريعة الله ؟ . .

الذى لا جدال فيه أن شعوب المجتمع الإسلامى عندئذ — على امتداد الدولة الجديدة — كانت حديثة العهد بالإسلام . وأن أبناءها كانوا لا يزالون قريبين ، قربا زمنيا ، من الرسول . وهم بهذا وذاك أحرى بالاهتمام بالدين الجديد الذى اعتنقوه ، وأدنى إلى الغيرة عليه أن يخرق فعل فاعل ، أو جماعة ، أحد مبادئه ، أو يخرج على بعض أحكامه . وليس يجدى أن يقال إن الفترة الزمنية القصيرة المنقضية على انبثاق فجره ، لم تكن كافية للتمكين لهذا الدين في قلوب الكافة على نحو يحقق توثق التفاهم به ، ويمضى بجموعهم في مظاهرته إلى أبعد الأشواط . . فمن آمن به حق الإيمان فإيمانه الصادق يكفيه . ومن اعتنقه متابعة فالحياة الجديدة التى نقله إليها الإسلام — بكل مزاياها المادية التى أثرت الشعب ، وبكل مزاياها المعنوية التى رفعت فوق الشعوب المعاصرة وسودته على أعظم الحضارات — تعده بمثل قوة الإيمان الخالص العميق . .

عن هذا الخطر المنذر بأفدح النتائج ، تكشف حركات التمرد ، فى عدة أرجاء ، وتبلور حولها ، هنا وهناك ، تأييد مؤمن بدعوتها عن اقتناع ، أو تأييد قطيعى مخدوع . . وبهذا الخطر قوبل على ولما يكذب بخطو أولى خطواته إلى الانتقال بالدولة من قلق الثورة إلى هدوء الاستقرار . والسلاح لهذه الدعوة بالذبيوع ، أو الإفساح لها فى الانتشار ، هو فى حقيقة الأمر صب للزيت على النار . وهو سلاح حاد يثار يسهل أن يجد طريقه إلى قلب الأمن القومى للبلاد ليصميه ، ويهدد وحدة الأمة بالانهيار وما لا يمكن أن يقال فى موطن صواب إن ثمة حاكما مستولا ، أو مواطنا عاديا من عامة الجمهور يستشعر حق أمته عليه ، والغيرة على مصيرها وإن لم يكن له دور مقرر فى الحكم ، يستطيع وهو آمن من اللوم أن يستبجح لنفسه الإغضاء عن شبح هذا التهديد . .

من هذه الوجهة وحدها — دع ما سواها من الوجهات ! — يكفي معايرة المسلك الذى سلكه عامل مصر حيال جماعة خريبتا المعتزلين ، فإذا هو بعيد غاية البعد عن مسلك الحاكم المسئول ، ومسلك المواطن الغيور . . . فلقد آمن هذه الطائفة الخارجة على البيعة ، وعلى النظام العام ، وجعل منها — بفعله — لافتة منشورة أمام الناس ، تعلن بجلاء مشروعية تلك الدعوة الخداعة إلى القصاص . ولقد يسر لها — أو لم يمنع — اتصالها بأمثالها من الوافدين عليها من خارج الإقليم . . . وافر أيضا لأفرادها رزقهم كاملا من الخبز توفيره لمن عداهم من الموالين . . . فإذا لم يكن فى مسلكه ما ينم عن رضائه عنهم ، ثم يروج الانتقاص — مبرقا بدعوة القصاص ، فأى مسلك يا ترى سواء يمكن أن يحبوا الخارجين على الإمام ، وسلطة الدولة ، ووحدة الشعب ، بالتأييد ؟ . . .

ونكرر أن هذا لا يطمئن على الرجل ، ولا يتهمه فى ولائه ، لأن تاريخه ، ونقاء نيته ، ينزهانه عن الاتهام . ولكنه زلة بدرت ، وفى مقدورها أن تطفو على كل مانحله ، أو عرف عنه ، من دهاء . . . وهى زلة عصية أمامنا على التبرير . وهى حلقة فى سلسلة طويلة من الزلات . وبحسبها هنا أن أضفت على الخارجة صفة الخيرة على الدين لتلف حولهم السذج من العامة وعرض الناس الذين يستهويهم بريق القشور ولا تسعفهم عقولهم المحدودة بتعمق ما تحت هذا البريق ! . . .

ومع هذا كله ، فلم يكن عصيا على قياس أن يتدارك الأمر والأحداث تلتوى أمام عينيه ، وتنحط لها فى الصخر مجرى آخر ، يصل بها إلى غير ما حدس ، ودله عليه الاستقرار . لكنه — فيما بدا — تركها تسير . وآثر أن يمضى دونها فى طريق مسدود ، أو فى دائرة التيه التى لا يجديه سميه على محيطها — ولو بالخطا السراع — ولا يزيده شيئا على البقاء حيث كان . . . وعندما ندع قصة المجاملة ، أو — بأسلوب تفكيره — واقعة تأمين مصر بالكف عن خارجتها ، فإننا لا نراه إلا عاش فى قوقعة هذا التفكير ولم يحاول أن يطل من الصدفة برأسه ، ليرى ما يدور خارج مكمنه ، أو يستشف نذر العاصفة من معالم الأفق الممدود . . . لقد كانت النذر الحاضرة أوضح من أن تتجاوزها عين ، وكانت النذر الغائبة أدنى إلى نطاق الاحتمال . ولكننا ندعها جميعا وما تسفر عنه إلى أوانها للقدر ،

ثم نتابع الأحداث الجارية بالنظرة العابرة ، لا بالنظرة الثاقبة التي تتعمق الأمور إلى الأصول والجذور . . ندع رباط خربتنا بما فيه ومن فيه . . وندع مخرج عائشة وحزبها المنتسرين بالإصلاح . . وندع « تردد » معاوية عن الدخول في الإجماع ولا نقول « نعرده » على الإجماع . . وندع الدعوة « الدنيوية » إلى القصاص . ندع هذا كله ولا نحاول أن نحمل قيسا على استكناه دلالاته وما يسر من أخطار ، ثم نغضى وإياه مع الأحداث متابعين متابعة المواطن العادى لا متابعة السياسى المسئول . . فلائى سلوك لعلها تهدينا هذه المتابعة التي لا تقتضينا قط عناء تعمق الشواهد الماثلة استخلاصا للنتائج ، أو تذبذبا بمستقبل الاتجاهات ، واستقراء للامنتظور والمستور من خلال المنظور ؟ . . .

سلوك الرجل العادى ، ولا جدال ! . .

السلوك الذى يصدر عن الموقف ، ويعمى بوحيه ويتبع المتابعة بالاتباع . . وإذا نحن عرضنا لصور التصرف « الشعبي » في كافة مراحل الزمن ، ومختلف المواطن ، إزاء الأحداث والأزمات التي تعترض مجرى التاريخ ، لما وجدناها إلا أشبه شئ بالتقليد العريزى لسلوك القادة ، وذوى الرأى ، الذين اجتبتهم شعوبهم ، ووضعهم على قمة المسئولية ، لا لمجرد إيمانها بقدرتهم ، بل لحاجتها الطبيعية إلى من يسير أمامها ويهديها الطريق . فللأزمات والمحن نواقيس تحتشد الجماعات البشرية — نفسانيا — على جرسها المنذر ، وتكون بنية متماسكة ، كأنها النهر الدافق ، القطرة الأولى في مقدمته هي التي تقود انطلاقه . . .

على هذا النحو صحت الأمة الإسلامية في تلك الفترة ونواقيس الخطر المتمثل في حركات الانتكاس والتمرد عملاً بجرسها الأسماع . وبطبيعة الجماعات البشرية تجمعت نفسانيا ، ثم تجمعت عضويا ، كبنية النهر الدافق ، وراء الإمام وهو عضى في مقدمتها إلى مكان الخطر لقصف عناصره التي تهدد وحدة البلاد .

ولم يكن الخطر ، في شق صورته إذ ذاك ، إلا فروعا عدة لشجرة واحدة هي النار لعثمان . فكذلك كانت الدعوة العائشية ، في نسختها « الدنية » المنادية بالإصلاح ، وفي نسختها « العسكرية » التي زحفت على البصرة ، وترجت إصلاحها إلى دمار وأشلأ . . . وكذلك كان التمرد الأموى ، منذ بدأ « مساومة » تاجر ماكر ، حق شب « سلطانا » لولى دم المظلوم ! . . وكذلك كان شعار خربته

وهى تتفاوت — أول الأمر — كالتعالب ، ثم تنتفض من بعد لالتهايم الفريسة !
فإن يعجب امرؤ من الناس لسلوك قيس إزاء الخطر الذى تنطوى عليه
حركات الانتكاس فلا لوم عليه إذ يراه لا يصدر فى سلوكه عندئذ عن دهاء
داهية ، ولا عن تبعة حاكم ، ولا عن حنكة سياسى ، ولا عن انفعال رجل
عادى من عرض الجمهور . . .

إن الأفق حواه فوق الدولة الجديدة ليظلم . وإن سحائب الأحداث لترحف
من كل ناحية . وإن النفوس لتتفعل وتتشتعل . وإن الجماعات لتعتشد على رنة
النذير . ولكنه ، مع هذا ، يظل بمزلة ، داخل قوقعته الفكرية . . حق المنكسة
المصرية التى عايشته وهى على قيد خطاه ، لم تكد تلقى من اهتمامه ، فيما يحدث
عواقبها ، ما هى جديرة به ، وما هو مفترض فيه . .

لقد كانت لقيس — على أهون الفروض ، ومن أيسر السبل — أسوة حسنة
فى الإمام لو أنه شاء أن يجد ، فى موطن لا بديل فيه للجد ، ويستقبل الأمور
بالأكثرات الذى يقدم الحسم على ما عداه . فالإمام قضى برأيه فى ادعاء القصاص ،
بما لا سبيل بعده لإعمال فكر ولا اجتهد . وقوله حين سمع بالدعوة العائشية ،
وما حركت ، وأوشكت أن تذهب إليه ، تدينها كفتنة لا بد للناس من وأدها
قبل أن تستفحل ، ومن قمعها إذا ما شاء مروجوها أن يطلقوا لها العنان .
وما نحسب عامل مصر قد غاب عنه أن أمير المؤمنين أخذه الغضب أى مأخذ ،
عندما تناثرت الشائعات عن مخرج عائشة وحزبها من مكة بحجة الإصلاح ، وقال :
« لو فعلوا لانقطع نظام المسلمين » .

هذه أسوة رأى لكل من اشتبهت عليه الآراء وشاء الوصول من أقصر
طريق بغير حاجة إلى عناء التعمق والاستقراء . . وهذا هو رأى من لسان
الرجل الذى تمكنه طبيعة وضعه على قمة السلطة من الإحاطة بكل ما يجرى تحته
على أديم دولته ، وبكل ما قد يجد من احتمالات ، لأنه ينظر إلى الظروف
والمواقع ، وإلى العلل والنتائج ، نظرة شمول وعموم ، لا نظرة اجتزاء عليها رغبة
عارضة أو تحبسها حدود إقليم . . وهو أيضا رأى « المسئول الأول » الذى يرسم
سياسة الدولة ، وتحتم قواعد الولاء للنظام أن يلتزم بها المواطنون فضلا
عن الولاة . .

فإذا انتهج الإمام أسلوب المقاومة والردع حيال حزب القصاص من أصحاب الجمل ، وقعد قيس عن اتباع نفس الأسلوب بإقليمه ، فإنه إذن خالف أصول الالتزام وأخل بمفهوم الولاء السياسى للإمام . وإذا اعتل له بظروف وضع خارجة مصر وإيمانه بأن كفه عنهم أجدى على أمير المؤمنين ، وأولى بتجنيبه شر اندلاع فتنتهم النائمة وهو آنذاك مشغول بفتنة الجمل فى البصرة ، فإن دحرة الحزب بهذه البلدة ، ودخول فلولة فى سلطان الدولة — أو نهاية المعلول بانتهاء العلة ! — كانت أدعى إلى استغلال ذلك النصر بإخضاع بقية الحزب فى مصر ، واستخلاصها صافية الولاء للإمام . . وإذا قيس ، مع هذا ، إنه خشى منهم قوة تنقض عليه أمنه ، وتهدد الوضع العام ، فإن قوتهم الذاتية ، التى لم تستطع مواجهته فى بدء عهده وهو أعزل ، وأنصارها خارج البلاد فى تلك الآونة أعزة ، خليفة بأن تصبح أخشى له ، وأهون عليه بعد الهزيمة المنكرة التى مزقت جيش عائشة ، وقضت على من فيه من رؤوس الدعاة للقصاص ، وزعماء الانتكاس .

شجرة الثأر قد اجتز — فى الجمل — فرعها البصرى ، وغدت دانية أقرب دنو من شفرات النفوس الكفيلة بتقويضها ، جذعا وفرعا ، لو اجتمع الجهد إلى الجهد وتضافرت عليها الضربات . . لكن قيسا لم يعمل فأسه . . لأمر ما حمأها معطلة يمينه ، يلوح بها من بعيد ، مكتفيا عن الجهد بالتهديد . . لأمر ما لم ينتفع بأسورة الرأى التى أصبحت عن خطر دعوة القود المنطلقة من أفواه المبطلين نشر الموت باسم الحياة ، وطلبها للدنيا باسم الدين ! . . لأمر ما لم ينتفع بأسورة السلوك التى ضربها له الإمام ، ولم يلتزم خطوط سياسته العامة التى رسمها نهجا للمواطنين وخطة للولاة والحكام . .

وما يتبدى هنا من مخالفة الرجل فى هذا المقام ، لا يقتصر على مجافاة العرف والأصول ، بل يباين أيضا المنطق السوى ، ومقتضيات الظروف الماثلة ، وطبيعة البشر الجانحة دائما بهم إلى التطالع الأفضل ، وتغزية المزيد بمزيد . . فلا مرأى قط فى أن القوى الخارجة على الإمام ، كانت تصدر جميعها ، فى قولها وفعلها ، عن واقع واحد هو مسخط إمرته ، وتعمل جميعها ، بكافة وسائلها ، لهدف واحد هو

ابتزاز السلطان . وهى بهذا أشبه بجيش ، إن لم يكن موحد القيادة ، فإنه موحد المبدأ ، موحد الغاية ، موحد الأسلوب ، يتيمناً للزحف على سلطة الدولة فى ثلاثة ميادين . بل لكأنه — بلغة الجيوش والحروب — قلب وجناحان : الشام القلب ، والبصرة جناح ، وخربتا جناح . . فإذا أسفرت أول حركة مضادة تشنها الدولة عن إخضاع بعض أولئك الخارجين على سلطانها ، فإن « منطق » الأمور يقضى بمعالجة بقية عناصر الشعب والعداء بما يكرهها على الإذعان والولاء . . وإذا ضربت البصرة ، وهى أحد جناحي جيش العصاة ، فإن ضرب خربتا بعدها ، وهى ثانيهما ، ضرورة « حربية » كفيلة بأن تكشف القلب وتنتهى بالجيش كله إلى البوار . . وإذا حيز النصر فى موقع ، فإن إتباعه على الأثر بنصر آخر ، هو من شيعة الطبائع « البشرية » المجيولة على إشباع غريزة التفوق والظهور . .

مقدمات تقع فى حيز السمع والبصر وتنتج عما كان ، ونتائج تقع فى حيز المضاهاة والقياس وتعلق ما يجب أن يكون ، ليس من بينها جميعاً — سبباً ونتيجة — ما يحتاج إلى إمعان فكر ولا جهد اجتهد . . حوادث واقعة ، ووقائع ماثلة ، وحقائق مشهودة ، تكشف العلة ، وترسم الوسيلة ، وتحدد العلاج ، حين نحاول استنباءها فكاد نسمع لسان حالها يتساءل : كيف غاب مشهدها عن عيني قيس ؟ . . كيف خفي جرسها عن أذنيه ؟ . . كيف أفلتت تترى وتزار تحت حسه وإدراكه دون أن يذلل فى تطويعها وتطويرها لصالح دولته — وفى نطاق المرسوم والمعلوم — شيئاً من مكر الداهية الأريب ، أو حنكة السياسى الماهر ، أو دربة المحارب المتمرس الذين كأنهم الرجل جميعاً فى آن ؟ . .

ثم ندع ما وجب أن يكون إلى ما كان فى الإمكان ، فنرجع إلى العهد الذى عاهد عليه خارجة خربتا وعاهدته هى عليه . . لقد كف عنها ولا يكرهها على البيعة ، وكفت عنه لا تناوته ولا تشغب عليه أمره حتى يتبين الناس . . فإذا لم يكن فى رجوع البصرة — بعد الجمل — عن الخلاف ، ودخول أعوان عائشة وطلحة والزبير فى طاعة الإمام ، بيان كاف يؤكد أبلغ تأكيد اتساع من التأييد الشعبى للنظام الجديد ، فأى بيان بعده ينتظر قيس ليطلب خارجة مصر بامثال

هذا الاتجاه العام ، وفاء بمهدهم ، وترجمة له من لمظ جامد إلى واقع ملموس ؟
أغضى إذن قيس عن الأخذ بما وجب أن يكون . . وأغضى كذلك عن
اتباع ما كان في الإمكان ، فإذا هو ، في كلا حالي سلوكه ، قد عزل نفسه عن
الأحداث الجارية من حوله حين لا مناص عن مشاركته في هذه الأحداث . .
وفصل مصر عن الدولة وإنها — بكيانها الإقليمي — لإحدى ولايات تؤلف ،
مجتمعة ، وحدة الأديم ، وبمشاركتها الوجدانية تكتمل الوحدة القومية ،
وبإسهامها السلوكي في الأحوال العامة ، تتم وحدة السياسة . . . وإذا كان لنا
أن نعرض بشيء ، للأثر النفسي الذي تركه موقفه هذا في أبناء إقليمه : الموالين
والخارجين على السواء ، فإنه إذن تقاص ظل هيئته كحاكم في نظرة كلا الطائفتين
من مواطنيه . . أم لا ، فكيف عسى يراه أعوانه ، والقدرة عندئذ حاضرة
بيمينه ، والفرصة قد سمت إليه ، ثم لا يقدم على جمع كلمة الإقليم كأنه ضالع مع
العصاة ؟ . . وكيف تراه الطائفة المحتجرة وإنهم ليرجعون في الظرف القاسم ،
بطبيعة الحال ، أنه حاماهم — طوعا أو كرها — على الوفاء بمهدهم له ، أو التزام
رأى الجماعة بمد أن وضحت دواعي الالتزام ، فإذا هو لا يبادر إلى إنفاذ
ما يرجعون ، كأنما يقصر عنه بآءه لأنه يخشاهم ويحسب حسابهم حيث لا موجب
لخشية ولا حساب ؟ . .

إغضاء يختلط على المرء تبين حقيقته . .

يشابه التهاون ، ويمثل الاستخذاء حين تتوفر القدرة ، وتنتهى الفرص لعمل
سلمي أو حربي ، يروع الخارجة ، تمكينا لسلطة الدولة ، وتحقيقا
لوحدة الولاء . .

ويدانى الميل إلى جانب العصاة ، كما يضارع تشجيع العصيان وإغراء المحكوم
بالحاكم ، في رقعة إقليمية محدودة ، وعلى امتداد أديم الدولة سواء بسواء . .

وهغبة الأمر في الحالين غير مأمونة مع توقع أضغاف النتائج وأهول الاحتمالات ،
لأنها عندئذ هوان السلطة ، وزوال الهيبة ، وانقراط عقد النظام في دولة تتحطم
فيها مقومات الطاعة والولاء عند رعاياها ، وحقوق القيادة والولاية في أيدي
الحكام . .

لكنها أخطر وأشد وخامة ، بلا جدال ، حين تجمع الدلالات على أن أثر هذا الإغضاء ، بما يضم من تهاون ، لا يقتصر على الانتقاص من هيبة الدولة ، ولا على إغراء عناصر الشغب والمروق بها ويعن يثلون سيادتها ، وإنما يمتد إلى النيل من « عمل عام » يرى لدعم سلطتها ، وضمان وحدتها ، وقمع عصابات الخروج والتمرد التي ما فتئت تصطنع من الدرائع ، وتستحدث من الأساليب ، ما يؤدي بالحكم القائم إلى الانهيار . .

فلا مرأى في أنه كان نعمة « عمل عام » يرمى إلى توطيد السلطة ، أخذت تلتئم جزئياته ، وتنسق أساليبه ، وتتفق غاياته حتى ليبدو كأنه « خطة » موضوعة ، واضحة المعالم ، محددة الاتجاهات . . وما ظهر خلال هذه الفترة من قرائن ، وأذيع من رسائل وأنباء ، يوشك أن يقطع بأن شيئاً على هذه الشاكلة هو الذي كان يحرك الأحداث — أو أريد له أن يحركها — في البصرة ومصر والشام ، بلوغاً إلى غاية موحدة ، ووصولاً إلى هدف مرسوم . . ولعل من ملامح تلك الخطة اهتمام الدولة بتوجيه قواتها الحاربة لضرب مراكز التمرد ، مركزاً بعد آخر ، في مواقيت قصد — في حدود الزمن والمسافة — أن تتلاحق لكيلا تدع فرصة لانتقاط الأنفاس أو تفسح سبيلاً لمركز منها لتعزيز سواء حتى لا يفسد هذا التعزيز على « العمل العام » تقديره ، ويؤثر في النتيجة النهائية للقتال ، ثم في الحاجة المقدرة للنزاع . . ولعل أيضاً من ملامحها أن يعلن الإمام ، في ربيع الأول ، سيره إلى معاوية ، ليشغله بالإعداد لحماية الشام ، ويحبسه وجنوده مرابطين فيها ، أو على مشارفها ، خشية هذا الغزو المرتقب ، بينما ينفلت هو بأغلب جيش المسلمين إلى البصرة ، ليقضى على من غزوها من العصاة . . ولعل منها ما بدا من تباین الروايات عن موعد التقاء جند علي بجند معاوية في شمال الأرض السورية ، ومناوشاتهم هناك على الماء ، بعضها يحدده في ربيع الآخر ، وبعضها يحدده في ذي القعدة وإن اتفق هذا التباین حين ترجح أن الامام قد سرح بعض فصائله إلى تلك الحدود الشمالية ليشغل بها عاهل الشام في نفس الوقت الذي أنجه فيه بقواته الرئيسية لحوض معركة الجمل . . ولعل منها إلحاحه المتوالى على قيس — في جمادى الآخرة ورجب وشعبان ، على الأرجح — أن يعزى إلى من قبله من خارجة خربنا فيظهر منهم مصر ، أو يستفيهم للطاعة ، إذ هم في حقيقة الأمر من أنصار

معاوية أو بألوف العبارة التقليدية «طابور خامس» وفرقة غير رسمية من جيوشه يدخرها لوقت موقوت . . . ولعل منها تريت على عن محاربة الشام ، وتراسله ومعاوية ربيع الآخر والجماديين ، في بعض الروايات ، وتحمله اتهام أصحابه له بخشية اللقاء لأنه كان عندئذ ، فيما بدا ، على تقيس في الفرصة كما على اصحاب الشام في الرجوع عن غيه ، والدخول في إجماع المسلمين . . . ولعل منها ما كان ذايعا في تلك الآونة بين حزب معاوية أن يقبل على عليه بجيش من أهل العراق ، ويقبل عليه قيس بجيش من أهل مصر ، فيقع بينهما ، وتطحنه الرحي وتقضى عليه . . .

هذه كلها ملامح ، إن لم تصور لنا خطة موضوعة ، فإنها توشك أن تشير إلى ما يقرب من مفهوم الخطط الحربية ، وما تتضمن من إعداد وحشد ، وتستند إليه من توقيت وتمويه ، وتتطلب من تنسيق العمل وتضافر الجهود في مختلف الجبهات . فإذا غم على قيس أن له فيها دورا ، فليس لآحيه بالعلوم . وإذا ثبت أنه دعى لدور معلوم ، ثم لم يلب الدعاء . . . أن تختلط في موقفه الآراء . . .

ولقد كان له حقا دور ، ما نظن لو أنه أداه في أوانه ، إلا مجنبا الدولة والشعب والإسلام ذلك المصير الحزين الذي انتهى إليه عهد الإمام . وسلوكه عندئذ لا يحتمل التبرير ، أى تبرير . . . كما أن لومه عليه يؤخذ بالقول الفصل ولا يحمل على الترجيح والتقدير . . . وكيف لا وقد سطر بيمينه كتابا إلى الإمام يرفض أمره حين استعشه على قتال تلك العصابة المعادية بمصر ، ويقول فيه :

« إنهم وجوه أهل مصر ، وأشرفهم ، وأن الحفاظ منهم . وقد رضوا منى أن أو من سربهم ، وأجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم . وقد علمت أن هواهم مع معاوية ، ولست مكايدهم بأمر أهون على وعليك من الذى أفعل بهم فذرني فأنا أعلم بما أدارى منهم . . . » .

أمان ما بعده أمان ، وإن قيل مكايده . . .

وتهاون ما بعده تنهاون ، وإن قيل دهاء . . .

٤

جاوز الاعتداد العناد !

أبي قيس بن سعد أن يرضخ لرأى على ، ويعمل به . . ثم اندفع — عن غضب — يرى في إلحاحه عليه بلزومه ، نوعا من التشكك والاثهام لا يحمده معه بقاؤه على عمله إلا إذا رضى كريم لنفسه أن يدع ذكره لقي في يدي شائعات مسعورة تنعم بالولوغ فيه . . .

وما كان قيس غير كريم . ولا كان بالذى يسهه أن يصبر على سبة تنال من قدره ، عن جور أو عن ريبة . .

بميزان كبريائه وزن الأمر لا بميزان المراجعة والترجيح بين رأى ورأى ، وفكرة وفكرة ، في إطار من ظروف وأوضاع قد تهبط بكفة ، وتعلو بالأخرى فيتبين المرء قدر الموزون محسوبا — على التحقيق بالحساب الدقيق . .

إنه ليزن بميزان الانفعال . . يحس بالثقة بينه وبين الإمام تتهاوى وتميد كأرض رخوة يعايشها زلزال . . . تعيم وتظلم كأفق تلاحقت عليه كسف السحب السحباء ذات أمسية غائرة الأنجم . . . تتقلص وتذوب كظل راحت تلتهمه وقدة الظهير . . .

ولم يكن مسرفا في إحساسه وهو يعتزم أن يهجر مصر إلى حيث ينأى بنفسه بعيدا عن الشبهة . . فالهمس في هذه الفترة الأخيرة من عهده لا يكف عنه . واللفظ يتناثر حوله ويعلق بثوبه . والأصابع لا تنفي تشير إليه ، بالإيحاء أو بالادعاء . . . هنا ، في هذه الأرض التي معنى فيها سعيه ليسكن تأثرات الحسام ويوقظ بارقات السلام . . هناك ، في قلب الدولة التي أخلص لها ، ولأميرها الولاء ، عملا ورأيا ونصيحة . . بعيدا ، في مواقع عدوه الذين حيرهم بهدوئه وأكدهم بدهائه . . .

في مصر ، والعراق ، والشام . . في الحجاز أيضا . . في كل مكان على الرقعة الإسلامية ، إلى هذه وتلك من مصر ، وغير هذا وذاك من إقليم ، تحركت عليه الشبهات ، وتداولته الريب والظنون . . . حتى بعد أن تقض يده من عمله ،

وأوى إلى ملاذ يلحق فيه جرح كرامته ، وينشد بعض راحة البال ، لم يعدم عبارة
لوم ، أو نظرة زراية ، أو بسعة شماتة وسخرية تحرك عليه آلامه ، وتجزيه عن
وفائه أسوأ الجزاء . . .

بملاذه في المدينة ، جرحته ألسنة ، واقتحمته أعين ، وتناولته ألفاظ شوارد
رعناء بالوعيد . . مروان بن الحكم صورته على حافة هاوية من الضياع والأسر
ثم خايله بالصورة . . والأسود بن أبي البختري هول له في مصير تحمله إليه راحلة
تشق انفيافي إلى الشام . . وحسان بن ثابت أتأثره نظرة جوفاء من ثقب عينيهِ
اللتين مات فيهما الحس ، وغاض الملح ، وانطقاً البريق حتى غدنا حفرتين من
رماد ، ثم راح يلوك في فمه لساناً كالثعبان ، في طرفه المندلع سم ، ولحركته
الأفعوانية خفيح . . !

ولم يأبه الرجل للتهديد ، ولا خشى شيئاً من تنكيل معد ، وعذاب حاضر
أو موعود . إغما آذاه أن يشمت فيه ذلك الشاعر الضرير ، ابن قومه ورفيقه
القديم ، الذي طالما — في سنى الإسلام الأولى — قا جلى الكرب ، بنظيمة
الأنور عن وجه رسول الله ، وقمأ عاديات الكفر والظلام ، فإذا هو اليوم
أعنف ما يكون حقداً ، وأشد ضغينة على ابن عم رسول الله والذين تابعوه من
رواد الإيمان ، وأحنى قلباً ولساناً على عدوهم من المتخلفين وبقية الأحزاب الذين
أكرهوا — بآخرة — على الدخول في الدين . .

وألقي بسمعه ، في تصبر ، إلى حديث حسان ، فإذا الشماتة تدفق من فيه كأنما
راح يلفظ قلبه الأسود مع لعابه الكريه :

« نزعك على بن أبي طالب ، وقد قتلت عثمان . . فبقى عليك الإثم ، ولم
يحسن لك الشكر . . . »

وبدا كمن يحسن الرثاء لحال صديق مظلوم ، وإن كان قد استذله حقاً
شيطانه ، تلك اللحظة ، كما استذله يوم أزرى بعائشة ، وولغ في حديث الإفك
السموم مع الواقفين من رؤوس المنافقين . . !

وثار قيس بالشاعر الظنين :

« يا أعمى القلب والبصر ! . . والله لولا أن ألقى بين رهطى ورهطك
حرباً ، لضربت عنقك ! . . »

وطرده من مجلسه . .

لكن لات حين رجعة إلى ما كان . ولا عن عزم أبرمه وقضى به ، بنفسه ، على نفسه ، وعلى مصر ، وعلى الدولة كلها بالمصير الذى كان يمشاه . وهل عزله على ، أو هو الذى شاء هذا المزل ، وجرى فيه ، حتى استوفاه ؟ . .

بل قد أعجلته كبرياؤه . . مالت به عن الطريق الذى كان أولى به سلوكه ، وأجدى على الناس والبلاد فى فترة حازبة تتطلب اجتماع الجهود ، واصطناع الصبر ، ومعالجة الأمور بروية تزن مختلف الاحتمالات بيزان المراجعة والترجيح لايوازن الاتفعال . . .

لكنه شاء أن يحتكم إلى ظنه ولا يحتكم لعقله ، فرأى فيما ارتآه الإمام تهمة تنتقص من ولائه ، وتحط من كرامته ولم يرفيه ضرورة حتمها تطور الظروف ، واقتضاها منطق السياسة فى تلك المرحلة إزاء معتزلة مصر وإزاء غيرهم من المتمردين والعصاة على امتداد أديم الدولة الاسلامية ، وأينما كان وكر للتمرد وبؤرة للمصيان . . وإذا كان اقتناع قيس عندئذ بسياسة المهادنة هو الذى دفعه إلى الإصرار عليها ورفض القتال ، فإن غضبته لبدئه هذا ليست هى التى حملته على اعتزال منصبه ابتعادا بنفسه عن المشاركة فى حكم يتناول الأمور بغير الأسلوب الذى يرتضى هو وتحمل تبعه الأخذ به إذ يأمن مغبته ، ويضمن نتيجه ، ويوقن بنفسه وجدواه . . لا عن تمسك ببدئه قد استقال ، ولا عن تملك من التبعة اعتزل ، مادام قد عاود الالتحاق بالإمام بعد قليل وراح يسهم فى تنفيذ سياسة الردع التى أبأها من قبل . إنما الأدنى إلى الصواب أن يكون ما حمّله على الاعتزال هو خشيته أن يقترن بقاؤه على عمله بالريبة فيه ، لأنه عندئذ البقاء الذى يؤمن العدو ويحميه . .

بهذا الشعور ، فيما نحسب ، كتب إلى أمير المؤمنين يرض أمره له بالقتال ، ويقول :

« . . إن كنت تهمنى فاعزافى عن عملى . . وابتث إليه غيرى . . »

ولم تكن للإمام حيلة تجاه العناد ، فأبرم المزل وإنه — كما نرى — لأكره شئ على نفسه ، لأنه يعرف ولأى قيس ، ويؤمن إيمانا عميقا بإخلاصه وإن

حالته في هذا ظنون بعض خاصته ومشيريه . . فما نظن قرار العزل جاء عن رغبة في نفس على ، ولا استند إلى شبهة ظاهرة أو خفية قدر استناده إلى مقتضيات الرحلة ، وتطورات الظروف . . ولعل كلمة عبدالله بن جعفر ، قبيل هذا القرار ، تغنيانا عن كل تعليق . .

قال عبد الله ، وهو ينقد الإمام مسلك قيس تجاه معتزلة إقليمه ، وإصراره على سياسته السليمة . .

« يا أمير المؤمنين . . إنك إن أطعته في تركهم واعتزالهم ، استشرى الأمر ، وتفاقت الفتنة ، وقعدت عن بيعتك كثير ممن تريده على الدخول فيها . . . » . .
وتحاول طائفة هذا أن ينسبوا تنصيب محمد بن أبي بكر خلفا لقيس على مصر ، لمحبة على له إذ هو ربيبه ، ولهووى أخيه لأمه — عبد الله بن جعفر — فيه ، ثم يجعلوا من هذه القرينة وحدها أساس توليته . .

ومع أننا لا ننكر هذه العاطفة ولا نردها ، فإن منطق الواقع يأبى الإبقاء كله أن يراها فيصل الاختيار والأخبار تنبئنا من قبل أن محمدا أو شك أن يصبح عاملا لمصر من قبل عثمان ، لا بهوى على وذويه بطبيعة الحال ، بل برغبة أهل مصر أنفسهم ، الذين أقبلت وفودهم عندئذ إلى المدينة ، تطالب الخليفة الراحل بعزل ابن أبي سرح ، وإقامة وال غيره يرضاه الناس . .

وأبرم العهد في غرة رمضان لمحمد ، فدخل مصر بسياسة تغاير ما اختطه قيس ، وتنبع من دواعي الظروف التي تحيط بالأمة كلها ، وتدعو إلى مخاضة جماعات الانقسام ، حماية لوحدة الشعب ، واستعادة لهيبة الدولة . . .

ولم يكن الفتى بالصلف المستعلى ، فلم يخذش شعور سلفه ، ولا جبهه بما يؤذيه ، وإن كانت الكياسة في مثل هذا المقام تعجز عن تذويب غضاظة الواقع المرير . . لكنه أخذ نفسه بالتلطف مع الرجل ، إكبارا لشأنه ، وتهوينا عليه ، حتى إذا بدا الغضب من قيس ، وصاح بالعامل الجديد :

« ما بال أمير المؤمنين ؟ . . ما غيره ؟ . . أدخل أحد بيني وبينه ؟ . . »

كان الجواب الرقيق :

« لا . . وهذا السلطان سلطانك . . »

ولم يكن أيضا بالذى يزهى بصولة النفوذ ، وأبهة المنصب ، فأعاد ثانية إلى الأذهان تواضع أبى بكر حين تولى إمرة المؤمنين ، وكاد يكرر على منبر مصر ، وهو يتقدم إلى أهلها بخطة عمله ، نفس ما قاله أبوه على منبر الرسول
كان من بين ما خطب به الناس ، بعد أن تلا عليهم كتاب تنصيبه :

« . . . إن أمير المؤمنين ولانى أموركم ، وعهد إلى بما سمعتم . . . ولن آلوكم خيرا ما استطعت . . . فإن يكن ما ترون من آثارى وأعمالى طاعة لله وتقوى ، فاحمدوا الله على ما كان من ذلك ، فإنه هو الهادى إليه . وإن رأيتم منى عملا بغير الحق ، فارفعوه إلى وعائبونى فيه ، فإنى بذلك أسعد ، وأتم به جدبرون . . . وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته . . . »

وما نريد أن نفيض فيما عهد إليه أمير المؤمنين سياسة جديدة يسوس بها أبناء إقليمه ، فذاك يدلنا عليه استعماله خلفاً لسلف ، وبغيتنا فيه هذا التغيير عن أى تغيير ولكننا نجتزئ من عهد على — وما جرى جريه من كتبه — بما يرسم النهج ، ويحدد المعالم ، ثم لا يفتح السبيل للتأويل . . .
أمره :

« . . أن يدعو من قبله إلى الطاعة والجماعة ، فإن لهم فى ذلك من العاقبة وعظم المثوبة ما لا يقدر قدره ، ولا يعرف كنهه »
وقال له :

« . . قد وليتك أعظم أجنادى : أهل مصر ، ووليتك ما وليتك من أمر الناس ، فأنت محقوق أن تخاف فيه على نفسك ، وتحذر فيه على دينك ، ولو كان ساعة من نهار »
وخاطب المصريين :

« . . فإن استطعتم يا أهل مصر أن تصدق أقوالكم أفعالكم ، وأن يتوافق سرهم وعلاانيتكم ، ولا تخالف ألسنتكم قلوبكم ، فافعلوا »
وحذرهم الفرقة ودعائها ، وقرق الحق من الباطل فرقاً لا يفسح لهم فى التردد عن اختيار الطريق القويم :

« . . وإياكم ودعوة الكذاب ابن هند . . . واعلموا أنه لاسوى إمام الهدى

وإمام الردى ، ورضى النبي وعدو النى . . . ولقد سمعت رسول الله يقول : إني لا أخاف على أمتي مؤمنا ولا مشركا . أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه ، وأما المشرك فيخزيه الله بشركه ، ولكنى أخاف عليهم كل منافق اللسان ، يقول ما تعرفون ، ويفعل ما تنكرون »

ولقد كان لهذا التغيير أثره في نفوس معزلة خربت المتشيعين لعثمان ، المتحقين — ولاء وخطة — بآبى سفيان ، فإذا هم عندئذ يدرون أمرهم بينهم خوفا وهيبة من هذا العامل الجديد الذى يوشك أن يخرق عليهم ما كان سلفه قد أفاء من طمأنينة ، وأن يعجلهم عما بيتوا من تربص وتدبر ولما يظاهروهم بعد الزمن والحليف . . . فالأمور الآن تنطلق على غير ما يشتهون ، الزمن يتسرب من بين أصابعهم ليعزز من شأن على والذين معه لأن صاعاته تدعم طاعته ، وتضيف إلى نصره . . . والحليف يضطرب ويكاد ينشغل بنفسه ، وفي قلب أرضه ، عما عداها من رفيق وإقليم . . . ها هي الفورة المائشية همدت ، وذهبت — إلا أسداء — مع الريح . . . ها هو الجمل وحزبه التهمتهم المصارع . . . ها هم أولاء فلوله يؤوبون — كرها أو طوعا — إلى رحاب الولاء . . . ها هي البصرة خرجت من نطاق الارتداد وغدت عوناً على العصاة من بعد عصيان . . . ها هو معاوية وحدة يواجه الطوفان . . .

شهرآ قضوه فى وجل . صحوهم قلق ، ونومهم أرق ، والوساوس والظنون تتبدل عليهم وتتقلب وهى تخايلهم بصور شقى من المصير ليس أشقها على نفوسهم بغتة تصبحهم أو تمسيهم لأن غضاضة الهوان أشد مرارة من مذاق الخوف . . . ولقد لاح لهم ، مع كل صباح ، وهم فى حيرة الترقب ، كأنما العامل الجديد أراد أن يستأخر بمحملته ، يومه ذاك ، إلى غد بعده أفسح للإعداد ، وأنسب للتدمير . . . أو كأنما شاء أن يعلى لقلقههم فى الاستفحال ليحطم العزم ويوهن الروح . . . أو كأنما قد أحب أن يظنوا ركونه لرأى قيس وقد نصحه ، غب مقدمه ، باتباع نفس أسلوبه فى « المكيدة » حتى إذا أمنوا أخذهم على غرة . . .

كيفما كان ما خامر منهم الأخلاق فإن محمدا لم يفاجئهم بما صورته الوسوس ، وشردت إليه الأحداث . إنما أثر الإغذار فكاتب إليهم بخيرهم بين أمرين :

أن يدخلوا في الطاعة ويلتحقوا بجماعة المسلمين ، أو يخرجوا من مصر إلى حينما يبتغون . وفي نطاق هذين المرضين تتحقق لهم السلامة ويتقوى إياهم القتال . ولا حاجة بنا لتحليل فكرة الخروج لأن ارتحالهم عن مصر إلى غيرها من الأقاليم — كبتائهم بها وهم على خلاف — لا يفل من حذمهم ، ولا يمنع خطرهم إن لم يكن سبيلا إلى نشر دعوتهم المناهضة أينما يحلون وإعداد سواهم من المواطنين بمدوى العصيان ... فالفكرة يعوزها التبرير . والحكمة منها خافية ، إلا أن يكون ابن أبي بكر قد أراد بعرضه أن يظهر في عين الرأي العام كمن لا يدخر وسعا في التساهل إلى أبعد الحدود وهو موثق أنه المرض المعصي على القبول لأن الارتحال مستحيل . . .

على أى حال أبت الخارجية أن تستجيب . وكألوف عهدها لم تجاهر برفض سافر ، وإنما تسترت بالمطل ، وكرت مرة أخرى إلى التمعل بنفس عذرها القديم ، الذى قدمته من قبل لسلفه ، فكان ردها عليه :

« دعنا حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس ... » .

وما نظنهم كانوا يجهلون ما باغاه أمر الناس حينذاك . فها هى الدولة كلها — إلا الشام — قد أطاعت الإمام . وها هو الشعب كله — إلا معاوية والذين ظهروه — قد فاء للوحدة ، تقدما لصالح الجماعة الإسلامية على صوالح نفر موغرة صدورهم بالحسد ، مشغوفة نفوسهم بالسلطان . .

لكنها الدريمة الوحيدة التى يرونها قد تكف عنهم نقمة الخصم وتستصفي رضاء الحليف . وهى ترجىء ساعة الفصل ما كانت فرصة لإرجاء . وهى تفسح أمامهم المجال للتدبر ، وربما للإعداد . وهى تداور الظروف ، وتربص بالزمن وتفتح ثغرة للأمل فى جدار المجهول ! .

مخاتلة لم يكن واليهم يتبين أنها لا تقوده إلا لسراب حق كان موكب الحوادث قد حث خطاه — سريعة واسعة — إلى القصد المقدور . . . فشوال تقلصت عن الأرض ظلاله . . . وذو القعدة تسريت أيامه ولياليه ، كقطر الندى فى الرمل الظمآن ، لتغيض فى جوف الذكرى وتؤلف قطعة بالية من الأمس الدابر . . . والعام كله انقض ساعره وإن الأخبار لتتوالى دراكا على مصر ، فى صحبة الزمن

السيار ، من وادى دجله ، وسهل الفرات ، وبادية الجزيرة ، ومشارف الشام كأنها تطير بجناح ! . .

على أديم هذه المناطق انطلقت أقدام الكتائب تخط أسطرا بعد أسطر في كتاب الصراع يوشك أن ينقضى بها أجله ثم يطبق الغلاف ! خلال شهرين أو ثلاثة كان مد ، وكان جزر ، وكان تذاؤب وتراوح بين أقاصى النصر وأقاصى الهزيمة انتقل بكلا فريقى القوى المتصارعة من وهدة القاع إلى ذروة القمة ، ومن ذروة القمة إلى وهدة القاع ! وتواتر المراحل فى حلبة اللقاء الدموى ، وفى ساحة الحرب النفسية والتزاع الفكرى ، غدت وجبهه خارجة خربت — وهم فى وجارهم يلهثون لاستنشاق الأنباء — أشبه بمرايا مصقولة ، يتعاقب على صفحاتها المجلوة سير الأحداث صورا متى من الأحاسيس والمشاعر : هلما وخشية .. قلقا وحيرة .. تطلعا وأمنية .. أمنا وثقة .. زهوا وخيلاء ! . .

ولا عجب ! . . .

قال كتاب قد أطبق غلافه . .

الستار أسدل . .

صفين قد انكشف غطاؤها عن محنة « الحكومة » . . خفت بها صليل السلاح . ذاب وقع الأقدام والحوافر . انطفأت النار ثم تطاير الرماد وتبدد الدخان . . أفما يحق إذن للشعالب المدعورة أن تغادر وحارها مستعزة ، وتبرز الظفر والناب ؟ .

٥

مرة أخرى يثور التساؤل وهذا محمد بن أبى بكر قد سار على خطه سلفه ، ولم يلاق العثمانية بمصر بغير ما لاقاهم به قيس كأعما جاء لإقرار ذلك الوضع القديم لا لتبديله ، ولتأجيل حسم موقفهم المشبوه لا لتعجيله والفراغ منه . .

فما فعل العامل الجديد ؟ . . كيف كان مسلكه إزاءهم طوال تلك الفترة التى قضاه بين ظهرانيهم ، منذ مبعثه إلى تنحرفهم ، وقد استطالت إلى نحو نصف عام ؟ . . الآية غاية عساه وجه حشدها الزمنى وسخر ما احتوى من شهور وشهور ؟ . . ماذا دعاه للتريث ، وما حكمة انتظاره ؟ . .

ويحار المرء وهو يتنقل بين مختلف الاحتمالات . . .
 لكأنما الزمن فر خلسة من وراء ظهر العامل وهو مشغول عنه ، وعن العصبية
 المعادية ، بغير ما كان ينبغي أن يكون هم العاجل ، وشغله الشاغل . . . بانتظار
 سانحة ؟ . . . بالموازنة بين ما هو خطأ وما هو صواب ؟ . . . بعبادة المنحرفين رسولا
 برسول ، ورسالة برسالة ؟ . . . بحس نبضهم ، وسبر غورهم إلى مهوى القاع ؟ . . .
 بالطمع في استفتاءهم إلى الحق بعد باطل ، وإلى الطاعة بعد عصيان ، وإنه لحقيق
 بأن يعلم أنه طامع في محال ؟ . . .

كيفما كانت التعلات والأسباب ، فإنه لم يبادر القوم بما نهض فيه ، واختير له
 خلفاً يقاوم ويقاوم لسلف يداور ويطاول . . . لم يعاجلهم بالخطوة المقررة التي
 حان أن ينفض عنها غبار الانتظار . . . بالضربة الحاسمة القاصمة ، الكفيلة بأن
 تكفيه ، وتسكفي أمير المؤمنين ، والبلاد شر ما يبيتون . . .

إلى صفر ظل يحاول ، فيما يلوح ، معالجة خطر الخارجة بالبعوث والرسد
 لا بالخليل والرجل ، وبالكلام لا بالحسام . . . أملى لنفسه في المحاورة فأملى لهم في
 المداورة والإرجاء . حتى إذا استطاعت خدعة المصاحف أن تهدر نتيجة صفين ،
 وعاد الإمام إلى المراق بحسرة نصر مسلوب في هيئة مغلوب خاسر ، وقفل معاوية
 إلى الشام بفرحة هزيلة متقاة في هيئة منتصر ظافر ، نقضت خربتاً تناومها ،
 وكشفت — مطئنة — عن وجهها القبيح ! . . .

لا شيء الآن يمنع عثمانية مصر عن مجاهرته بالعداء . . . أملها أخيراً أضاء .
 يومها الذي واعدتها به أقدر قد أقبل . خصمها الذي كانت تخشاه وتتق سطواته
 قد تهاوى إلا جمعا هو التجمع العشوائي الأجوف ، وفرقا هي التفرق العلول .
 ورأيا هو الرياء والتنازع . . . ووليها الذي تسانده وتستصفي وده قد أفلح كيده ،
 واشتد أيده ، وثبت أمره ، وعز قدره ، وتهيأت له مقومات الإمرة والسلطان
 إلا لقباً يوشك الزمن أن يحيك طيلساته . . .

حتى هنا ، في مصر ، لا يعدم المرء أن يجد أناسا — خارج وجار خربتاً
 نفسه — قد أثرت فيهم النتيجة المفاجئة ، وعبثت بعيولهم المعروفة . . . بعضهم
 حلكته الحسرة . بعضهم أكلته الحيرة . بعضهم اشتبه عليه الطريق . بعضهم

اهتزت ثقته في قدرة حزبه على توجيه الأمور إلى حيث ينبغي أن تسير . بعضهم
آثر السلامة فنأى عن النزاع . بعضهم وهنت روحه فقال مع الريح . . .

كثيرون لا ريب من أهل الإقليم فتر عزمهم — في تلك الآونة — عن
نصرة وال توحى ظواهر الحلل وبوارد الظروف أنه لا يقف على أرض صلبة .
فنجم معاوية في ارتفاع . عاقبة صفين له . رجاله الآن أقوى روحاً وأصلب
عزيمة . رأيه بينهم هو الرأي وكلته الكلمة . والأحاديث تملأ الأسماع ، في كل
مكان ، بأنهم نصبوه للإمرة العامة ، وراحوا يدعونه بلقب الخلافة . . وضوء على
يخبو . الخلاف المشبوب بين أصحابه ليس بخرافة . تصدع صفوفه يشيع في الهواء .
تفرق جنده عليه يشي بزوال هيئته ، وتهافت كلمته ، إن لم يكن هو النذير بتفكك
سلطانه ، وتصدع دولته ثم انزلاقها في القريب إلى حضيض الانهيار . .

ولا حيلة لابن أبي بكر الآن فيما وقع وكان . . . فقد ترك الفرصة تتسرب
كالماء من بين أصابعه والقوة عندئذ معه ، والدنيا مقبلة عليه . ونهض — كأعما
من غفوة ! — ليرى تلك الفرصة المولية أبعد من متناول بصره ومرمى ظنه
وتفكيره ، والشقة إليها تعي عزمه وتدرته ، وتتقطع عليها أنفاسه . .

أما معاوية فقد سبق الزمن إلى ما أراد ، فأحسن التقدير كما أحسن الإعداد .
ولئن بدا كالمشغول بنفسه وإقليمه إلى تلك اللحظة ، فإن واقع الأمر ينطق بأن
مصر لم تغب قط عن فكره حتى وهو في غمرة محن أو شكت أن عزق أحلامه
وتقضى عليه . . فكم حاول أن يستميل قيساً إلى جانبه ويدخله في حظيرة ولائه .
وكم جهد فـدس — حين تأبى عليه وأعضلت به استمالته — ليمده عن عمله
خلاصاً منه ، وطمعاً في بديل أهون شأنًا عليه إن لم يكن أسلس قياداً له . وكم
تغذت — فيما جرى على لسانه — عناصر الفتنة بخربتا بحد من عنده من العثمانية
يشد أزرها ، ويقوى عزمها ، ويشمرها دائماً — وهي يرباطها البعيد عنه —
أنها محور اهتمامه وليست معزولة عن الخليف والنصير . بل قد بلغ من طول
ذراعه أن تمتد من دمشق إلى مدينة القلزم — باب مصر الشرقي — فتبلغ عامل
خراجها ، وتحتضنه ، وتحمله عميلاً خائناً يغتال الأشر درءاً لحظره ، وهو في
طريقه إلى مصر إذ ذاك ليخلف ابن أبي بكر ، ويصلح ما فسد من أمرها
على الإمام .

ما غفل معاوية ولا تهاون ، وإنما فكر ودبر . عمل وتاخر على العمل حتى أثمر . تأمر واحتمل وكاد . ألقى بثقله في الميزان . سبق الحوادث ولم يترك الأمر في يد الصدف والاحتمالات ... وعندما وسعه أن يقدم ، طفر ووثب بالخطا الواسعة ، وبادر على الفور يستعدى أعوانه الممتنعين في رباطهم من سطوة واليهم الشاب ، ويحركهم لإشغال النار ...

وكتب عندئذ إلى زعيمى الخارجة المصرية : مسلمة بن مخلد الأنصارى ومعاوية بن حديج الكندى ، يقول :

« .. طلبتما بدم الخليفة المظلوم ، وغضبتم الله فأبشروا برضوان الله ، وعاجل نصره أولياء الله ، والمواساة لـكما في دار الدنيا وسلطاننا حتى ينتهى ذلك إلى ما يرضيكم ، ويؤدى به حقا . . . غايزما أمركما ، وجاهدا عدوكما ، وادعوا المدبرين منكم إلى هداكم ، فكأن الجيش قد أظلم عليكم ، فاندفع كل ما تكرهان ، ودام كل ما تهويان ... »

للنهي لا لدنياء ولا ماله نهضا في الأمر ، بل ابتغاء ثواب الآخرة ومرضاة الله ، فيما يقولان : ...
رداً عليه :

« ... نحن بهذه الأرض قد تفينا من كان بها من أهل البغي ، وأنهضنا من كان بها من أهل القسط والعدل . وقد ذكرت مؤازرتك في سلطانك وذات يدك ، وبالله إنه لا من أجل مال نهضنا ، ولا إياه أردنا . . . فإن الدنيا والآخرة لله ... عجل لنا بخيلك ورجلك ، فإن عدونا قد كان علينا جريثا وكنا فيهم قليلا ، وقد أصبحوا لنا هائبين ، وأصبحنا لهم منابذين ... » .

ولقد لُحِث محمد وانهر نفسه وهو يحاول أن يستعيد من الزمن ماولى منه ، ويفرض على المعتزلة هبة قد ظنوها بدء الأمر بمض قدرته ، ثم أيقنوا الآن أنها مجرد طلاء . . فقد أبوا أن يصغوا له . لا حاجة بهم إلى مهادنته . أولى بهم منابذته ، وأجدى عليهم مجاهرته بالعداء . فالقوة لهم . والزمن معهم . والمبادرة في أيديهم ، وليس حائل يحول بينهم وبين اختيار المسكن والزمان : أرض الواقعة وساعة اللقاء . . .

وكانوا من وضعهم على ثقة ، ومن تقديرهم على صواب . فسرعان ما طحنوا بقواتهم بعوثة التي أوفدها لتحملهم — طوعا أو كرها — على الخضوع . . . بعثة بعد بعثة مزقوا ، وفرقة بعد فرقة ألحقوا بها البوار . قضوا على ابن جهمان البلدي ، وعلى يزيد بن الحارث الكندي ، وعلى ابن مضاهم السكابي ومن صار معهم في بعثات الدعوة أو حملات التأديب التي أريد بها تسكين الفتنة أو ردع العصيان . . . وعندما نشر هذا الاحتكاك عن العامل طلاءه ، واستيقنوا منه غير ظنهم به ، خرج معاوية بن حديج يطلب بدم عثمان ، ويدعو أهل مصر جهرة إلى مناصرته والالتفاف حوله انتقاما للخليفة القليل . . .

ولم يكن محمد كما حب أصحابه . ولا كان أيضا كما حسب هو نفسه يوم انطلق إلى مصر ، وصدره تملؤه الثقة في غد مظفر . فالأيام تخلف ظنه والأمور تجري على غير تقديره ، إذ هو الذي شاء أن يتركها بغير عنان فراحت تضرب كالعشواء إلى حيث تشاء . . . لا إلى حيث يشاء . . . ونيتة تفوق همته . . . ومن يستشرف اليوم قدرة الشاب يكاد يحده أو هن قدما أن يسير على شوك ، وأقصر قامة أن ترتفع هامته فلا يغمرها موج الأحداث . . .

وكذلك اجتربات عليه الخارجية . فهان أمره . واختل الأمن . واضطرب الناس . وفسد الإقليم . . . وعندما علم على أن باع الفقى يقصر عن معالجة الداء ، لم يعد له معدى عن التغيير . فآخر الدواء السكى . وآخر العلاج البتر ، كما تقول الأمثال ! . . .

وعلى الأثر كتب إلى الأشتر :

« . . . إنك بمن استظهر به على إقامة الدين ، وأقمع به نخوة الأئمة ، وأسد الثغر المخوف . وقد كنت وليت محمد بن أبي بكر مصر ، فخرجت عليه خوارج ، وهو غلام حدث السن ، ليس بذى تجربة للحروب . . . فأقدم على . . . »
واستخافه على مصر :

« . . . ليس لها غيرك ، فأخرج إليها رحمك الله . . . ولا أوصيك ، اكتفاء برأيك . . . »

وكتب معه إلى الناس :

« من عبد الله على أمير المؤمنين إلى من بعصر من المسلمين الذين غضبوا الله
إذ عصى في الأرض
أما بعد :

فإني قد بعثت إليكم عبدا من عباد الله ، لا ينام أيام الخوف ، ولا ينكل من
الأعداء حذار الدوائر أضر على الفجار من حريق النار . . . فاسمعوا
له وأطيعوا أمره ، فإنه سيف من سيوف الله ، لا نابي الضريبة ، ولا كليل
الحد فإن أمركم أن تنفروا فانفروا . وإن أمركم أن تحجموا فأحجموا ،
فإنه لا يقدم ولا يحجم إلا بأمرى . وقد آثرتكم به على نفسي ، نصيحة لكم ،
وشدة شكيمة على عدوكم ..
والسلام . »

وانطلق الأشتر من الكوفة ، بعد مقدمه عليها من نصيبين ، يطبع معالم
قدميه على أديم الصحراء ، في طريقه إلى مصر ، ليلتحق فيها بعمله الجديد . لكن
الرمل لم يحفظ سره ، ولا امتص من وقع خطاه . . . بل كان يسرى ولسراه
دوى مجلجل في الآفاق كأنما الأرض تحت ضربات نعلية تنتفض بزلزله عنيفة اتبعث
عنها انفجار بركان . . .

بعصر اضطراب تحت ابن أبي بكر مقعده ، ورج ذلك الاضطراب نفسه فإذا
هى تشرق بغصة ألم كاللقم وهى تستشعر هوانا مدمرا من خلال التغيير . . .
وبدمشق ترنحت أريكة أهل الشام ، وكاد يعيد معها أمله المتوئب إلى سلطان
شامل ، ومملك مؤئل عريض . .

وبخربتنا زاغت الأعين ، وجفت الحلو ، ووجفت القلوب بين علو وهبوط ،
تارة تضرب إلى الحناجر ، وتارة تغوص في الأقدام . . .

فأما محمد فقد ركن في هذا الجزاء الذى أصابه إلى ما يركن إليه أى امرئ
على مثاله يحس أن طالعه تعثر بخاصمه زمنه ، وتنكرت له الأيام ثم لا يستطيع أن
يدافع عن نفسه بما قد يعطف الناس عليه ما دامت عواقب الأمور قد خاتته ،
وجرت ريحها على خلاف مشتهاه . . فإذا هو لا يملك إلا أن يحرك قلمه بكتاب
يخطه إلى الإمام ، ويبيته فيه ما يعانى من ألم ذلك الجرح الذى شقه في فؤاده قرار
عزله عن الإقليم . . .

وأما معاوية فقد اكتسب ثوب المستيثس ، الذى تقطعت به الحيل وسدت
السيول فى وجهه ، فلا محيص له عن التزام أسلوب العاجز الذى لا يذكر ربه
إلا إبان الملمات . . فإذا هو يقول لأهل الشام :

« إن علينا قد وجه الأشر إلى مصر ، فادعوا الله أن يكفيكموه . . »

فكان يدعو ، ويدعون معه ، على الأشر ، بعد كل صلاة . .

وأما خربتا فخبيسة هم لا تبارحه . لكأنه سيابج من حديد أصم قد أطبق
عليها من كل ناحية . وكأنما تدور فيه حيرى ، تذرع فراغه بغير قدم ، وتتمسك
جدرانها بغير أصبع ، بحثا فيه عن ثغرة إلى الطمانينة . . لكنها لا تنف وتدور
حتى تدوخ ولا خمر ، وتلهث ولا جهد ، وهى تحاول أن تفر — بالحدس والتصور
— من ذلك القلق الذى يطاردها شبحه ولا يهدأ عنها لحظة من نهار أو ليل ،
فى يقظة الحواس والجوارح كما فى خدر الأحلام . .

غير أن المكتسب ثياب المستيثس لم يكن ممن يلزمون أسلوب العاجز فى ركن
إلى الاستسلام . . معاوية لم يدع مكره . لم يذر حيله وأخاذه . لم يضع سلاح
كيد . . ولئن تظاهر أمام أبناء إقليمه بأنه لا يلوذ من المحنة النازلة إلا بالله ،
ورفع كفيه ضراعة إليه سبحانه أن يكفيه خطر الأشر ، فلقد تضرع ودعا مخاتلة
وتوحيها ، وهو موقن اليقين كله — قبل الضراعة ودونها — أنه سيكفاه . .
وما يضيره أن يغوى ، سرا صاحب الخراج فى القلزم ليقتال الأشر ، فيباغ هو
أربه ، ثم يبدو فى أعين أهل الشام صاحب الدعوة الملباة ، الأثير على الله ؟ . .
وكذلك مضى وفعلته . .

بعث إلى صاحب الخراج :

« . . إن الأشر قد ولي مصر . . فإن كفتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت ،

وما بقيت . . »

وترك — كدأبه — الذهب يتولى عنه تسيير الأحداث . .

٦

هزت الفرحة قلب معاوية وجوارحه ، وشاع لونها المشرق في عجياه ، حين
بلغ ذلك الرسول الوافد عليه من حدود مصر خاتمة المطاف في حديثه . . . والتفت
دونه إلى من حوله من بطانته وصحبه يزف النبأ السار :
« إن لله جنوداً من العسل . . . »

وبدا كأنما قسوة الشماتة تراحم في عبارته سكينه الارتياح ، وهو يتنفس الزهر
والخيلاء . . .

ولم لا ، وقد ذهب الأشر ولن يعود ؟ . . . أفل من أفق حياته . رقد بمضجع
تحت أطباق الرمل ، على باب مصر ، لا يقظة منه حتى النشور . . .
إن للذهب لفتنة . وإن للجشع لسطوة . وإن للسكيد لبطشا يهون أمامه
بطش السلاح . . .

ما كاد الأشر يبلغ القلزم ، ويحط فيها رحاله استرواحا من وعشاء سفره
الشاق من العراق ، وتهيئوا لمرحلته المقبلة إلى الفسطاط ، حتى أسرع إليه عامل
الحراج يستقبله كأحسن ما يكون الاستقبال . . .

وسخا بقراه :

« أيها الأمير . . . هذا منزل فيه طعام وعلف ، وأنا رجل من أهل الحراج .
فأقم واسترح . . . »

ولم تراود الأشر في الرجل شبهة . . . وأنى له ، وحديثه ولاء ، وسماه صفاء ،
وكل حركة بدرت منه تضيف إلى الثقة فيه . إنه ليفنى لضيفه . يتبعه كظله .
يسير بين يديه ككلاب القطيع . يتمسح به كهرة . يلبي ولا نداء ، ويعمل ولا
مطلب . يطيعه كبنانه ، وينطق كلسانه . . .

وكان حديثه كله حمداً لعلي ، وثناء على بني هاشم ، وذكر الأجداد أنصارهم
وشيعتهم الذين أخذوا أنفسهم بإقامة الدين صرحا شامخا بعد أن كاد أعداؤهم
يقوضون بنيانه . . .

ثم أفرخت خيائه شربة عسل مزجها بسم زعاف . . .

هنا تنفس معاوية زهوه . . .

وعلى منبر دمشق ، وقف يعلن النبأ للناس ، مدلا بكيده ، مبطنا جديته
بما يوحى إليهم أنه صاحب الدعوة الملباة ، الأثير على الله :

« ... ألا ترون كيف استجيب لكم ؟ ... لقد كان لعلي بن أبي طالب يدان
يمينان : عمار بن ياسر ومالك الأشتر ، فقطعت إحداها يوم صفين ، وقد قطعت
الأخرى اليوم ... » .

وفي الجانب الآخر ، بالكوفة ، عصف الأسى بعلي ، فسال قلبه في
عبارته وعبراته :

« ... اللهم إني أحسبه عندك ، فإن موته من مصائب الدهر ... ومع أنا
قد وطنا أنفسنا على أن نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله ، فإنها من
أعظم المصيبات ... » .

وظل طويلا يتلهف ويتأسف حتى ظن أصحابه أنه المصاب به دونهم . فراجعوه
وقد هدهم الحزن :

« بعض هذا يا أمير المؤمنين ! .. »

فقال :

« وهل موجود كمالك ؟ .. أما والله ليهدن موته عالما ، وليفرحن عالما .
على مثل مالك فلتبك البواكي ! .. » .

لسكن الحياة لا تتوقف فالزمن يسير . والليالي تلدن الأحداث . والكفاح
المر من أجل تسويد المبادئ — كريمة أو خسيسة — يحرف الناس في
تياره . .

وكان للظروف عندئذ ضغطا شديدا على الامام لامعدى له حياله من الإفادة
— وسعه — من الموقف الراهن حتي يتيسر له تناوله بتغيير أمثل أسلوبا ،
وأسلم نتيجة . فعزم أصحابه خور . وحشه إياهم على المبادرة لا يصادف أذنا مميعة .
وبجده ، بعد النهر ، ركنوا للدعة . وإذا كان القدر قد شاء لمصر أن تدفع بنفسها
عن نفسها أي عدوان أموى ، من الداخل أو الخارج ، فإن كبرياء عاملها
الجريحة لا بد أن تراء من جرحها الغائر ، فيستطيع ابن أبي بكر لقاء أعدائه وهو

أوثق ثقة في نفسه ، وأقوى إحساسا بقدرته على الاضطلاع بما أوشك أن ينزع منه . .

لذلك كتب أمير المؤمنين إليه :

« .. بلغني موجدتك من تسريح الأشر إلى عملك ، ولم أفل ذلك استبطاء لك عن الجهاد .. ولو نزع ما حوت يداك من سلطانك ، لوليتك ما هو أيسر مؤنة عليك ، وأعجب ولاية لك فاصمد لعدوك ، وشمر للحرب . وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر من ذكر الله والاستعانة به يكفيك ما همك ، ويعينك على ما ولأك » .

وكأنما أفاء الكتاب على الفقى طمأنينة ردت عليه بعض ثقته في اقتداره على مواجهة الأزمة التي نصبها له الخارجون ، فبعث إلى الإمام ردا يقول فيه :

« وليس أحد من الناس أشد على عدو أمير المؤمنين ، ولا أراف وأرق لوليه مني .. وقد خرجت فم كرت ، وأمنت الناس إلا من نصب لنا حربا ، وأظهر خلافا »

لكن هذه الثقة التي تجددت في قلب الشاب ، وهم عودها الطرى أن يفرغ ، ما لبثت الحوادث — في حلفها الدنس مع الترهيب — أن راحت تعصف بها ، لتقصفها ، ثم تدفنها بعنبتها الندى وهي بعد خضراء . . .

ما بلغ محمد هذا المبلغ من الاعتداد الذي استشعره ، ومن الإعداد الذي كتب عنه ، وما وصل جوابه مقصده ، حتى كان معاوية قد أبرم رأيه ، فلي مطلب زعيمى الخارجية المصرية : مسلمة بن مخلد ، ومعاوية بن حديج ، وأمر عمرو بن العاص بتجهيز جيش لغزو مصر ، وسلخها من إمرة الإمام . . .

حسم ليس يفسده تردد ، ومعالجة لا تبارى فحسب انطلاق الحوادث بل برق الظنون في الأخلاذ . .

ومن مشارف تلال فلسطين ، وربما الصحراء الشرقية ، يوشك المرء أن يطل على القوة المغيرة ، المقبلة عبر تيه الرمال ، فلا يراها تسكاد تغنى عن نفسها شيئا ، في حساب الفتوح والغزوات ، أمام شعب ثرى بأهله ، قوى بعاله ، قد عرف له ولاؤه الخالص إلى ، وسخطه مناوئيه وشدته عليهم من بضعة شهور . فما كان

جيش ابن العاص غير آلاف قليلة قد تصلح طليعة ثم تقصر عن التوغل والانتشار . وما كان يسعه ، بالمقياس العددي ، إلا أن يشن غرة على الأطراف يركن بعدها إلى الارتداد . وما كان مزودا من العتاد بما هو أقطع حدا أو أوفر عددا من عتاد المدافعين . . .

غير أن الجيوش — فيما سممنا على لسان الحروب — لا تنفاس عادة بكثرة الأفراد أو بوفرة العتاد ، وإنما بالحطة المحسكة ، وحسكة القيادة ، وحسن التنظيم والنصر دائماً ، بعد هذا ، رهن العزم والثبات والإصرار
وندع الحطة والحسكة والتنظيم إلى ساعة اللقاء ، ثم نستقصى عوامل النصر فإذا مصر منها خواء . . . بها وهي العزم أنذاك ، وتهاوى الثبات ، وذاب الإصرار . . . قبل أن يطأ عمرو منها موضعاً على أديمها الأصفر أو رقعتها الخضراء كانت رحي الزمن قد طعنتها ، في مدى قصير ، وذرتها مع الريح . . .
النكسات التي توالى على دولة على ، حطمتها روحاً ومادة ، شعباً وحكومة ، فكرة تجمع عزائم المواطنين وغاية تشمل حماسة الحرد . . .

ولا جدال .

فصدمة الخديعة في صفين أعقبت الحسرة . ونتيجة التحكيم الضال أثارت التنازع . و « خلافة » معاوية المدعاة غرست في النفوس بذور الاستسلام . وثورة خارجة النهر على الإمام شجت وحدة صفوفه ، وأغرقت به صنائع التمرد والعصيان . وتخاذل المراق عن العودة إلى غزو الشام أخلى لماهلها الميدان . . . وعرف معاوية طريقه . .

حرك بمصر أعوانه ، ومنى مخالفه ما في يديه من عروض وسلطان . ألهب بها دعوة الثأر للخليفة القليل . حالف تنمر خربتنا وخور أهل الإقليم . أدار ظهره ، وهو آمن ، للمراق الومسان ، ثم سير ابن العاص . .

وكما أحكم الرجل التدبير أحكم التوقيت للغزوة المنتظرة . ثم انثنى يبعث الترهيب طليعة لجنوده المغيرة يخایل الوالى الشاب بعصير قاتم ، ليهدم ما أبقت الحن له من خرائب اعتداده . . .

من الشام أرسل يذكره عدوته ، قبل نحو عامين ، على عثمان يوم الدار ،

ويحملة دمه ، وينذره نعمة عاجلة تنزل به وقد انقض عنه أهل إقليمه ، ثم لا يبخل عليه ، مع هذا كله — تفضلا وأريحية — بفرصة للنجاة ! . . .
كتب إليه :

« . . . ان سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النعمة في الدنيا ، والنبعة الموبقة في الآخرة . وما نعلم أحدا كان أعظم على عثمان بغيا منك . . . ثم تظن أني نائم عنك ؟ . . . فتأمر على بلاد أنت فيها جارى ، وجل أهلها أنصارى ، يرون رأيي ويستصرخونى عليك ؟ . . . قد بعثت إليك قوما حناقا عليك ، يستسقون دمك ! . . . ويتقربون إلى الله بجهادك ، وقد أعطوا الله عهدا ليثخن بك ! . . . فلو لم يكن منهم إليك ما عدا قتلك ما حذرتك ولا أنذرتك . . . ولكنى أكره أن أمثل بقرشى . . . فتنج وأنج بنفسك . . . »
ومن مشارف مصر ، أرسل إليه عمرو :

« . . . تنح عني بدمك يا ابن أبى بكر ، فأنى أكبره أن يصيبك منى ظفر ! . . . إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ، ورفض أمرك ، وندموا على اتباعك ، فهم مسلموك إذا التقت حلقتا البطان . . . فاخرج منها ، فأنى لك من الناصحين . . . »

فلو تأثر محمد — وهو يعيش محنته ومحنة أميره تلك — بهذا التهويل ، لقل أن يجد من يلومه . . . فالجو حوله خائق عبوس . وشعاع الرجاء ابتاعته الظلمة ، والعبارات في كتابها غريمه قاطعة حادة كأنها الحراب ، والمصير الذى يطل عليه من سطورها ، ومن ثنايا الظروف المحيطة . مثلة أو فرار . . . ولم لا يتأثر ونعمة عثمان تطارده فوق صهوة جواد ، وعلى شفرة سيف ، وبكمين مجهول ؟ . . . والجنود المغيرة الظمآن ، تسم ريحه ، وتتعبه ، لتروى عطشها من دمائه ؟ . . . وثمانب خربت تخطاته لتنقض عليه في لحظة غفلة ؟ . . . وأهل مصر — إلا قلة — إذا ما خاصموه قتلوه ، وإذا ما ساءموه أسلموه ؟ . . .

قل من عسى قد يلوم الفقى لو تأثر والبلاد حوله غدت مثل غاب تعيث فيه الذئاب ! . . . فلا مثابة لأمن . ولا رجاء فى أمل . ولكنه ، على ما يعانى ، يستنهض جأشه ليثبت معه فى وجه الإعصار الأهوج لعله يهدأ ، أو يعبل عنه ، ثم يكتب إلى أمير المؤمنين :

« ... إن العاصي ابن العاص قد نزل أواني مصر ، واجتمع إليه أهل البلد جلهم ممن كان يرى رأيهم . . . وقد جاء في جيش لجب جرار . . . وقد رأيت ممن قبلي بعض الفشل . . . فإن كان لك في أرض مصر حاجة ، فأمدني بالرجال والأموال . . . »

وكانت للإمام في مصر حاجة ، أي حاجة ، بلا مرء . . . فما أن وصله كتاب محمد حتى يدعو الناس للتجهز ، والسير لمصر مددا ونجدة ، ثم يبادر فيثبت الفتى ويهون عليه حتى يفي له بما يريد . . .
يبحث إليه :

« ... لا تفشل وإن فشلوا . . . حصن قريتك ، واضم إليك شيعتك ، وأذك الحرس في عسكريك . واندب إلى القدم كنانة بن بشر ، المعروف بالنصيحة والتجربة والبأس . . . وأنا نادب إليك الناس على الصعب والذلول . . . »
وتفعل الرسالة فعلها في محمد فيستشعر شيئا من ثقة يدفعه إلى الرد على غريعه بما يبعد عنه مظنة الخضوع للتهديد . . .

يكتب لأحدهما :

« ... تأمرني بالتنحي سنك كأنك لي ناصح ، وتخوفني بالحرب كأنك على شفيق ؟ . . . أنا أرجو أن تكون الدائرة عليكم . . . وأن تولوا الدبر . . . »
ويكتب للآخر :

« ... زعمت أنك ناصح لي ، وأقسم أنك عندى ظنين . . . وزعمت أن أهل البلد رفضوني ، وندموا على اتباعي . . . فأولئك حزبك وحزب الشيطان . . . »
ويقوم في الناس :

« ... يا معاشر المؤمنين . . . إن القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمه ، ويفشون الضلالة قد نصبوا إليكم العداوة ، وساروا إليكم بالجنود . . . فمن أراد الجنة والمغفرة فيلخرج إلى هؤلاء القوم فليجاهدكم في الله . . . انتدبوا ، رحمكم الله ، مع كنانة بن بشر . . . »

أما دعوة الإمام فقد حصدت الهشيم . . . قبضت الريح . . : تبددت في فراغ . . .

يوما بعد يوم ، ليلة بعد ليلة ، كان يستحث المسلمين عنده أن يخفوا لنصرة أخيه بمصر ، وينهضوا لمجده ، فيسخون عليه بالوعد كل السخاء ، ثم ييخلون بالوفاء . . . مرارا دعا ، ومرارا أمر ، فما أيقظهم دعوة ، ولا حركهم أمر . كانوا عيوننا تشخيص ولا ترى . وآذاننا تسمع ولا تسمع . وعقولنا قدت من صخر . . . حالهم الآن كحالهم عند رفع المصاحف ، وغب خدعة التحكيم ، ويوم التنادي للزحف الأكبر لغزو الشام لم يعودوا أوامك الفئة الصافية الأنفس ، المجلوة الأرواح ، التي يشوقها خوض الغمرات جهادا في الله : نشر الحق ، ودفع الباطل ، وسحقا لأهل الضلال والطغيان ...

بل قد غدوا أشد جحودا وعصيانا له ، وغدا أشد بعدا عن مشاعرهم كأنه وإياهم على طرفي نقيض . فلم يغن عنه منطقهم . ولا غيرتهم الكارثة التي أقبلت من عالم خطرهما ونذرهما تترى عليهم من ساحة الواقعة المنتظرة . فعمرو يتقدم . وقواته المغيرة تعز نفرا وعتادا بمن على رأيها من أهل الإقليم . وأنصار محمد بمصر ينتقص منهم التخاذل ، ويوهنهم — عددا وعزيمة — توالي الأيام وجبهة الدفاع تמיד تحت أقدامهم وتشقى على الانهيار . . .

ثم جاءت الفارعة ! . . .

إنه ليجتزأ له ، ذات يوم ، في صحبة يأسه ، فإذا رسولان بفدان عليه ، يسبقهما إليه نفس مبهور ! . . من حدود مصر ، عبر انصحاء ، قطعاً مراحل برت الأقدام . بالعين لحفة ، في الحلق غصة ، على اللامح وجوم . . .

وانتفض ووقدة الحر عندئذ لا تبعث رعدة ، بل تعين على هدوء الاسترخاء . ولكن البغلة وخزته . والنسكة التي أقبلت بنبيها كانت كلسع النار . .

وخرج فنأدى في الناس :

« الصلاة جامعة ! . . الصلاة جامعة ! . »

ثم ارتقى المنبر عندما احتشدت الجموع ، تندفق المرارة من فيه :

« ... هذا صريح محمد بن أبي بكر ، وإخوانكم من أهل مصر ، قد سار

إليهم ابن النابغة عدو الله »

ولقف نفسه هنيهة ، انبرى بعدها يقول :

« ... لا يكونن أهل الضلال . . أشد اجتماعا على باطلهم . . منكم على حقكم ... » قد بدأوكم وإخوانكم بالغزو ، فاعجلوا إليهم بالمواساة والنصر ، عباد الله . . إن مصر أعظم من الشام ، وخير أهلا ، فلا تغلبوا على مصر إن بقاء مصر في أيديكم عز لكم ، وكبت لعدوكم «

وتفرس فيهم مليا ، حتى إذا وجد منهم الإقبال بالسمع ، دعاهم إلى الإقبال على التجهيز ، وهو يرجو هذه المرة منهم أن يلبوا النداء :

« ... اخرجوا إلى الجرعة . . لتوافي هناك كلنا غدا ، إن شاء الله ... »

V

هبط « الجرعة » على أول شعاع ! . . .
بين قطر الندى العالق بجو الصباح بلغ وجهته . . مكنون الوجود حوله يبيت
السكينة . خفة النسمة تطب التوتر . نضرة الشروق تبعث التفاؤل . ومن خلال
هذا الصفاء الوديع سرى إليه أثر من أمل ، بهس في روعه ، أو عسح على قلقه
بيده الرحيمة . . .

* * *

عندما بدأ رحلته ، لس السواد في الكون والخابر . . .
في الكوفة ، حين مخرجه ، كان الظلام يطبق على الأرض بقتامه . على
الطريق ، خارجها ، رافق الظل والوجوم والتوجس . في منطلقه الطويل منها ،
كان يعيش على شوك ذكرياته الحزينة . . .

كالضباب بدا الفضاء المفسح على مدى رؤيته . الأرض والأفق كتلة من
الفراغ . الدنيا محيطة من التيه ماله ساحل . . لا معالم ولا حدود ، أينما سبغت
عينه ، بل شبيهة عميقة تذوب فيها المسافة . .
كالمسحود الصمت الخيم على الوجود . . لا نأفة . لا همسة ولا حفيف .

لا رجع صدى من قريب ولا من بعيد . حق خطاه الحثيثة بدت بلا وقع ، وكأنما
يعتصمها الرمل الصديان . . .

الغموض يغلف الخلق والأمر ، كما غلف أمسه ويومه ، والجمود يحكم الصوت
والحركة ، كما حكم فكره وقدرته .

فلعلها صورة شعوره ، بريشة الطبيعة ، هذه اللوحة التي يرسمها الضياع
والإيهام . . بكل يأسه ، بكل ضيقه ، بكل حيرته التي يبيتها أمامه تردد صحابه . . .
ولعلها حياته ، في مختتم عمره ، مثلت له وقد تقسمها في الشهور الأخيرة
المريرة ذلك التوجس في نفسه ، والنهاون في قلوب رجاله ، والحدق الأسود
في صدور شائتيه . . .

* * *

لكن الرقة الوديعة لونت الصورة . .

من جانب الأفق ، شق السواد المحيط ، سيف النهار . . في الثرى المعتم ،
راحت خطاء ، مع الفجر المسفر ، تغرس النور . . على ابن النسمة ، ونضرة
الشروق ، ورفق السكينة ، تفتح الأمل . . .

وبدت له الجرعة ، من بعيد ، كواحة . بعد طوال السرى ، في وادى الظلمة
لمعت كشعاع . ومن مشارفها أخذت ترحب به البكرة الوليدة . .

هو الآن ينساب كطيف . يترحل في الزمن بأسرع من ترحله على المسافة .
كل خطوة يخطوها ، كانت صفحة يطويها من سجل الغابر . كل نظرة يلقيها ،
كانت تكشف بسمة على ثغره . فالأمل معه الظلمة خلفه ومن أمامه بدأت تقبل
طلائع الضياء . .

وهان عندئذ أمسه . .

الهدوء في صدره ، والرضا على جبينه . .

ولم يعد يحس ثقلا في قلبه ، ولا تفترا في أوصاله . لا عبسة فكر ولا تجهم
خاطر . لا فتور ولا رهق من سرى أو سير . لا ضيق بوحشة لغياب رفيق . .
والوقت أيضاً يمر به في هواة يخالسه ، فلا يستشعر بقربه وهو مشغول عنه
برجائه . . .

ثم أقبل الدفء يتهادى على ضوء النهار الجديد . . .

رويداً رويداً راحت الشمس تنسج خيوطها لتكسو الأرجاء الأفق الباهت
طلته الأشعة بلاء براق . الفراغ الممدود كالتيه ، في غبش الليل ، انقشع غموضه
وتخلقت له خطوط وحدود تحت أفياض النور . . هنا ظهرت وهدة ، وهناك
بدا كثيب . هنا بان قاع ، وهناك يفاع . هنا وعى الرمل بعض الأثر ، وهناك
محته يد الريح . . البصر الآن يستطيع أن يحيط بالعالم ، ويدركها ، ويترحل معها
عبر الأبعاد . . .

لكن السمع ظل محصوراً في سياج محكم من السكون السكثيف . . المكان
يبدو كلوحة مرسومة ، لها قسبات وملامح ، بها أشكال وألوان ، فيها ظلال
وأضواء . المنظر ينطق ، أما الحركة فخرساء . . .

حقى الهواء لم يعد له حسيس فالهدوء الذي غمر الوجود أعداء . وحر
الصحراء خدره ولفه بالوسن . ورشاش الضباب ، السابح في الجو ساعة البكرة ،
هدم سبعا وفي في أشمة الضحوة . والظلال أيضاً هواجس ، لا تتقلص ولا تطول ،
لأنها تنعكس عن جمود . . .

غير أن الرمال ما لبثت أن وشت بوقع خافت كأنه الحمس في أدن صماء . . .
على مدى البصر اقتحم اللوحة ، عند حد الفضاء الفسيح ، هيكل قادم من صوب
الكوفة ، لاح في وهج الضوء المتألق ، نكيال وقيد خطوة منه ، أو خطوات
إلى الوراء ، ظهر آخر يسمى في أثره كأنه ظله . ومن خلف هذا وذاك بدا ثالث
ينساب كفورة غبار . . .

ثم تتابعت ، مع الزمن الوانى ، ومن خلال غلالة الريح الشفاف ، عدة
أشباح ...

بضعة خيالات . . .

حفنة من رجال ...

نقر تناثروا هنا وهناك ، على منبسط الرمل ، وفي سطعة الضمى ، كنقشات
دخان . . كنقط شهباء . . تكروك في ثوب الصحراء الأصفر . . .

ولم يغيروا شيئاً من رتبة الهدوء . ولا من سطوة الجمود المهيمن على

المكان . . كادوا — من قلة — لا يضيفون إلا فراغا إلى الفراغ ، وإلا عدما إلى همود الأرض الجرداء . .

وطاف بخلداهم ، وجمعهم يلتئم بجانب من المكان ، أنهم أعصى على التعيز وشغل المعسكر الشاغر ، وأهرون من أن يحسبوا بالأرقام . . . وبدوا في عيون أنفسهم خطوطا من الظلال لاصفوف مقاتلة ولاشخاص رجال . . ثم خالوا — من هوائهم — ذلك القادم قباهم على أول شعاع ، قد ملأ بسحته الفضاء الرحب ، وأوصد دونهم منافذ الحركة والتفكير . . فنظرته لوم . وإعناؤه استهانة وازدراء . وهيئته ، التي أحاطت بها هالة من ضوء الشمس ، ألقت بينه وبينهم برزخا من الهيبة ، يمنعهم الإقدام أو الاعتذار . .

غير أنهم ، حين حاولوا الدنو منه ، ساروا إليه كالسحورين . . خطاهم واهنة لا توقظ ضوضاء . أقدامهم ثقيلة كأنها تتحرك ولا انتقال . جسومهم خدرة كسائرة في نوم . وعلى وجوههم الغيرة وجوم عما معالم الملامح فستر التعبير ، وجد الأنفاس . . .

وأخذتهم غشية من الشعور بالإثم وعيونهم تدور قلقة بين نفرهم الممدود ، ثم تتطلع نهمة إلى حدود الفضاء . لكن الفضاء زم شفتيه ، ولم يسمعهم بجواب . فما أسفر عن حركة ، ولا أطلع هيكل إنسان . .

وتصارع ، على ملامحهم الباهتة ، الهوان والندم . وتبلور فوق جباههم الحشنة عرق كالندى ، مادرُوا أقطرته الأشعة القائظة ، أم أفرزه الخزي المكنون . وآدم من ذلك الركود الرتيب المريب أنهم لا يحسونه وإعنا يتنفسونه ملء الرئات حتى لتشرق به الخلق ويضغط على الصدور ويكنم الأنفاس ! . فلو خف عنهم ضغطه ؟ لو انجذب بعض ثقله ؟ لو قطع صاحبهم رتابته البغيضة ولو بغضبة جارحة ولوم مهين . . .

لكن الإمام لم ينبس . وهل الوقف يدعو للحديث ؟ . إنما الصمت أجدى عليه ، وأقسى عليهم . حسب ما يرى . وحسبهم ما يحسون . فغزيرهم عذاب ، ومشهدهم يغنى عن العتاب . . .

وعندما انتصف النهار ، وارتفعت الظهيرة ، وأخذت الشمس تلسع الوجود

بسياط من نار ، مد إلى طرف الأفق سمعه وناظره كأنما يحاول أن يستشفه سره . . . ملياً أرهف السمع . وملياً سدّد النظر ، ولكنه لم يعد من رحلة الرؤية والإصغاء بجديد . لم يفز بغير العموض . ولم يحظ بالرجاء الأخير . . . لكأنما الأفق قد أغلق بباب ورتاج ، فلا وقع قدم ، ولا هيئة قادم . ولا ضبابه غبار . . .

وارتسمت على فمه بسمه ، وهو يسترد من الأفق بصره ويحول إليهم نظرة نافذة تخرق منهم الجلود والأخلاق . . من حرارة كانت البسمه . ومن كآبة كان الشماع الذي أرسلته عيناه . فالأمل الذي أحياء في قلبه صفاء الطبيعة ، ساعة البكرة ، قد محاه مشهدهم الآن كما يحو الليل الأسحم آية النهار . والماضى المرير الذي ظن عند إشراقه الصبح النضرة ، أنه انطوى إلى غير رجوع ، قد ارتد أعنى وأعنى . والغد المأمول الظافر ، الذي خابله به لحظة رجاء ، لم يكن سوى سراب . . .

وعاد مقهوراً لألمه البغيض : لليأس والأسى والسأم . . وما قصاره وهام أولاء ما زالوا على تراخيمهم ، لا تنهضهم محنة ، ولا تهزمهم جلجلة الأحداث ؟ . . . لكأنما آثروا الغفلة البليدة ! . . . لكأنما أنسوا للضم ! . . . لكأنما استمروا العدم فعاشوه في الجحود لأنه راحة ودعة ، ونبوا بالحياة لأنها حركة وجهد وتغيير . . .

ثم تحرك على طريق العودة . بلا كلمة مضى ، وتركهم خلفه غائصين من خزيهم في الرمال . وما عساه يقول لطعمة مثلهم ، أرادوا للحياة ألا تسير ، وللواقع أن يظل بركة آسنة ، وللزمن أن يثبت فلا يطلع « غدا » وإن تبدل نهار بنهار ؟ . . .

وأوى لداره لاثدا بهم . في قلبه كآبة ، وفي عينه سهوم ، وفي فمه علقم . . . وكانت البقية الباقية من النهار أشد عليه من وصبه . جأعة على صدره كجبل ، ثابتة كسد حجب المستقبل ، عالقة في الجوك قطرات بخار في يوم مرطوب . وما أبطأ الزمن على قلب مثقل بقيس الثواني بخفقاته التي يخالها كفت عن الوجيب . . .

هدية الشرف المصنف
السيد من الدين بحر العلوم
لكتبة الروضة الحيدرية

أعوام عديدة من الأسى عاشها في تلك الساعات الطويلة كالدهر ، الهامدة كاللوت ، الجوفاء كالغراغ .. فما حدها بعد زمني ، ولا هزتها حركة ، ولا شغلها وجود . هو نفسه كان يؤلف من كيائها قطعة من اليأس الصامت الذي يضيف إلى كتلتها السلبية رصيذا ضخما من الضياع ..

ولم يد كيف أوقت ساعاتها على النهاية . ولكن عتمة الغسق آذنته بالتغيير . وضوء وقع وهمسات ، ردتته ثانية من مجاهل سهومه ..

والفتت إلى الجمع الذي تخلق به ، يستشرف فيه وجود طائفة من الأشراف والسادة ، الذين لهم في أقوامهم أقدار .. ولم يبال بما حاولت أفواههم أن تلوكة كلمة لواء أو عبارة اعتذار . فلا ولاء من ناكث ، ولا اعتذار من مدمن عصيان .. إنما كان همه أن يدع ذلك الرجل العالي في صدره ، ينفس عن البخار المكتوم ..

ورفع إليهم عينا تلتهب بما في قلبه من غيظ ، ألزمتهم نظراتها الملتهبة الإصغاء ، وهتف يخاطبهم في هدوء مرير :
« الحمد لله .. الذي ابتلاني بكم ، أيها الفرقة التي لا تطيع إذا أمرتها ، ولا تجيب إذا دعوتها .. »

وتهمل على لهم في الجواب ، ولكن حصرهم كم الأفواه .. وما عسام يقولون وقد كان قصاراهم ، حين واعدوه الاجتماع في الجرعة هذا الصباح في جيش لجب يرد عادية معاوية عن مصر ، أن وافوه بمائة رجل هم كل الجيش الموعود ..

وصخب صوته لعله يهز بحرسه العنيف همهم الراكدة ، ويرد من غفلتهم إلى تفهم حقيقة الأمور :

« يا أيها الذين يجمعكم .. ألا تفضيكم .. ألا تسمعون بعدوكم ينتقص بلادكم ، ويسن الغارة عليكم .. أو ليس عجبا أن معاوية يدعو الجفأة الطغام الظلمة فيتمعون .. باسم أبي أدعوكم ، وأنتم أولو النهى وبقية الناس ، فتختلفون وتفترقون عني ، وتبصونني ، وتخالفون على .. »
والجهم منطقته . وخلق عليهم من الوجوم ما حسبوا معه من الأموات ،

كما ملكه من اليأس ما جعل الموت أهون عليه وأحب من حياة هم فيها عذابه
الذى يتجدد في كل لحظة على صحوات حواسه وتردد أنفاسه . . وهل أخفى عنهم
شعوره وقد قرأوه في عياله أكثر من مرة ، ثم جابههم به بالعبارة الصريحة ،
وهو ينعى عليهم الهوان ؟ . .

بل قد خرت أسماعهم كلماته ونفذت فيها كما ينفذ السهم في الرمية إذا قال :
« . . لا أبا لغيركم . . ماذا تنتظرون بنصركم ، والجهاد على حقكم ؟ . . »
الموت خير من الدل في هذه الدنيا لغير الحق . . والله إن جاءني الموت —
وليأتيني — لتجدني لحبتكم جد قال . . . »

وأثار حديثه حية بضمهم فدفعتهم نحوهم إلى الانتصار له ، والإزراء بما
أسرفوا من التراخي والثبوت ، فنهض منهم مالك بن كعب الأرحبي يقول :
« يا أمير المؤمنين ، اندب الناس معي ، فإنه لا عطر بعد عروس وإن الأجر
لا يأتي إلا بالكره . . . »

ثم التفت إلى الجمع يحثهم :

« اتقوا الله ، وأجيبوا إمامكم ، وانصروا دعوته ، وقاتلوا عدوكم . . »

وانثنى يمد الإمام ، بلهجة الواثق الذي لا يستريب :

« . . إنا نسير إليهم ، يا أمير المؤمنين . . »

وكانما شاء أن يعلو لهم ، هذه المرة أيضاً ، في مراجعة أنفسهم ، إعدارا
وإبراء لدمته أمام الله ، فأمر سعداً مولاه أن ينادي في الجمهور :

« . . ألا سيروا مع مالك بن كعب إلى مصر . . أيها الناس . . »

فهل يسيرون ؟ . .



هدية الشهيد السعيد
السيد عز الدين بهر العلوم
لمكتبة الروضة الحيدرية

٣٩٢٣٠

مطبعة الحريّة - بيروت
تلفون : ٢٢٠٤٤٠